روايات تاريخ الإسلام

أبو مسلم الخراساني

تشتمل على سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية
وسعي أبي مسلم الخراساني في تأييدها، إلى قتله في خلافة
المنصور. مع وصف عادات الخراسانيين وأخلاقهم وغير ذلك

تأليف
جرجي زيدان

الدار النموذجية

obeikandl.com

شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

• المطبعة العصرية
بوليفار نزيه البزري - ص.ب: ٢٢١
تلفاكس: ٧٢٠٦٢٤ - ٧٢٩٢٥٩ - ٧٢٩٣٦١ ٧ ٠٠٩٦١
صيدا - لبنان

٢٠٠٧م - ١٤٢٨هـ

Copyright© all rights reserved
جميع الحقوق محفوظة للناشر
لا يجوز نسخ أو تسجيل أو إستعمال أي جزء من هذا الكتاب سواء كانت تصويرية أم الكترونية أم تسجيلية دون إذن خطي من الناشر.

E. Mail
alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb

موقعنا على الإنترنت
www.almaktaba-alassrya.com

obeikandl.com

أبطال الرواية

* **إبراهيم الإمام** : صاحب الدعوة العباسية .
* **أبو مسلم الخراساني** : عبد الرحمن بن مسلم .
* **أبو العباس عبد الله بن محمد** : أول الخلفاء العباسيين .
* **أبو جعفر المنصور** : ثاني الخلفاء العباسيين .
* **نصر بن سيار** : أمير خراسان .
* **دهقان مرو** : أحد الأمراء الفرس .
* **جلنار** : ابنة دهقان مرو .
* **مروان بن محمد** : آخر الخلفاء الأمويين .
* **خالد بن برمك** : قائد عباسي .
* **أبو سلمة الخلال** : ممول الدعوة العباسية .

obeikandl.com

مراجع رواية أبو مسلم الخراساني

هذه هي المراجع التي اعتمد عليها المؤلف في تأليف الرواية ووقائعها التاريخية :

* تاريخ الطبري .
* تاريخ ابن خلكان .
* تاريخ التمدن الإسلامي .
* معجم الأدباء لياقوت .
* تاريخ ابن الأثير .
* تاريخ ابن الاصطخري .
* مروج الذهب للمسعودي .
* الأحكام السلطانية .

obeikandl.com

- ١ -
جلنار

كانت بلاد فارس وخراسان وما وراء النهر قبل الفتح الإسلامي مؤلفة من المدن والقرى، وكان رجال الحكومة يقيمون في المدن ويجعلون فيها كل قوتهم، وأما القرى فكانت في حوزة جماعة من أشراف الفرس يُعرفون بالدهاقين على نحو ما كانت عليه حال قرى أوربا في عصر الإقطاع.. حين كانت البلاد في أيدي الأمراء والأشراف، وكل أمير منهم يحكم مقاطعة تُعرف باسمه، يحرسها جنده ويحرثها رجاله وهو فيهم الحاكم المطلق. وكان الدهقان ورجاله يحكمون أهل القرى من سكان البلاد الأصليين، ويعاملونهم معاملة الأرقاء. وكان هؤلاء خليطاً من الشعوب الآرية يمتازون بضخامة البدن وبروز الصدر.

وقد بقي الدهاقين في قرى خراسان وجاراتها بعد أن فتحها العرب، فقد جرت عادة هؤلاء كلما فتحوا مدينة على أن يقيموا بها حامية منهم. أما القرى فكانوا يقرون فيها الدهاقين على نحو ما كانوا عليه في دولة الفرس، واستعانوا بهم في أعمال الإدارة ولا سيما في اقتضاء الخراج، لما كان لهؤلاء من النفوذ العظيم بين أهل البلاد الأصليين. وكان الدهاقين من الجهة الأخرى ينتفعون بتقربهم من الفئة الحاكمة، ويجترئون مما كانوا يجمعونه من الخراج.. فتضاعفت ثروتهم وازداد نفوذهم. على أنهم كانوا يتفاوتون ثروة ونفوذاً، فمنهم صاحب القرية أو المزرعة الصغيرة، وصاحب الرساتيق العديدة والبلاد الواسعة. وكثيراً ما كانوا يتولون الحكومة كالأمراء. لكن بني أمية كانوا يسيئون إلى أولئك الدهاقين أحياناً، إساءتهم إلى غير العرب. وقد ظل الدهاقين على المجوسية ديانة الفرس القدماء،

وانقضت أيام بني أمية ولم يسلم منهم إلا القليلون.

وكان أعظم دهاقين خراسان، في أوائل القرن الثاني للهجرة، دهقان كانت أكثر ضياعه بجوار مدينة مرو، عاصمة خراسان في ذلك العهد، فغلب عليه الإنتساب إلى تلك المدينة فكان يسمى «دهقان مرو». وكان له ابنة اسمها جلنار غلبت شهرتها على شهرته، وقد ذاع ذكرها في الناس حتى أصبحت مضرب أمثالهم جمالاً وتعقلاً وأنفة، فكثر خطابها من الدهاقين والأمراء.. ولكنها لم تكن تميل إلى أحد منهم، ولم يكن أبوها يعارضها.

وكان دهقان مرو هذا، يقيم بمزرعة له على بضعة أميال من العاصمة وله قصر فخم تأنق في بنائه، وأنشأ حوله الحدائق وفيها الأشجار المثمرة وأصناف الرياحين والأزهار، وسرح فيها الطيور الداجنة والطاووس والديكة الهندية وغيرها، وأقام حول القصر والحديقة سوراً عالياً منيعاً كأسوار القلاع. وجعل خارج السور منازل رجال الحاشية والأعوان، وبينها أعشاش يقيم بها الحراثون والخدم.

ولم يكن يقيم معه بالقصر إلا ابنته ونساؤه وخدمه، ولم يكن له ولد ذكر وهذا القصر مبني على نمط خاص يحسبه المقبل عليه هيكلاً من هياكل النار التي كان الفرس يصلّون فيها قبل الإسلام. ولعله كان كذلك من قبل، فلما أسلم أصحابه حولوه إلى قصر للسكن وأنشأوا حوله الحديقة والسور. ولذلك كان المقبل عليه يرى أساطين ضخمة في صدره من الرخام، عليها نقوش فهلوية وصور بعض الأبطال وبعض نصوص الأدعية أو الصلوات المجوسية. وتحيط هذه الأساطين برحبة أرضها من الرخام مرتفعة عن أرض الحديقة، وفي سقفها نقوش ملونة تمثل أساطير المجوس من مواقع حربية أو حوادث دينية. وكانوا يسمون تلك الرحبة قاعة الأساطين أو القاعة الكبرى.

ووراء القاعة غرف كبيرة مفروشة بأثمن الأثاث من الديباج والابرسيم على الطراز الفارسي.

وفي ليلة من ليالي رجب المقمرة من سنة ١٢٩ هـ كان الدهقان جالساً في قاعة الأساطين هذه، وقد فُرشت بالسجاد، ووُضعت عليه الوسائد المزركشة بالذهب، وفي وسط القاعة شبه منضدة من خشب الصندل المرصع بالأصداف الملونة، وعلى المنضدة تمثال صغير من الذهب لفارس فارسيّ عليه الدرع، وعلى رأسه الخوذة وإلى جنبه السيف، وعيناه وعينا جواده من الحجارة الكريمة. وعلقوا في سقف القاعة مصابيح يتوسطها مصباح كبير، وقد أناروها في تلك الليلة كالعادة، ولكن القمر أغناهم عن نورها.

وكان الدهقان متصدراً القاعة على وسادة من الحرير، وعليه قباء من الديباج الأحمر، وعلى رأسه قلنسوة من الجلد الملون تغطيها عمامة صغيرة من نسيج الكشمير يغلب فيها اللون الأبيض. وكان القباء مبطناً بالفرو لأنهم كانوا في فصل الربيع. وكان الجو بارداً، فالتف الدهقان بقبائه حتى غطى الفرو عنقه ومعظم لحيته. وكان كبير الوجه جاحظ العينين ضخم الأنف أشقر الشعر، وقد خالطه الشيب قليلاً فيحسبه الناظر إليه في الخمسين من عمره وهو فوق الستين. وبعد أن جلس هناك وحده نحو ساعة، نهض فجأة ودخل غرفة ابنته، فبغت الخدم لقيامه ووقفوا احتراماً له.

وكانت جلنار قد ذهبت إلى غرفتها بعد العشاء وبعثت إلى ماشطتها، فجاءتها وأعانتها على خلع ثيابها ونزع حليها، ثم جلست بجانب فراشها تحدثها ريثما تنام. وإنما عجلت جلنار بالذهاب إلى الفراش لكي تخلو بماشطتها وتفضي إليها بما في نفسها، وهي على جانب عظيم من الجمال مستديرة الوجه، ممتلئة الجسم، طويلة القامة

معتدلتها، بيضاء البشرة مع حمرة تتلألأ تحت البياض، سوداء الشعر مسترسلته نجلاء العينين كحلاءهما، تفيض جاذبية وحلاوة. وكان لها في مقدم الذقن فحصة، وإذا ابتسمت ظهر على جانبي فمها فحصتان هما «الغمازتان».

فلما نزعت عنها الماشطة ثيابها، ألبستها قميصاً من الحرير الوردي، وحلت شعرها وسرحته بمشط من العاج فاسترسل على كتفيها، ثم ضفرته ضفيرة واحدة. وكانت الماشطة من أهل الذكاء والتعقل، أصلها سرية ابتاعها الدهقان في جملة جوار بيض من بعض تجار الرقيق الذين يتجرون بالمماليك، من بلاد الترك وما إليها. ولكنها تمكنت بذكائها ولباقتها من اكتساب ثقة الدهقانة جلنار، فجعلتها ماشطتها. والماشطة ذات شأن كبير في بيوت الدهاقين، لأن نساءهم يفضين بأسرارهن إليها ويعتمدن عليها في كثير من المهام. فإذا كانت من أهل الذكاء والدهاء، ملكت زمام القصر وسيّرت الدهقان والدهقانة وفق ما تريد.

وكانت ماشطة جلنار، واسمها ريحانة، قد ملكت ثقة سيدتها، فأحبتها خصوصاً بعد وفاة أمها.. فأصبحت محط آمالها وخزانة أسرارها، فلما انتهت جلنار من تبديل الثياب استلقت على فراش من ريش النعام، غطاؤه أطلس سماوي اللون، فغرقت فيه. واتكأت بذراعها اليسرى على وسادة مزركشة. وأسندت خدها على كفها وتغطت باللحاف إلى أسفل الكتف، وأرسلت يدها اليمنى فوقه وقد نزعت من معصمها أكثر الحلي إلا الأساور، وانحسر الكم عن زندها فظهرت بضاضته. فتوسدت ووجهها إلى ريحانة، وكانت هذه قد لفت رأسها وعنقها بخمار من نسيج الكشمير، ولبست دراعة مستطيلة تحتها سراويل منتفخة على نمط لباس الفرس في تلك الأيام،

وليس عليها شيء من الحلي.

جلست ريحانة بالقرب من جلنار مستغربة ما رأته من سكوتها وانقباضها أثناء تبديل الثياب، وكانت عادتها أن تمازحها في مثل تلك الساعة، على أنها جارتها في السكوت تأدباً، حتى مع علمها ببعض ما يجول في خاطر سيدتها من الأفكار. فلما اتكأت جلنار أشارت إلى ريحانة أن تغلق باب الغرفة، ففعلت.. وعادت إلى مكانها ومدت يدها إلى شعر جلنار وجعلت تلاعبه بين أناملها، ثم مرت بيدها على رأسها وهي تنظر إلى وجهها وتبتسم كأنها تستفهم عن سبب سكوتها. وكانت جلنار تعرف العربية كأكثر أهل فارس في ذلك العصر، لأنها لسان الفئة الحاكمة.. لكنهم كانوا يتفاهمون فيما بينهم بالفارسية لغة آبائهم، فقالت لها بالفارسية: «ما قولك في أبي؟». فقالت: «إنه يريد لك الخير..».

قالت: «صدقت ولكني أراه شديد الرغبة في زواجي».

قالت: «أتلومينه على ذلك.. وأي أب لا يريد أن يزوج بناته..؟ وأنت من نِعَم المولى، في رغد من العيش، وأبوكِ أكبر دهاقين خراسان وليس لَه سواكِ. وكلما جاءك طالب رفضته. أفيُلامُ أبوكِ إذا غضب؟».

فتنهدت جلنار ولم تعد تستطيع السكوت فقالت ويدها تصلح عنق قميصها: «وهل تظنينني أكره الزواج؟ ولكني أرى أبي لا ينظر في زواجي إلى غير فائدته وأنت تعلمين ذلك».

فتجاهلت ريحانة وقالت: «لا أراه كما تقولين يا مولاتي فإنه إنما أراد زواجك بابن أكبر أمراء العرب في خراسان، ولا يُخفى عليك أن هذا الأمير لا يطلب شيئاً إلا ناله لأنه الحاكم وكلمته نافذة، ومَن تقرّب منه اكتسَب مثل هذا النفوذ».

فقاطعتها جلنار قائلة: «وهذا ما أقوله.. إن أبي يريد تزويجي بابن الكرماني أمير هذا الجند لينال حظوة عنده، وليُكثر دخله من جباية الخراج. ثم إن الكرماني هذا لم يتم له الأمر بعد، فهو ليس الأمير الحاكم وإنما يتطلع إلى ذلك... وما أدرانا أنه يناله؟».

فقالت: «أما نيله الإمارة فأنا ضامنة ذلك لما أعلمه من قوة جنده، فهو يحاصر الآن مرو عاصمة خراسان وقد ضيق على أميرها نصر بن سيار حتى فر من أمامه، ولا يلبث أن يستسلم فيصير الكرماني صاحب الأمر والنهي في خراسان وتصيرين أنت أميرة خراسان».

قالت: «أراك تهذين وتتخبطين. أأتزوج ابن الكرماني على أمل أن يغلب أبوه أمير خراسان ويقوم مقامه؟ وما أدرانا أن الخليفة في الشام لا يرسل جنداً يحارب الكرماني هذا ويقهره. فكيف تكون حالنا؟».

فابتسمت ريحانة، وقالت: «أما بصدد الخليفة في الشام، فكوني على يقين من أنه لا يحرك ساكناً لاشتغاله بما حوله عما هو بعيد. فقد علمت من خادمك الضحاك أنه لما تولى الخليفة الحالي مروان بن محمد، قامت الناس عليه حتى أهله ورجاله، وقد قضى زمناً يحارب ويجاهد في بلاد الشام فلم يستطع إخضاعها إلا بشق الأنفس، فهو لن يقوى على استرجاع خراسان إذا تغلب عليها رجل مثل الكرماني».

قات جلنار: «لقد ذكرتني بالخادم المضحك خفيف الروح، وأراه يعرف اللغة الفارسية جيداً مع أنه عربي، كما أنه رغم ضحكه المتواصل وخفة روحه بعيد النظر ذو دهاء وإخلاص. أين هو الآن؟ أدعيه لعلنا نستفيد شيئاً من حديثه».

وهمت ريحانة بالنهوض ولكنها سمعت خفق نعال أمام باب الغرفة. فعرفت أن الدهقان مار من هناك، فوقفت حتى يمر فإذا به وقف بالباب ثم فتحه ودخل ملتفاً بالقباء كما تقدم، فأسرعت ريحانة إلى الباب وخرجت احتراماً لسيدها. وأما جلنار فبقيت في الفراش، وظهرت البغتة في وجهها ولكنها كانت رابطة الجأش فتجلدت ورحبت بأبيها. فأقبل حتى وقف بجانب فراشها، ثم انحنى وأمسك ذقنها بين أنامله كأنه يداعبها. أما هي فلم تكن تجهل غرضه، فظلت صامتة حتى كلمها قائلاً: «أراكِ تحبين الرقاد المبكر يا جلنار؟».

قالت: «كنت متعبة، فاستلقيت على الفراش لأرتاح وأنا لا أشعر بالنعاس».

قال: «هلم بنا إلى القاعة الكبرى، فإن الجلوس فيها يشرح الصدر لما تُطل عليه من الأزهار والرياحين، ونحن في إبان الربيع فضلاً عن نور القمر الساطع».

فلم يسع جلنار إلا الاذعان لرغبة أبيها، فنهضت وتزملت بملاءة كبيرة من نسيج الكشمير ـ يغلب فيها اللون العنابي ـ غطت أثوابها، ومشت معه حتى وصلا إلى القاعة فجلسا على وسادتين متحاذيتين، وجلنار تتوقع من أبيها حديثاً لا يرضيها. فلما استقر بهما الجلوس قال الدهقان: «رأيتك يا جلنار في هذا المساء على غير ما عهدتك، فما الذي حملك على ذلك؟».

فأطرقت وقالت: «إني أطوع لك من بنانك يا مولاي».

قال: «فما بالك سكت لما ذكرت لك أن أمير العرب أرسل يخطبك لابنه؟ ألا تعلمين أن مصاهرة هذا الأمير مدعاة إلى الاغتباط والفخر؟».

قالت: «وأي أمير تعني يا أبتاه؟».

قال: «أعني الكرماني قائد قبائل اليمنية الذي يحاصر مدينة مرو الآن، أو هو فتحها على ما بلغني وقد فر (نصر) منها».

قالت: «إني لا أفعل إلا ما تأمرني، لكني لا أثق بفوز هذا الأمير. وقد رأيتك لما بعث نصر بن سيار أمير المدينة ليخطبني منك لابنه، لم تجبه مع أنه صاحب حكومة خراسان».

قال: «وهذا يدلك على ما أريده لك من أسباب الهناء، لأن نصراً هذا لا يلبث أن يغلب على أمره ويخرج من البلاد مدحوراً لضعف حاميته وانحطاط قوة دولة بني أمية على الإطلاق، فقد أصبح أهل خراسان كافة ناقمين عليها بعد ما ظهر لهم من إيثارها العرب على الفرس، وبعد فرضها عليهم الضرائب الفادحة وطلب عمالها الجزية حتى من المسلمين!».

قالت: «لا أجهل استبداد هذه الدولة، ولكنها لا تزال في نظري أقوى من رجال لا دولة لهم ولا حكومة مثل الكرماني. فإنه أشبه برجل ثائر على حكومته، وشأنه في ذلك شأن جماعة الخوارج الذين يجتمعون على الدولة ثم يتفرقون ويقتلون، وآخرهم شيبان الذي رأيناه بالأمس محاصراً لمرو. وزد على ذلك أن الكرماني ليس معه من الأحزاب إلا القبائل اليمنية من العرب، وأما سائر القبائل المضرية فهم مع نصر بن سيار، وربما عدلوا قوة اليمنية أو فاقوها. وهل نسيت حزب الشيعة القائم الآن في بني العباس وإمامهم إبراهيم بن محمد.. ألم نكن نحن في جملة الفرس الذين عاهدوا دعاة العباسية على نصرتهم وأكثر أحزابهم من أهل خراسان».

قال: «صدقت، لقد عاهدنا الشيعة وساعدناهم، ولكن يظهر لي أنهم يقولون ولا يفعلون. فقد مضى عليهم أعوام منذ دعونا إلى نصرتهم سراً، فأمددناهم بالأموال مراراً، ولكنهم لا يزالون إلى الآن

يتكتمون. وأما الكرماني هذا فإنه جمع الجند ولا يلبث أن يستولي على مرو، وإذا هو فتحها أصبح أمير خراسان، ثم يفتح سواها وتصير دولة قوية تقوم مقام دولة بني أمية. وأكبر شاهد على ذلك أنه تغلب بالأمس على الحارث بن سريج وقتله وشتت جنده، ثم غلب في مرو وفر نصر منها.. فالكرماني صاحب الأمر والنهي الآن.. فأطيعيني وأنت الرابحة، وإذ كان الأمير صهرنا أصبحت كلمتنا العليا، وأصبحتِ أنتِ أميرة خراسان كلها. ومع ذلك فإني وعدته بكِ من قبل، وقد بعث إليَّ بالمهر مع الرسول».

فسكتت جلنار وأطرقت، فاعتبر أبوها سكوتها رضاء، وأراد أن يتحقق من ذلك فصفق، فلما جاءه أحد الغلمان قال له: «ادع الضحاك العربي».

أقبل الضحاك العربي خادم جلنار إلى حجرتها، وكان طويل القامة رقيق البدن محدودب الظهر قليلاً لطوله، وكان لا ينفك ضاحكاً لغير ما سبب كأن به شيئاً من البَلَه. ورغم صغر وجهه وخفة شعر لحيته وشاربيه، كان يضع على رأسه عمامة ضخمة تجعل منظره مضحكاً. وكان الدهقان قد اشتراه من بعض تجار الرقيق، ثم احتفظ به لأنه عربي ويندر بيع مثله في تلك الأيام، ولأنه كان خفيف الروح، خبيراً بفنون الأحاديث، وكثيراً ما دعاه وسأله عن بعض المسائل العربية، فكان يجيب دائماً إجابة الخبير، وإن خلط الجد بالهزل. فلما أنس الدهقان الانقباض في ابنته أراد أن يسليها فاستقدمه. فلما دخل ألقى التحية ثم أمالَ عمامته إلى جانب رأسه فأصبحت بكبرها وانحرافها ذات منظر غريب، ووقف يضحك ويقهقه بلا سبب ظاهر.

فلما رأته جلنار، ضحكت لأنها كانت تستأنس به كثيراً وتتوقع

أن تستخدمه في بعض شؤونها، لما تحققته من جده في معرض المزاح. ثم سأله الدهقان: «متى يثبت سلطان بني أمية في خراسان؟». فأجاب على الفور: «متى شابَ الغراب يا مولاي!».

فالتفت الدهقان إلى ابنته وابتسم كأنه يقول لها: «ألم أقل لك ذلك؟». ثم التفت إلى الضحاك وقال: «كيف تقول ذلك والأمويون لا يزالون أهل سلطان وعند خليفتهم في الشام الجند والأعوان؟ ألا تظنه ينجد هذه المدينة وينقذها من أصحاب الكرماني؟».

فقهقه الضحاك قهقهة عالية وقال: «مسكين نصر بن سيار، لقد بح صوته وهو يستنجد بني أمية وينذرهم بسوء المغبة إن لم ينجدوه، وقد بلغني أنه استعان في إقناع الخليفة بالشعر فنظم له قصيدة قال له فيها:

«أرى بين الرماد وميض نار وأخشى أن يكون له ضرام
فإن النار بالعودين تذكي وأن الحرب مبدؤها كلام

فقلت من التعجب: «ليت شعري أأيقاظ أمية؟ أم نيام؟»
قال الدهقان: «وماذا كان جواب الخليفة؟».

قال: «كتب إليه يقول: «(الشاهد يرى ما لا يراه الغائب). ولم يسعفه بشيء».

فنظر الدهقان إلى ابنته واكتفى بتلك النظرة تأييداً لقوله. ولكنها لم تقتنع. ولم يكن تمنّعها لغرض سياسي أو طمع في سلطان، ولكنها كانت ذات قلب يحب ويبغض، فإذا كانت قد سلمت قيادها إلى أبيها فإنها لم تسلم قلبها لابن الكرماني، ولا سيما أنها كانت ترى أن هناك مَن هو أكثر استحقاقاً لمحبتها، وهو رجل رأته في مجلس أبيها مرة فأحبته، ولكنها لم تجرؤ على التصريح بذلك، لأنها لم تكن تعلم هل هذا الرجل يحبها أم قلبه مشغول بغيرها.

وأشار الدهقان إلى الضحاك فخرج مهرولاً، فلما خلا الدهقان إلى ابنته قال لها: «سأرد رسول الكرماني في الغد بجواب الرضا». ولما وجدها أطرقت وسكتت لم يعبأ بذلك لاعتقاده أنها صنعت ذلك من قبيل الحياء.

على أنها كانت خلال سكوتها قد سمعت طنطنة أجراس عن بُعد، ثم سمعت نباح الكلاب.. فأدركت أن هناك طارقاً غريباً. وما لبث أبوها أن أدرك ذلك أيضاً، فقال لها: «لعل هناك قافلة سائرة على ضوء القمر». ثم جعلت أصوات الأجراس تقرب ونباح الكلاب يشتد، بينما الدهقان وابنته في صمت وكل منهما في شاغل.

- ٢ -
أبو مسلم الخراساني

لم يمض على ذلك قليل حتى سمع الدهقان وابنته جلنار هدير الجِمال وصهيل الخيل وضوضاء الناس. ثم جاء بعض الغلمان مهرولين، وقالوا: «إن قافلة كبيرة وقفت بجانب القرية تطلب النزول بدار الأضياف».

فقال الدهقان: «من أين هم قادمون؟ وما عددهم؟». فقال أحد الغلمان: «إنهم يزيدون على مائة نفس ومعهم الجِمال والخيل، ولا ندري من أين قدموا». فقال: «لا أظنهم يبغون الإقامة جميعاً عندنا.. فادعوهم للنزول». فخرج الغلمان، وبعد قليل جاء أحدهم وقال: «إن رجال القافلة يطلبون مقابلة مولانا الدهقان».

قال: «فليدخلوا».

فوقفت جلنار تهم بالرجوع إلى غرفتها، فأمسكها أبوها وقال: «انتظري حتى نرى مَن يكون هؤلاء».

وما أتم كلامه حتى أقبل رجلان، قد تزمل كلّ منهما بقباء

أسود، وتلثم بلثام أسود، ووراءهما رجلان يحملان حزمة طويلة يسندانها من طرفيها على أكتافهما، فلما وصلا إلى باب القصر أنزلاها إلى الأرض ووقفا. أما الاثنان الأولان فدخلا دخول الأمراء، وحيّا أحدهما الدهقان بالفارسية. فلما سمع صوته أجفل وخيّل إليه أنه سمع ذلك الصوت من قبل، ثم اقترب الرجل من الدهقان، فما كاد يتبين وجهه على ضوء المصباح حتى هتف مرحّباً به قائلاً: «عبد الرحمن؟».

فلما سمعت جلنار هذا الإسم، اختلج قلبها، ونظرت إلى وجه القادم وهو ملثم فلم تعرفه، ولكنها رجحت أن يصدق ظنها فيه لقصر قامته وساقيه وعرض صدره، فظلت جالسة تنتظر، فلما حسر الرجل اللثام بعد أن سمع الدهقان يرحب به، لاحَ تحته وجه أسمر جميل نقي البشرة أحوَر العينين عريض الجبهة حسَن اللحية طويل الشعر، فأدركت جلنار أنه عبد الرحمن بن مسلم ـ وقد سُمي بعد ذلك أبا مسلم الخراساني ـ فامتقع لونها لدهشتها من رؤيته على غير انتظار مع ما في نفسها من حبه.

أما الدهقان فلما فرغ من الترحيب به دعاه إلى الجلوس، فجلس.. ثم دعا أبو مسلم رفيقه للجلوس بجانبه قائلاً: «اجلس يا خالد». ثم التفت إلى الدهقان وقال: «هذا صديقنا خالد بن برمك». فبغت الدهقان وقال: «ابن صاحب النوبهار؟!».

فأجاب خالد قائلاً: «لقد انقضت أيام النوبهار، وتخلصنا من عبادة النار لما هدانا الله بالإسلام».

قال الدهقان: «صدقت، أهلاً بكما ومرحباً». ثم صفق فجاء بعض الغلمان، فأمرهم بإعداد الطعام للأضياف وتقديم ما تحتاج إليه القافلة من الزاد والعلف.

فاعترضه أبو مسلم بهدوء وسكينة قائلاً: «لا تتعب نفسك ولا تشغل رجالك، فإننا لا نحتاج إلى شيء من ذلك ونحن نشكر لك حُسن رعايتك».

فقال: «ومن أين أنتم قادمون؟».

قال: «من الحج». ولكن ملامح وجهه دلت على أنه يعني غير ما يقول، ففهم الدهقان أنه يريد الكتمان كعادته من قبل حين كان يفد على الدهاقين ويطلب المعونة من المال ونحوه سراً انتصاراً للشيعة. ولكن عبد الرحمن ما لبث أن قال: «لا تظننا نريد التكتم، فقد انقضى زمن الأسرار، وآن لنا أن نظهر دعوتنا. فهل أنتم على عهدكم معنا؟».

فتذكر الدهقان أنه صاهر الكرماني، وإذن فقد خالف العهد. وقد كان في جملة مَن عاهد على نصرة بني العباس، ولكنه لم يتوقع ثباتهم لتكرار فشل الشيعة في نصرة أهل البيت، وظن في كلام أبي مسلم مبالغة فأراد أن يتبين الحقيقة، على أن يكتم أمر الكرماني ثم ينضم إلى الفئة الغالبة فقال: «وماذا تعني بذهاب زمن الأسرار؟».

قال: «أعني أننا كنا نأتيكم سراً بإسم إبراهيم الإمام، ونستنصركم على بني أمية ريثما يحين الوقت للظهور وإخراج دعوتنا من القول إلى العمل. أما الآن فنبشركم بأن الإمام قد أمرنا بإظهار الدعوة».

فقال: «هل جندتم الرجال؟».

قال: «لم نجند أحداً، لأننا لم نبدأ بإظهار الدعوة بعد. . وأنت أول مَن عرف اعتزامنا إظهارها. ونرجو إذا أظهرناها أن يجيبنا كثيرون لأن شيعتنا قوية في خراسان، ومعظم الدهاقين معنا».

قال: «هذا صحيح، ومَن هم الذين معك في القافلة؟».

قال: «هم النقباء، وعددهم سبعون نقيباً اختارهم الإمام من شيعته، ووجههم لدعوة الناس إلى بيعته، وحمل السلاح في نصرته، وسنفرقهم في خراسان قريباً».

قال: «وكيف استطعتم المرور بهذا العدد الكبير في البلاد، دون أن يرتاب العرب في أمركم، مع أنهم يسيئون الظن بكل فارسي؟».

فلما سمع أبو مسلم سؤاله أحب أن يفيض في وصف حالهم تثبيتاً للدهقان في نصرة الدعوة فيقتدي به دُهاقنة كثيرون، فقال: «أنت تعلم يا أعظم الدهاقين أن العرب يفاخروننا بأن النبي منهم، وقد احتقرونا وأذلونا وعاملونا معاملة الرقيق، ولو استطاعوا ألا يبقوا منا أحداً لفعلوا. مع أن الفئة السائدة منهم الآن وهم بنو أمية ليسوا من آل بيت النبي بل هم أعداء أهله، وقد اضطهدوهم، وقتلوا آل علي بن أبي طالب ابن عم النبي، وساموهم العذاب الشديد، ولا يُخفى عليك أن آل بيت النبي لا يرون فرقاً في الإسلام بين العربي والعجمي.. بل هم يفضلون العجم على العرب، ولذلك كانت شيعتهم من الفرس. ثم سلّم آل علي حقوق الخلافة إلى آل العباس عم النبي، وكبيرهم الآن إبراهيم الإمام. فتحول شيعة آل عليّ في هذه البلاد إلى نصرة بني العباس. فالإمام الآن مقيم في الحميمة بالبلقاء قرب الشام يبث الدعاة ويوجه الأنصار. وقد عهد إليَّ منذ عام في أن أتولى رياسة هذا الأمر، وكتب إلى أصحابه أن يطيعوني وجعلني أميراً على خراسان وما أفتحه من البلاد. فاستصغر بعض النقباء شأني لأني دون العشرين من العمر وهم شيوخ كبار، لكنهم أذعنوا أخيراً. وقد أوصاني الإمام يوم ودعته في العام الماضي وصية ذات بال هي أساس

كل عمل عملته أو أعمله في سبيل هذه الدعوة».

وكان الدهقان يسمع كلام أبي مسلم مأخوذاً من رزانته على صغر سنّه، وشعر كأنه في حضرة شيخ كبير أو أمير جليل لما كان في وجهه من الهيبة والوقار. فلما سمعه يشير إلى وصية الإمام أصاخ بسمعه ليفهم تلك الوصية... وكانت جلنار منزوية وكلها عيون وآذان لترى وتسمع.. ولا تسل عن حالها في تلك الجلسة وهي المرة الثانية التي تنظر فيها أبا مسلم. ولم تبق جارحة من جوارحها لم يستول عليها الإعجاب به.

أما هو فقد كان في غفلة عما يتقد في قلب الفتاة، وكان كل همه القيام بالدعوة حق القيام. فلما ذكر الوصية مد يده إلى جيبه وقال: «ها أنذا أتلوها عليك كما تلقنتها بالعربية حرفياً». وأخرج ورقاً ملفوفاً نشره، وأخذ يقرأ والحاضرون يسمعون:

"يا عبد الرحمن، إنك رجل من أهل البيت، فاحتفظ بوصيتي وانظر إلى هذا الحي من اليمن فأكرمهم، وحل بين أظهرهم، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم. وانظر هذا الحي من ربيعة فاتهمهم في أمرهم. وانظر هذا الحي من مضر فإنهم العدو القريب الدار. فاقتل مَن شككت في أمره، ومَن كان في أمره شبهة، ومَن وقع في نفسك منه شيء. وإن استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل. فأي غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه، اقتله».

فلما انتهى من تلاوة الرق، لفه وأرجعه إلى جيبه وهو ينظر إلى الدهقان، الذي اغتبط لنقمة الإمام على العرب، لما في نفسه منهم. وما كان رضاه بابن الكرماني صهراً له إلا خوفاً وطمعاً، ولكنه كان لا يزال ضعيف الثقة بشيعة بني العباس. على أنه كتم ذلك وتظاهر بالإعجاب وقال: «إنها وصية حكيم. ويكفي باعثاً على تأييد الفرس

لها أنها تأمر بإذلال العرب وقتلهم، فما أظن دهقاناً أو فارسياً يطلع عليها إلا كان من المتشيعين لبني العباس». ثم التفت إلى خالد بن برمك وسأله: «أليسَ كذلك؟».

وكان خالد في نحو الأربعين من عمره، وأبوه برمك (جد البرامكة) صاحب «النوبهار» أي بيت النار في مدينة بلخ. وقد مات مجوسياً في الغالب فخلفه ابنه خالد هذا وهو من أكثر الرجال عقلاً ودهاء وبطشاً. ثم كان ممن أسلموا من عظماء الفرس وتشيع لآل العباس انتقاماً من بني أمية والتماساً للسلطان والنفوذ إذا قامت الدولة بهم. وكان على كونه كهلاً قد رضي برياسة أبي مسلم، وهو شاب لا تزيد سنّه على العشرين إلا قليلاً، وكذلك صنع كهول وأشياخ ممن قالوا بدعوة العباسيين، فرضوا بأبي مسلم قائداً لهم نزولاً على أمر إبراهيم الإمام. وكان أبو مسلم يحترم خالداً ويقدره حق قدره ويستشيره في مهام أموره، ولذلك اختصه بصحبته لما أراد مقابلة الدهقان. فلما سمع خالد سؤال الدهقان، أجابه على الفور قائلاً: «لا ريب عندي في أن الفرس سيقومون بنصرة العباسيين، وعندي أنه يجب على كل فارسي أن يقدم نفسه وماله لنصرتهم لأن في ذلك رفع شأن الفرس!».

فأراد الدهقان أن يطري أبا مسلم تقرباً منه وإيهاماً له بأنه شديد التمسك بدعوته إخفاء لما سبق من قبوله مصاهرة الكرماني فقال: «لا غرو إذا انتصر الشيعة وفيهم مثلكما من ذوي الحزم والبسالة والتعقل».

فقال خالد: «إن البسالة والقوة لا يكفيان للقيام بهذا العمل».

فأدرك الدهقان أنه يلمح إلى المال، فقال: «على كلّ منا أن يقدم مما عنده، وإذا كنا لم نقصر في الماضي حين كانت الدعوة سرية، فلن

نبخل الآن».

فعاد أبو مسلم لإتمام حديثه فقال: «لقد جئنا إلى خراسان وقمنا بالدعوة سراً، وكنت أختلف إلى الإمام أحمل إليه ما يجتمع عندنا من المال وأتلقى أوامره. فلما كان هذا العام، دعاني إليه فسرت ومعي النقباء الذين ذكرتهم، متظاهرين بالحج.

«ولما بلغنا (قومس) أتاني كتاب الإمام باسمي واسم سليمان بن كثير وهو من كبار النقباء ومع الكتاب راية النصر». قال هذا، وأشار إلى الحزمة المطروحة أمام القصر ثم أخرج الكتاب من جيبه وقرأ: «قد بعثت إليك براية النصر، فارجع من حيث لقيك كتابي، وأظهر الدعوة فإن الله ناصركم».

ولاحظ أبو مسلم أن الدهقان يطيل النظر إلى الحزمة المطروحة أمام القصر، فأدرك أنه يريد رؤيتها، فأمر الرجلين اللذين كانا يحملانها بإحضارها، ولم تسعها القاعة لطولها فأدخلاها من أحد طرفيها وظل الطرف الآخر خارجاً. وكانت ملفوفة بقماش أسود وراية سوداء. واللواء معقود على رمح طوله ١٤ ذراعاً، والراية على رمح طوله ١٣ ذراعاً. فوقف أبو مسلم إجلالاً للواء، وقال: «إن هذا اللواء يسمى الظل، والراية تسمى السحاب، ولونهما الأسود هو الشعار الذي اختاره الإمام إبراهيم لشيعته.. فهم من اليوم يلبسون العمائم السوداء والأقبية السوداء ورياتهم أيضاً سود كما ترى».

ووقف خالد والدهقان إجلالاً للواء، وهمّت جلنار بالوقوف مجاراة لهم.. فلم تساعدها ركبتاها لما غلب عليها من التأثر بحديث أبي مسلم، وما سمعته من أنه قائد الجند، فأصبح همّها منصرفاً إلى الاطلاع على مكنونات قلبه لعله ينتبه إليها فيرمقها بنظرة تفهم منها ما يطمئن به قلبها، فوقفت مستندة إلى أحد الأعمدة، وتصدرت قليلاً

حتى انتبه لها خالد فنظر إلى وجهها نظرة الإعجاب والاستغراب. أما أبو مسلم فأغضى وكأنه لا يرى شيئاً.

ثم سأله الدهقان: «وما المراد باختيار السواد شعاراً لبني العباس. هل أرادوا الإشارة إلى حدادهم على قتل أهل البيت العلويين ومنهم عليّ والحسين، أم ماذا؟».

فقعد أبو مسلم وهو يشير إلى الرجلين أن يعيدا الحزمة، وقعد خالد والدهقان وظلت جلنار واقفة، ثم قال أبو مسلم: «إن السواد شعار أهل بيت النبي، لأن راية النبي كانت سوداء واسمها العقاب كما قد تعلم».

وكان الدهقان يفكر فيما علمه من أمر الشيعة، وخاف على نفسه من أبي مسلم إذا علم ما في ضميره، ولا سيما أن الإمام أوصاه بأن يقتل كل مَن يشك فيه، فتظاهر بالتحمس وقال: «لقد أيقنت الآن بفوزكم وظهور الفرس، ولا بد من استنجاد سائر الدهاقين وترغيبهم في الإسلام، لأن أكثرهم لا يزالون مجوساً».

فقال خالد: «إذا أسلم الدهاقين وأنجدونا بأموالهم ورجالهم، فإنما ينجدون أنفسهم لأنهم ينشئون دولة فارسية ترفع شأن الفرس».

قال الدهقان: «إني ضامن لكم إسلام معظم دهاقين خراسان، والأموال كثيرة». ثم صفق فأتاه غلام، فأمره أن يدعو خازنه.

فلما سمعه أبو مسلم يدعو خازنه، أدرك أنه يريد أن يؤدي إليه عوناً مالياً على عادته في مثل هذه الحال، فأشار بيده إلى أحد الرجلين صاحبي الحزمة إشارة فهم غرضه منها، فخرج مهرولاً ثم عاد ومعه رجلان. تأبط أحدهما كيساً كبيراً فارغاً، والآخر قصير القامة مع سمن قليل وعليه قباء واسع وعمامة كبيرة يكاد يجر قباءه جراً لقصره، ووراءه غلام يحمل دواة وقلماً، فلما دخلوا القاعة وقفوا في بعض

جوانبها، فنادى أبو مسلم صاحب القباء قائلاً: «تقدم يا إبراهيم وخذ من الدهقان ما جادت به نفسه في سبيل نصرة أهل البيت».

وجاء خازن الدهقان فأسر إليه هذا كلاماً، فذهب وعاد ومعه غلام يحمل أكياساً من جلد قد أثقلت كاهله حتى وضعها بين يدي الدهقان. فلما أمر أبو مسلم خازنه إبراهيم بتسلم المال تقدم وأخذ في عد الأكياس وهي مختومة وقد كُتب على كل منها «ألف دينار يوسفية» فبلغت ٢٠ كيساً، فأشار إلى رفيقه والغلام الآخر فتقدما وتعاونا على نقلها إلى الكيس الكبير، وتناول هو القلم والدواة وأخرج من تحت قبائه درجاً كتب فيه عدد الأكياس وما تحويه من الدنانير.

وكان أبو مسلم أثناء ذلك مطرقاً كأنه يفكر في أمر يهمه، وقد زاده التفكير هيبة وشغله عما حوله، وكانت جلنار قد تعبت من الوقوف فقعدت على وسادة بجانب أبيها وهي تختلس النظر إلى أبي مسلم، وكأن خالداً أدرك ذلك منها وفطن لما يجول في خاطرها، ولكنه كان يعلم زهد أبي مسلم في النساء واشتغال باله بالمشروع الخطير الذي ندب له.

فلما انتهى الخازن من تدوين المال نهض واستأذن ولحظ الدهقان في أبي مسلم الرغبة في الانصراف أيضاً فقال له: «إذا كنتم تريدون النوم، فهذه دار قد أمرنا بإعدادها لنزولكم». وأشار إلى بعض جوانب الحديقة.

فنهض أبو مسلم ونهض الحضور وقال: «ننصرف الآن إلى الرقاد، فإن السفر قد أتعبنا هذين اليومين». قال ذلك ومشى فشيّعه الدهقان إلى آخر القاعة، وصفق فجاء بعض الغلمان فأمرهم أن يمشوا بين يدي الأمير بالشموع إلى المنزل المعد له ففعلوا. وعاد الدهقان إلى ابنته وكانت واقفة بجانب العمود وحدها فأدرك مما لحظه

من انقباضها أنها تفكر في أمر زواجها بابن الكرماني، وأنها ترى فيما ظهر من أبي مسلم حجة تدفع بها طلب الكرماني، فوضع يسراه على كتفها ومشى معها إلى غرفتها وقال: «لا أظن هؤلاء الدعاة سيفلحون، وأرى أمرهم هذه المرة صائراً إلى الفشل كشأنهم فيما مضى».

فلم يفتها غرض أبيها من هذا الحديث بعد ما دار بينها وبينه في العشاء فقالت: «إذا كنت تعتقد فشلهم فما بالك تعاهدهم على القيام بنصرتهم وتبذل لهم الأموال؟».

فضحك ووقف وقبض على لحيته بيمينه، ويسراه ما زالت على كتفها، وقال بصوت خافت: «إني أفعل ذلك تحوطاً، لأننا إن أظهرنا له الجفاء، كنا في خطر على حياتنا وأموالنا ولا سيما بعدما سمعنا من وصية إبراهيم الإمام، فإنه أمره بقتل كل مَن يشك فيه. ومع ذلك فنحن غير واثقين الثقة التامة بفشل هؤلاء وإن كنت أرجح الفوز للكرماني للأسباب التي ذكرتها لك قبلاً. فتظاهرنا بالمسالمة أو المساعدة لا يضرنا بل قد ينفعنا. وليس ما نؤديه لهم بالشيء الذي يذكر إذا قيس بما نتوقعه من الكسب إذا كنا في جانب الحزب الفائز».

فلما انتهى الدهقان من كلامه قالت: «لقد أصبت يا أبتاه، إنك تحاسن أبا مسلم بالأموال والمواعيد، وتحاسن الكرماني بجلنار». قالت ذلك وغصت بريقها، فهرولت إلى غرفتها واستلقت على الفراش، فتبعها أبوها وقال: «يظهر أنك متعبة يا جلنار، نامي واتكلي على الله، وأنا أعرف تعقلك وحُسن تدبيرك، وأعتقد أنك إذا كنت عند الكرماني، وكنت أنا مع أبي مسلم بتنا في مأمن وأصبح الفوز مضموناً لنا على كل حال. نامي يا حبيبتي واستريحي الآن». قال ذلك وخرج وهو يتجاهل مغزى كلامها.

أما هي فلما خلت بنفسها عادت إلى هواجسها، وتصورت ما هي فيه من الارتباك حتى إنها لا تدري أتطيع أباها أم تطيع قلبها؟. على أنها لو تحققت أن عند أبي مسلم مثل ما عندها لهانَ عليها إغضاب أبيها وإن كان ذلك مما لا يقدم عليه أمثالها. ولكنها لم ترَ في شيء من حركاته أو أقواله ما يفتح لها نافذة الأمل. ولكن الحب كان يعترض عوامل اليأس. ويهوّن عليها ما ظهر من عدم اكتراثه، فأخذت تنسب ذلك إلى اشتغاله بشؤون الدولة، ثم تعود إلى رشدها فلا ترى له عذراً، وتقول لنفسها: «لو كان عنده بعض ما عندي لشعرت به!».

قضت في ذلك برهة وقد طار الرقاد من عينيها واستوحشت من الوحدة فتذكرت ماشطتها وودت لو تأتيها تلك الليلة لتشكو لها حالها وتستشيرها في أمرها. ثم ما عتمت أن سمعت وقع خطوات بطيئة فعلمت أنها خطوات الماشطة فنهضت وفتحت لها، فدخلت هذه وأغلقت الباب، فدعتها جلنار للجلوس وقالت: «ما الذي جاء بك يا ريحانة على غير انتظار؟».

قالت: «علمت أنك في قلق فجئت لتسليتك».

قالت: «وكيف علمت ذلك؟ ومَن أنبأك به؟».

أجابت وقد ضمتها إلى صدرها وقبّلتها: «أتظنينني غافلة عن أحوالك وما يطرأ عليك من الهواجس، ولا سيما بعد قدوم هؤلاء الأضياف؟!».

قالت: «وهل شاهدتهم وسمعت أقوالهم؟».

قالت: «شاهدت كل شيء، وسمعت كل كلمة خلسة من وراء الستار». فما تمالكت جلنار أن قالت: «وهل رأيت أبا مسلم؟».

قالت: «خفضي صوتك يا مولاتي لأن لهذه الجدران آذاناً، نعم شاهدته وشاهدتك أيضاً».

فخجلت جلنار من تسرعها في إظهار عواطفها، ثم تذكرت ثقتها بريحانة فقال: «وكيف رأيته يا ريحانة؟».

قالت: «رأيته لائقاً. ولكن تمهلي ولا تعجلي، إن في العجلة ندامة!».

قالت: «أراك قد أدركت مكنونات قلبي ولم يخف عليك شيء؟».

قالت: «لم يخف عليَّ شيء، ولكنني أرى الأمر يحتاج إلى الحكمة والتؤدة».

فلم تعد جلنار تقدر على إخفاء عواطفها فقالت: «وما العمل يا ريحانة دبريني برأيك. لقد نفد صبري فإني لا ألبث أن أُزف إلى ابن الكرماني وأنا لا أريده ولا أحبه».

قالت: «أتحبين أبا مسلم؟». وضحكت.

فأطرقت جلنار ولسان حالها يقول: «نعم أحبه؟».

فقالت ريحانه: «وهل يحبك؟».

فرفعت جلنار نظرها إلى ريحانة وفي عينيها دمعتان تترددان بين الأماقي، وهمّت بالكلام فشرقت بريقها وسكتت.

فقالت ريحانة: «إنك لا تعلمين وأنا لا أعلم، فما علينا إلا التحري والاستفهام».

قالت: «من يكشف لنا الحقيقة؟».

قالت: «ألا تعرفين الضحاك؟».

قالت: «وهل تظنينه يستطيع خدمتنا في هذا الأمر؟».

قالت: «أظنه أقدر الناس على ذلك إذا أراد. ولا يغرنك ما يبدو من مجونه فإنه داهية حازم يُعتمد عليه في الأمور العظام».

قالت: «ومَن يخاطبه في ذلك؟ وأخاف أن يفشي سرنا، أو يطلع أبي على أمرنا».

قالت: «كوني في راحة وطمأنينة وأنا أتدبر الأمر، وليس ينقصني شيء سوى المال».

قالت: «وهل للمال قيمة عندي. اطلبي من خازني ما تريدين وافعلي ما تشائين، ثم أنبئيني بما يكون».

قالت: «ينبغي أن نسعى في الأمر من الآن إذ لا نضمن بقاء هؤلاء الأضياف عندنا إلى الغد أو بعده».

فنهضت جلنار من فراشها إلى صندوق صغير في بعض جوانب الغرفة وأخرجت منه صرة من الحرير دفعتها إلى ريحانة وهي تقول: «هذه خمسمائة دينار أنفقيها كما تشائين ولا تبطئي، وإذا وقفت إلى ما أريد فلك المزيد».

فتناولت ريحانة الصرة ونهضت تقول: «كوني في راحة». وخرجت تسترق الخطى وتركت جلنار على مثل جمر الغضا.

لم تكد ريحانة تخرج من الغرفة حتى رأت الضحاك قادماً وكأنما كانا على ميعاد. فلما رأته بغتت ولكنها تجلدت وأشارت إليه أن يتبعها إلى غرفتها في طرف القصر مما يلي الحديقة، فلما أراد أن يدخل الحجرة خلفها اصطدم رأسه بالباب لطوله، فصرخ صرخة أفزعتها وأضحكتها ولا سيما حينما سقطت عمامته على الأرض فوجدته حليق الرأس، فبادرت إلى إغلاق الباب. ثم أرادت الاستفهام عن

سب حلقه رأسه، فأسرع هو وأعاد العمامة إلى رأسه، واقترب منها وقال: «يظهر أنك تحبينني يا ريحانة بارك الله فيك». وضحك وعض على شفته السفلى وتشاغل بإصلاح عمامته، ثم ضحك ضحكة البلَه وجعل يطرق بأطراف أنامله على أسنانه. فضحكت ريحانة من قوله وحركته ثم عبست في وجهه عبوساً يخالطه الابتسام وقالت: «إني أحبك لخفة روحك وعلو همتك، ولا سيما إذا أطعتني فيما سأقوله. لكني أسألك أولاً هل عندك للسر مكان؟».

فقال وهو يضحك: «عندي لكل سر مكان، وللأسرار عندي منازل وطبقات، وإذا كنت في ريب من ذلك قولي فأنصرف».

فضحكت وقالت: «ألا تكف عن مجونك يا رجل؟ أعِرني أذنك واصغ لما أعرضه عليك بحياة الدهقانة وحرمتها عندك».

فسكت وأظهر الجد وتأدب في موقفه وقال: «إني طوع أمرك».

قالت: «أتعرف ضيوفنا الليلة؟».

قال: «أيهما تعنين؟! أبا مسلم الخراساني الذي لا يعرف أباه، أم خالداً بن برمك المجوسي صاحب النوبهار، أَم خازن أبي مسلم إبراهيم اليهودي؟».

فضحكت ريحانة واستغربت قوله إن أبا مسلم لا يعرف أباه فقالت: «وماذا تعني بقولك إن أبا مسلم لا يعرف أباه؟».

قال: «إذا كنت لا تصدقينني فاسأليه».

قالت: «صدقتك، وأسألك كيف كان ذلك؟».

قال: «لو سألته عن نسبه ما عرفه. أما أنا فأقول لك إن أباه فارسي يسميه بعضهم بمسلم، وبعضهم يسميه عثمان، وهو يزعم

أن نسَبه يتصل ببزرجمهر الحكيم الفارسي المشهور. وهذه عادة كبار القوم عندنا فمن كان منهم دنيء الأصل رفعه جاهه إلى طبقات الأشراف. فإذا كان عربياً أوصل نسَبه إلى أبي بكر أو عمر أو الحسين. وإذا كان فارسياً جعل نفسه من نسل (بزرجمهر) أو (أزدشير) أو (كسرى أنوشروان). وأما الذي نعلمه من أمر أبي مسلم فهو أن أباه كان من أهل قرية (ماخوان) وتبعد عن (مرو) ثلاثة فراسخ. وكانت هذه القرية ملكاً له مع عدة قرى أخرى. وكان في بعض تجارته يجلب المواشي إلى الكوفة، ثم أنه ضمِن خراج (رستاق فريدين) على عادة الدهاقين في أيام هذه الدولة (بني أمية) فإنهم يقاسمون الحكومة أموالها بنفوذهم. فلما حان الوفاء عجز عن تأدية ما عليه. فقبض عليه العامل وأرسل معه مَن يشخصه إلى الديوان في الكوفة، وكان عنده جارية يحبها فأخذها معه وهي حامل واحتال على حارسه في الطريق وفرّ إلى (أذربيجان) وهي معه فلما بلغا «رستاق فايق» تركها فيه عند رجل اسمه عيسى بن معقل وذهب إلى أذربيجان، فمات بها. وولدت الجارية صاحبنا أبا مسلم هذا، فربي في بيت عيسى بن معقل وهو يعد نفسه من أولاده. وكان عيسى هذا وأخوه إدريس في ضمان الخراج أيضاً فأصابهما ما أصاب ذاك من تأخير الخراج فقبض عليهما عامل أصبهان وشكاهما إلى أمير العراقين يومئذ خالد القسري، فبعث من حملهما إلى الكوفة وسجنهما فيها، وكانا قد أنفذا أبا مسلم قبل القبض عليهما في مهمة فلما رجع وعلم بسجنهما جاء إلى الكوفة وجعل يتردد عليهما في السجن. واتفق أن جماعة من النقباء دعاة بني العباس جاؤوا إلى الكوفة سراً يدعون الناس إلى أهل هذا البيت فلقوا أبا مسلم هناك فأعجبهم عقله ومعرفته وكلامه، وعرف هو أمرهم فانضم إليهم وخرج معهم إلى مكة فقدموه إلى إبراهيم الإمام هناك فأعجب به وتوسم فيه الخير، فأبقاه عنده يخدمه. ثم إن الدعاة عادوا

مرة ثانية وطلبوا رجلاً يقوم بأمر خراسان فدفع إليهم أبا مسلم هذا وهو صغير السن كما ترين وأوصاه بما أوصاه. فهل يعرف أباه».

فاستغربت ريحانة الحكاية، ثم عادت إلى مهمتها الأصلية فقالت: «آمنا وصدقنا، والآن لا تخرج عما أكلمك فيه، أنظر (ومدت يدها وأخرجت الصرة ودفعتها إليه) هذه هدية من مولاتك جلنار وأنا أريد أن أنوط بك مهمة سياسية».

فتناول الصرة ضاحكاً ووضعها في جيبه وقال: «سمعاً وطاعة».

قالت: «أنت تعلم أن مولاتنا الدهقانة مخطوبة لابن الكرماني أمير الجند الذي يحاصر مرو، وستُزف إليه قريباً. ولكنني رأيت الليلة أن أجَل الكرماني قصير وأن هذا الخراساني سيغلبه، ولقد لحظت أنا أنه يميل إلى مولاتنا ويرغب في أن يتزوجها ولكنه لم يصرح بذلك، فمهمتك الآن أن تبحث عن هذا بدهاء وحُسن أسلوب، ولا تدع أحداً يشعر بك.. ولا بد من معرفة ذلك الليلة».

قال: «هذا عليَّ هيّن. وإذا فرضنا أنه لم يحبها بعد فإني أجعله يحبها. ما رأيك؟».

قالت: «إذا كان ذلك في استطاعتك فإن مكافأتك عظيمة جداً. وهذا سر عميق».

فأطرق الضحاك برهة وقد بدا الجَد في وجهه ثم التفت إلى ريحانة وقال: «إني ذاهب الساعة فادعي لي بالتوفيق».

قالت: «امض وفّقك الله».

فقال: «أمهليني ريثما أصلح من شأني أمام مرآتك». ووقف أمام مرآة من النحاس على الحائط وحمل عمامته وجعل يلفها بأسلوب

مضحك وعبث بشعر لحيته وشاربيه حتى تعربس وانتفش. وخلع جبته ولبسها مقلوبة وخلع نعليه ووضعهما في منطقته ومشى حافياً وهو يضحك.

أما أبو مسلم فقد سار مع خالد، بين الأشجار والرياحين، والخدم يسيرون أمامهما بالشموع، حتى وصلوا إلى بيت بجانب السور قد أضيء بالمصابيح. فدلوهما على الأسرّة المعدة لرقادهما ورجعوا. فلما دخلا أخذ أبو مسلم يخلع ثيابه وسلاحه ويتأهب للرقاد وهو لا يتكلم. وكان خالد في شاغل من أمر جلنار وما شاهده من جمالها وما لحظه من نظرها إلى أبي مسلم، وما كان من جمود هذا حتى إنه لم يشر إليها بعد ذلك بكلمة، فظل خالد ساكتاً وأخذ في خلع ثيابه وسلاحه، ولم يستغرب سكوت أبي مسلم لعلمه أنه كثير السكوت لا يتكلم إلا قليلاً ويندر أن يضحك.

- ٣ -

الخازن إبراهيم والأبله

رجع إبراهيم الخازن بالأكياس إلى غرفة في ذلك المنزل بعيدة عن غرفة أبي مسلم وخالد. وأمر الغلمان أن يضعوا الأكياس وينصرفوا، وكان إبراهيم يهودي الأصل، وقد أسلَم أبوه رغبة في الكسب لا رغبة في الإسلام، وشبّ إبراهيم هذا وهو أشد من أبيه طمعاً. وظل يتزلف ويتملق حتى تقرب من النقباء رجال الدعوة. وكان حاسباً ماهراً فجعله أبو مسلم خازناً له، وكان يقبض الأموال ويدونها رغبة في الكسب من ذلك. ولم يكن كسبه من التلاعب في عد النقود أو سرقة شيء منها لأنه لم يكن يستطيع ذلك إلا نادراً، ولكنه كان يكسب بتبديلها. لأن النقود في ذلك الحين أنواعاً كثيرة هناك، ومنها ناقص الوزن وكامله لاختلاف ضاربيها. فالنقود التي

ضربها الحجاج سنة ٧٥ هـ. كانت ناقصة، فلما تولى ابن هبيرة ضرب أجود منها، ولما تولى خالد القسري زاد في تجويدها، وضرب بعده يوسف بن عمر فأفرط في التشديد والتجويد. فكانت النقود الهبيرية والخالدية واليوسفية أجود نقود بني أمية، وسُمّيت نقود الحجّاج بالمكروهة، فكان إبراهيم إذا قبض مالاً من الدهاقين أو غيرهم من نصراء الشيعة دوّنها في دفاتره بعددها. ولكنه لا يعين صنفها فإذا كان فيها نقود هبيرية أو خالدية أو يوسفية أبدل بها نقوداً مكروهة فيربح من ذلك شيئاً كثيراً. وكان لا يخلو صندوقه من أكياس من النقود المكروهة لأجل الاستبدال عند الحاجة. فما خلا إلى نفسه تلك الليلة، أغلق باب غرفته وأطفأ المصباح، واشتغل بإبدال تلك النقود خلسة وهو يحاذر أن يسمع رنينها.

وكان الضحاك يعرف إبراهيم هذا ويعرف أباه من قبله. فلما ذهب في المهمة المذكورة، اعتزم الاستعانة بإبراهيم لعلمه بتفانيه في سبيل المال. وأما إبراهيم فلم يكن يعرف الضحاك ولا فهم من أمره إلا أنه رجل مهذار خليع أو مجنون.

فمشى الضحاك في الحديقة والقمر قد تكبّد السماء، وجعل يخطر الهوينا وهو ينظر إلى السماء كأنه يعد نجومها أو كأنه يقرأ صفحة مكتوبة فيها، حتى دنا من غرفة إبراهيم فوقف ببابها وتباله وأذناه مصغيتان، فسمع حركة ثم سمع خشخشة. وكان أبو مسلم وخالد قد ناما وانصرف الخدم، ولم يبق في الحديقة أحد، ولم يعد يسمع غير جعجعة الجِمال خارج المحلة من بُعد. وظل الضحاك واقفاً بباب إبراهيم حتى ظنه فرغ مما هو فيه، فطرح كيس النقود الذي معه على بلاطة هناك، فكان لوقعه طنين وخشخشة ظهرا قويين لهدوء الليل.

وكان إبراهيم يعمل في إبدال النقود ويحاذر أن تسمع حركة احتكاكها، فأصبح لشدة محاذرته يخاف أن يكون لتنفسه صوت. وكان يظن أن كل شيء ساكت هادىء، فلما سمع وقع كيس الضحاك على البلاط أجفل وبغت، وظل هنيهة جامداً ينصت لعله يسمع صوتاً آخر فلم يسمع. فأقبل إلى الباب ففتحه رويداً رويداً خوفاً من صريره، وأخرج رأسه وتلفت فرأى الضحاك على بضع خطوات من غرفته واقفاً هناك ويداه خلف ظهره، وقد ولى وجهه نحو السماء ينظر إلى غيوم تتسابق إلى القمر. فتفرس إبراهيم في المكان الذي سمع الخشخشة منه فرأى كيساً حريرياً ملوناً، فحدثته نفسه أن يخرج لالتقاطه ولكنه خاف أن ينتبه له الضحاك، ثم تذكر أنه أبلَه لا يفقه شيئاً وأنه لو كان ممن ينتبهون لم يسقط منه الكيس على تلك الصورة.. فاختلس خطوتين حتى تناول الكيس وهَمّ بالرجوع، وإذا بذلك الأبلَه يقهقه بصوتٍ عالٍ، فارتعدت فرائص إبراهيم وانتفض انتفاض الطير حتى كاد الكيس يسقط من يده، ولكنه تجلد وتظاهر بأنه خرج من الغرفة لشأن له ونظر إلى الضحاك فرآه يمشي نحوه، وهو يخطر ويطيل خطاه كأنه يتخطى أقنية. فابتدره إبراهيم بالكلام، وقال: «هل أنتِ تذرع الأرض أم تعد نجوم السماء؟».

قال وهو ينظر إلى السماء: «بل أنا أفتش عن نقودي، فقد كان معي كيس وأظنه وقع هنا». وأشار إلى القمر.

فضحك إبراهيم وتأكد بلَه الرجل وصمم على إخفاء الكيس، وقال: «هذا جائز». وتحول إلى غرفته، ولم يبلغ الباب حتى أدركه الضحاك، وقبض على رقبته قبضة شديدة، ثم دفعه إلى الغرفة دفعاً. وكان إبراهيم لقصر قامته وجبنه لو أراد الضحاك أن يقبض عليه ويرمي به من فوق السور لفعل. على أنه لو كان شجاعاً ما استطاع

الكلام خوف الفضيحة وإيقاظ النائمين، إذ ربما استيقظ أبو مسلم أو خالد أو غيرهما ممن يخاف الفضيحة لديه إذا رأى أن يدخل غرفته فيكشف أمره، لأن الأكياس كانت لا تزال مفتحة والنقود مبعثرة. وزد على ذلك أن الذنب يصغر النفس ويذلها ويجعل السيد عبداً. ولكن إبراهيم لم يكن ليفتح باب غرفته في تلك الساعة لو لم يسمع طنين الدراهم، فلما رأى الكيس على الأرض ظن أنه يلتقطه ويرجع لساعته. فلما رأى نفسه بين يدي الضحاك وقد دخل معه الغرفة ارتبك في أمره ثم أظهر أنه يمزح فقال: «هذا كيسك قد سقط عليَّ من السماء فخُذه».

فوقف الضحاك وتناول الكيس بأطراف أنامله، ثم تركه فسقط على الأرض فخشخش.. فأسرع إبراهيم فالتقطه وقال: «أليسَ هذا كيسك؟».

قال وهو يضحك: «لا أعرفه إلا على النور فهلا أضأت شمعة؟».

فقال: «تعال ننظر إليه على ضوء القمر». وأمسك بيده وأراد إخراجه، فإذا هو ثابت في مكانه كالشجرة المغروسة لا يتزحزح. فقال له: «إذا كنت تظن نقودك قليلة فأنا أزيد لك عليها».

فنظر إليه وأحنى رأسه كالساجد وقال: «ولكنني لا آخذ إلا نقوداً يوسفية».

فلما سمع إبراهيم ذلك خفق قلبه، لأن ضميره أبكته وظن أن ذلك الأبله مطلع على أسراره. والمجرم يخاف خياله ويحسب أن الطبيعة تراقب أعماله، ولكنه عاد إلى عقله واستبعد اطلاع هذا الأبله على سره وقال: «هي نقود يوسفية. نعم».

قال: «ألم تبدلها بعد؟». وضحك.

فتحقق إبراهيم أن الضحاك مطلع على أمره، وربما كان قادماً إليه بدسيسة. ولكنه لجأ إلى المغالطة وأراد إخراجه من الغرفة ليبعده عن مكان الشبهة فلم يستطع، فقال له: «تفضل.. اجلس». وظن أنه سيخالفه فيخرج، فإذا به قد قعد على الأرض وأمسك بيده وأجلسه، فجلس وهو لا يدري ماذا يعمل، وقد ركبه الخوف فأطاعه ليرى ما يبدو منه. ولم تكن الغرفة في ظلمة حالكة لأن ضوء القمر كان ينفذ إليها من الباب، وكانت الأكياس والنقود ظاهرة. فالتفت الضحاك إليها وقال: «هل أعينك على جمع هذه الأكياس وهل أمحو منها لفظة (يوسفية) وأكتب لك مكانها (حجاجية)، فإن ذلك أولى من ظهور الخيانة».

فاقشعر بدن إبراهيم، وقال له: «قل لي بالله مَن أنت وما غرضك؟ فإنك لست أبلَه كما تتظاهر. مَن أنت؟».

فقال له: «أنا الضحاك. ألا تعرفني؟.. هذه عمامتي وهذه جبتي وهذه نعالي ثم ماذا؟».

فقال: «لا تخدعني بالمزاح، صرح ولك مني ما تشاء».

قال: «أنا الضاحك المبكي، فعسى ألاّ تكون باكياً وأنت خازن هذه الحملة!».

قال: «قلت لك صرح وأخبرني عن حقيقة أمرك، ولك ما شئت».

قال: «لا تهمك حقيقة أمري. وإني أستر ذنبك لقاء حاجة تقضيها لي!» فسُرّ إبراهيم وأحس بانفراج كربه وقال: «اطلب ما شئت فإني فاعل ما تريد».

قال: «هل لك دالة على أبي مسلم؟».

فأطرق إبراهيم وظهر عليه الارتباك وقال: «ليس أبو مسلم ممن تؤخذ عليه الدالة لأنه شديد غضوب يندر أن يضحك، ولا يتكلم إلا قليلاً، وجلساؤه يخافون غضبه لأنه يقتل لأقل شبهة، وأظنك سمعت وصية الإمام التي تلاها على مولاك الدهقان الليلة، وهو يوصيه فيها بأن يقتل كل مَن يشك فيه، فمَن كان هذا شأنه فلا سبيل إلى الدالة عليه، أما إذا كان لك غرض عنده، فإني أبذل ما في وسعي للوصول إليه».

قال: "لقد نطقت بالصدق، ولو قلت لي غير ذلك لاتهمتك وشككت فيك، وعند ذلك يحق لي أن أنفذ وصية الإمام فيك». وضحك ثم قال: «ومرادي أن أسألك سؤالاً آخر، هل عندك للسر مكان؟».

قال: «بئر عميقة.. لا تخف».

قال: «لا أخاف منك لأن روحك في يدي، وليس أسهل عليَّ من أن ألقي الشك في قلب أبي مسلم. ويكفي أن أذكر له مسألة النقود اليوسفية». ثم نهض بغتة ويده في منطقته، فأخرج منها النعلين ولبسهما ووقف. فعجب إبراهيم لعمله وخاف أن يعود جنونه فتحدثه نفسه أن يشكوه إلى الأمير في تلك الساعة، فنهض معه وأظهر الاهتمام به وقال: «ما بالك يا أخي؟ قل ما هو السر؟».

قال: «نسيته في البيت فأنا ذاهب لاستدعائه». وضحك.

فضحك إبراهيم مجاراة له، ولكنه ازداد خوفاً من ذلك التباله، ولم يعلم كيف يسترضيه، فقال له: «بالله كف عن المزاح وأخبرني، وحياتي في يدك.. فلا تخف وأنا إنما أريد قضاء حاجة لك».

فمشى الضحاك فتبعه إبراهيم حتى خرجا من الغرفة، فلما استقبلا ضوء القمر التفت الضحاك وقال: «هل يحمل أبو مسلم أهله

معه إذا سافر؟».

قال: «تعني هل يصحب امرأته في سفره؟ كلا إنه يتركها في منزلها وحولها الأرصاد والعيون لأنه شديد الغيرة ولا يدع لها سبيلاً للخروج من البيت، ولا يدع أحداً يدخل قصره غيره، وفي قصره كوى يطرح لنسائه منها ما يحتجن إليه. وبلغني أنه يوم زفت إليه امرأته أمر بالبِرْذَوْن الذي ركبته فذبح وأحرق السرج لئلا يركبه أحد بعدها!».

فقطع الضحاك كلامه قائلاً: «تقول (لنسائه) كأنه تزوج عدة نساء؟».

قال: «كلا إنه لم يتزوج اثنتين معاً قط، وهو يكره الزواج ويعده جنوناً. ومن أقواله المأثورة: (الزواج جنون. ويكفي الإنسان أن يجن في السنة مرة). فمن كان هذا اعتقاده لا يهتم بالنساء، ولكني أردت بنسائه اللواتي في قصره من الجواري والحواضن ونحوهن مما تقتضيه مظاهر الإمارة».

فلما سمع الضحاك قوله أطرق، وكأنه ثابَ إليه رشده. وأدرك إبراهيم أن ذلك السؤال لم يكن عبثاً، فاستأنس بهدوئه فقال له: «إن أمر هذا الرجل غريب جداً لم أسمع بمثله، ولعل هذه الخلال من أسباب نجاحه لأنه ينقطع عن كل شيء في سبيل القيام بدعوته.. فتراه لا يضحك ولا يمزح ولا يلهو بشيء قط».

قال الضحاك: «وصلنا إلى السر. بلغني أنه لما شاهد مولاتي الدهقانة الليلة شغف بها وكأنه أراد أن يتزوجها. وبما أن مولاتي مخطوبة لأمير آخر، فإذا كان أبو مسلم يريدها لنفسه فإني أستطيع تحويل الخطبة إليه. هذا سر بيني وبينك، فهمت؟».

قال إبراهيم: «لا تخف يا أخي فقد أوسعتني تحذيراً، أما أنه

رأى الدهقانة وأحبها فهذا أمر بعيد، وهو لا يرفع بصره إلى النساء لأنه غيور ويعرف قدر الغيرة. أما إذا كان الأمر على خلاف ذلك فأرجو أن تصرح».

فألقى الضحاك يده على كتف إبراهيم، وهو يخفض بصره ليراه لقصره وقال: «أظنك تعني أن الدهقانة أحبته وكأنها أحبت الاقتران به. فهب أن هذا هو الواقع فما قولك؟».

قال وهو يرفع بصره نحوه: «إن ذلك يحتاج إلى استرضاء أبي مسلم. واسترضاؤه ليس بالأمر السهل لأنه يكره الزواج كما قلت لك».

قال: «إذن أنت لا ترجو قبوله».

قال: «لا أرجوه ولا أنا قانط منه، فالأمر يحتاج إلى روية وسعي"، قال ذلك وأمسك بمنطقة الضحاك وقال: «اسمع، إنك تجعل نفسك مهذاراً وأنت أدهى مني. قد خطر لي خاطر، أظنه يؤدي إلى تحقيق غرضك. لا يستطيع أحد أن يفاتح أبا مسلم في أمر الزواج الآن، ولكنني أرى أن نسترعي انتباهه إلى الدهقانة بأن نذكر له مثلاً أنها شديدة الغيرة على أهل الشيعة متفانية في نصرتهم، وأنها تحب أن تخدمه فيما يؤيد دعوته وينصره على أعدائه. فإذا اجتمع بالدهقانة بعدئذ ثم رأى منها ما يدل على نصرته حقيقة فلعله يحبها. هذا ما أراه وقد أكون مخطئاً». قال ذلك وهز منكبيه، فقال الضحاك: «هذا هو الصواب.. فهل تستطيع أن تتوسط في أمر اجتماعهما؟ على أني أقول هذا من عندي، وأخاف ألا تقبله مولاتي».

قال: «إني في خدمتك بقدر ما أستطيع».

وكانت سحنة الضحاك قد اكتسبت أثناء الحديث طابع الجَد، وكاد المجون أن يذهب عنها. فلما سمع قول إبراهيم عاد إلى مجونه،

فالتقط ذيل جبته وأدارها حول إبراهيم فاختفى فيها لقصره، فأجفل وانسحب من تحتها فوقعت عمامته على الأرض فالتقطها وهو يضحك، فقال له الضحاك: «والله إنك رجل لطيف ومتواضع، فإنك خازن الأمير وتتحمل مجون خادم مهذار مثلي».

قال: «لا أظنك مهذاراً يا أخي، ولا بد لك من شأن. والآن ألا تأخذ الكيس بما فيه؟».

قال: «ليس هو لي، وإنما سقط من القمر وأنت التقطته. فاحتفظ به لنفسك. وإذا وفيت بوعدك فلك عندنا من هذه الأكياس ما يغنيك عن استبدال الدرهم بالدرهم سراً حتى تخاف خادماً مهذاراً.. هل فهمت، السلام عليكم». قال ذلك وتناول نعليه بيديه وهرول مسرعاً إلى ريحانة، وقد تغيّر الطقس وتلبدت الغيوم وهبت الرياح وفيها رائحة الشتاء، وكانوا في أوائل الربيع حين يتقلب الطقس على غير انتظار.

لبثت جلنار في غرفتها تنتظر بفارغ الصبر، وقد تعاظم قلقها واضطرابها لما تتوقعه من فشل المهمة التي ذهبت فيها ريحانة. فكانت إذا سمعت أي حركة، خفق قلبها، وحدثتها نفسها أن تخرج من الغرفة لعلها تلهو بشيء أو تسمع من ريحانة أو الضحاك ما يقوي عزمها أو يطمئن قلبها. وفجأة سمعت جعجعة جمل في الجهة الأخرى من القصر فاستأنست بصوته لأنه من معسكر حبيبها، ثم ازدادت الجعجعة.. فهمت بالخروج لترى ما هناك، ثم وقفت وأصغت فلم تعد تسمع صوتاً فعادت إلى الفراش، ولكنها سمعت وقع خطوات خفيفة فاستغربت ذلك، ثم سمعت نقراً خفيفاً على الباب فنهضت وفتحته وقلبها يدق دقاً شديداً، فإذا بريحانة هي القادمة فسُري عنها لرؤيتها، ودخلت ريحانة مسرعة وهي تتعثر بسراويلها

المنتفخة والبغتة بادية في وجهها. فابتدرتها جلنار بالسؤال عما جرى، فضمت أنامل يدها اليمنى تستمهلها، وقالت بصوت منخفض وهي تلهث وتتلفت يميناً وشمالاً: «تمهلي يا سيدتي». ثم أصاخت بسمعها، فسكتت جلنار وأصغت فلم تسمع شيئاً، فنظرت إلى ريحانة مستفهمة، فأجابتها بصوت خافت: «لقيت الضحاك وأرسلته في المهمة المعروفة، ومكثت في غرفتي قليلاً ثم خرجت إليك وأنا أحاذر أن يراني أحد. وقبل دخولي في الرواق سمعت مولاي الدهقان يتنحنح على مقربة مني فذعرت وخفت أن يكون قد رآني، فوقفت هنيهة والضوء ضعيف فلم أسمع شيئاً. فخلعت نعالي ومشيت حافية على أطراف أناملي حتى جئت إليك».

فقالت: «أظنك واهمة لأن أبي لا يسهر إلى هذا الوقت، وهبي أنه رآك فهذا لا يوجب قلقاً. أخبريني الآن عن الضحاك ومهمته».

فقصت عليها أهم ما دار بينها وبينه إلى أن قالت: «وأنا في انتظار رجوعه لأرى ما يكون، ولا ريب عندي في أن هذا العربي مع ما يظهر من مجونه وبلَهه ذو أريحية وحماسة، ولا أظن مجونه إلا تصنعاً».

قالت: «وما الذي يدعوه إلى التظاهر بالبلَه وهو عربي، والعرب أصحاب هذه الدولة، فلو لم يكن البلَه سجية فيه لكان من أكبر رجال الدولة وكان في غنى عن الخدمة».

فأشارت ريحانة برأسها وعينيها أن «صدقت مولاتي». ثم قالت: «ومهما يكن من شأنه، فإني واثقة بحميته وصدق خدمته، وسترين. ولكن لا بد من الذهاب إلى غرفتي لأنتظره فيها كما تواعدنا».

فقالت: «أرى أن أخرج معك لأجتمع به عندك».

ففهمت ريحانة قصدها وأومأت إيماء الاستحسان والطاعة، ولبثت تنتظر أمرها. فإذا بها قد نهضت من الفراش، وكان على اللحاف مطرف من خز أحمر مبطن بالفرو فالتحفت به فغطاها كلها، ولفت رأسها بشال من الكشمير موشّى بالحرير، فلم يبق ظاهراً منها إلا مقدم وجهها. فمشت الماشطة أمامها وسارتا نحو غرفتها. وما إن خرجتا من الرواق حتى سمعتا هبوب الزوابع وتنسمتا رائحة الشتاء، فسري عن جلنار لسبب لا تعلمه، وأرادت أن تكلم ريحانة، ثم أمسكت حتى وصلتا إلى الغرفة فدخلتا وأغلقت ريحانة الباب وأسرعت لإعداد مقعد لسيدتها، فقعدت جلنار ووجهها تجاه المسرجة. ولما قعدت نزعت الشال عن رأسها فبان وجهها وقد زاده الدفء رونقاً وجمالاً، فتأملتها ريحانة معجبة بجمالها ولم تتمالك عن تقبيل رأسها. ثم جثت بين يديها وأخذت في إصلاح ما بعثره الخمار من شعرها وقالت: «سبحان الخالق، كيف لا يسحر الخراساني بهذا الجمال الذي لا مثيل له؟».

فتنهدت جلنار وسكتت هنيهة، ثم تذكرت شيئاً مر بخاطرها لما سمعت هبوب الرياح وهمت بأن تقوله لماشطتها فقالت: «شعرت يا ريحانة ونحن قادمتان الآن براحة وطمأنينة لسبب لا أعلمه».

فابتسمت الماشطة وقالت: «جعل الله كل أيامك راحة وسعادة». ثم نهضت وقالت: «وأنا أيضاً شعرت بمثل ذلك وأظن السبب واحداً وهو هبوب الرياح وتوقع المطر، فإني كثيراً ما أكون منقبضة النفس فإذا أمطرت السماء سُررت وذهب عني الانقباض». ثم وقفت هنيهة تجاه المرآة لغير غرض مقصود، وتحولت فجأة إلى سيدتها وقالت: «أظن لسرورنا بهذه الرياح سبباً آخر هل أذكره؟».

قالت: «قولي».

فضحكت وقالت: «لأن الزوابع يعقبها المطر الشديد، وإذا اشتدت الأمطار كثرت الأوحال وسُدّت الطرق فيتأخر أضيافنا عن السفر يوماً أو بضعة أيام».

فتبسمت جلنار، وهمت بالكلام ولكنها سمعت ضحكة عالية أدركت أنها ضحكة الضحاك، ولم تكن تتوقع أن يجعل لقدومه مثل هذه الضوضاء وهم في حال تدعو إلى التكتم. فنظرت إلى ريحانة فرأتها في مثل حيرتها، وقالت هذه: «صدقت يا مولاتي إنه أبلَه حقيقة».

ولبثتا بعد تلك الضحكة تتوقعان وصوله، فسمعتاه يقول بصوت عالٍ: «صدقت يا مولاي الدهقان، إن الطقس قد تغيّر ولا يلبث المطر أن يهطل لأن مطر الربيع قد يكون جارفاً. وأنا لا أستطيع النوم في مثل هذه الليلة». وضحك. فلما سمعتا ذلك علمتا أن الدهقان لا يزال ساهراً، فخافت ريحانة أن يعلم بهما فتقدمت إلى السراج وغطته بحيث لا يبدو نوره من شقوق الباب فلما فعلت ذلك سمعتا الضحاك يقول: «ألم أقل لمولاي أن ما ظنه نوراً خارجاً من الغرف، إنما هو من فضلات البرق إذ ليس في هذا القصر ساهر سوى مولاي وأنا. وإذا ظل مولاي الدهقان ساهراً فلا عجب إذا كان أهل القصر سهارى. أما أنا فإني ذاهب إلى الفراش بعد أن أكون في خدمة مولاي حتى يدخل فراشه لأن سائر الخدم نيام، وإذا أحب أن أؤنسه بقية هذا الليل فعلت».

فخفق قلب جلنار عند سماعها كلامه لأنها أدركت أن أباها أساء الظن بريحانة، وسأل عن سبب النور الخارج من غرفتها، وأعجبها الضحاك وحُسن تخلصه. على أنهما مكثتا صامتتين لا تتحركان، فلما مضت مدة لم تسمعا فيها صوتاً أيقنتا أن الدهقان

ذهب إلى فراشه، ولا يلبث الضحاك أن يعود إليهما. فأخذت جلنار تتأهب لسماع الحكم على عواطفها، فإما إلى النعيم وإما إلى الجحيم. ولم تكن تتوقع الشعور بمجيء الضحاك أو سماع خطواته قبل وصوله إلى الباب، لتعاظم هبوب الرياح وحفيف الشجر وقصف الرعد.

- ٤ -

رسالة.. وهدية

وبعد قليل سمعتا قرعاً خفيفاً على الباب، فأجفلتا، وأسرعت ريحانة إلى فتحه وإذا بالضحاك يدخل مسرعاً، وهو في ذلك القباء المقلوب، وعمامته مشوهة ونعلاه في منطقته وشعر لحيته منتفش وهيئته غاية في الغرابة. فلما وجد جلنار هناك، أجفل وقام بإصلاح شعره وتسوية عمامته وهو يضحك بلا قهقهة، وأخرج النعلين من منطقته فوضعهما بالباب، ووقف متأدباً كأنه مارد لطوله. فابتسمت جلنار من منظره وحركاته فقال لها: «أعذريني يا مولاتي فإني لم أكن أحسبك هنا، والحق على هذه الملعونة»، وأشار بإحدى يديه إلى ريحانة وباليد الأخرى إلى عمامته، فضحكت جلنار لأسلوبه في التخلص من غضب ريحانة، وأما ريحانة فغالطته وقالت: «إن الدهقانة مسرورة من همتك ونشاطك».

فقطع كلامها بصوت منخفض وقال: «وأنتِ؟ ألا تسرّين إلا إذا كان العريس لكِ؟».

فقالت: «دعنا من المجون، اروِ لنا ما فعلت، والزم الجَد بحياة مولاتنا الدهقانة».

فلما سمع قولها وقف بين يدي جلنار متأدباً، فأشارت إليه أن يقعد فقعد، وأخذ في سرد ما حدث منذ ساعة خروجه من غرفتها إلى أن لقي إبراهيم الخازن، وكيف احتال عليه وأخرجه من حجرته

وما دار بينهما، حتى انتهى إلى ما تم الاتفاق عليه بينهما، ولكنه لم يذكر ما قاله الخازن عن كره أبي مسلم للنساء، لعلمه أن هذا يسيء إلى جلنار وقد يوقعها في اليأس. على أنه أخبرها أن أحداً من خاصة أبي مسلم لا يستطيع أن يكلمه في أمر الزواج تهيباً، فإذا لقيته هي فلا بأس بأن تخاطبه في هذا الشأن لأنه يحبها ويتمنى قربها، ولا سيما إذا أظهرت له غيرتها على الدعوة التي هو قائم بتأييدها.

وكانت جلنار تتلهف لسماع الحديث، فلما فرغ منه انقبضت نفسها لأنها كانت ترجو أن تعرف شيئاً عن ميل أبي مسلم إليها، فسكتت وظهر الانقباض في وجهها، فأدركت ريحانة سبب انقباضها وأرادت إنعاش أملها فقالت: «بورك فيك يا ضحاك، ما ألطف أسلوبك فقد فعلت كل ما في الإمكان».

فقال: «إني لم أعمل شيئاً بعد، ولكنني مهدت السبيل، فإذا رأت مولاتي أن أبدي لها رأيي فيما ينبغي أن تعلمه فعلت».

فقالت جلنار: «قل يا ضحاك».

قال: «أرى أن تهيئي وسيلة لتجتمعي بأبي مسلم ويدور بينكما الحديث».

فاحمرّ وجه جلنار خجلاً إذ تصورت نفسها في خلوة مع أبي مسلم، وهي قد شبت على ألا تخاطب من الرجال غير أبيها وخدم قصرها. ثم تذكرت أنها لا تستطيع الوصول إلى تلك الجلسة إلا بالتزلف والتذلل والنزول عن أنفتها وعزة نفسها. ثم هي فوق ذلك ستخالف مشيئة أبيها وتتعرض لغضبه إذا علم بذلك الاجتماع. فلما تصورت ذلك غلبت عليها عزة النفس، فتراجعت في مجلسها وهزت رأسها ولسان حالها يقول: «لا أفعل ذلك».

ففهم الضحاك ما يجول في نفسها، فرفع حاجبيه وقلب شفته

السفلى كأنه يقول لها: «الأمر أمرك». ثم قال: «لا أنكر يا مولاتي أن ذهابك للاجتماع به لا يخلو من التنازل و..».

فخافت ريحانة أن يذكر لها أصل أبي مسلم ومنشأه، فاعترضت حديثه قائلة: «لا أرى في ذلك تنازلاً، لأنها إذا ذهبت إليه أو كلمته فإنها تخاطب شاباً هو أعظم رجل في خراسان وقائد رجال الشيعة.. تحت أمرته شيوخ من قواد الخراسانيين وأمرائهم، ويكفي أن الإمام اختاره لهذا المنصب العظيم. وإذا نظرت إلى وجهه علمت أن المستقبل له لا محالة».

فلما سمعت جلنار هذا الإطناب تحركت فيها عوامل الحب، ولكنها ظلت ساكتة. وفهم الضحاك أن ريحانة لا تريد أن يذكر شيئاً عن أصل أبي مسلم أمام جلنار فقال: «لا أنكر منزلة هذا البطل الشاب، وإنما أردت بالتنازل ذهاب مولاتي الدهقانة إليه وهي فتاة، إلا إذا كانت تحب.. (وبلع ريقه) فتلك مسألة أخرى هي أعلم بها». قال ذلك وضحك وهو مطرق برأسه وعيناه مرتفعتان نحوها.

أما جلنار، فإن الاهتمام ظهر في عينيها وسكتت وتشاغلت بإرسال ضفائر من شعرها إلى ظهرها كانت قد استرسلت إلى الأمام عند انحنائها. ثم أصلحت القرط في أذنها وهي مطرقة، وأدركت ريحانة ولحظ الضحاك أنها تتردد في أمر الاجتماع، وظلوا صامتين هنيهة، وأخيراً بدأت ريحانة الحديث قائلة: «تبصري يا مولاتي في الأمر على مهل، فإن القوم باقون هنا بضعة أيام بسبب الأمطار».

فظلت جلنار صامتة مطرقة، فأدرك الضحاك أنها لا تزال مترددة فقال لها: «إذا أذنت مولاتي لمملوكها أن يصرح بما في ضميره فعل».

قالت جلنار: «قل».

قال: «يلوح لي أنك تكبرين أمر ذلك الاجتماع، ونحن نعلم أنفتك وعزة نفسك، ولكن أبا مسلم قد حصر قواه وعواطفه في أمر الدعوة التي قام بها، وما من سبيل يوصلنا إلى قلبه غير هذه الدعوة، فأرى أن تبدأ سيدتي تبادل الرأي بينها وبينه في شيء يدل على عطفها على قضيته، فيكون ذلك فاتحة لعلاقة. ثم نرى ما يكون».

فسُرّت جلنار، وظهر السرور على وجهها فكان جواباً كافياً للضحاك، ثم قالت له ريحانة: «أصبت يا ضحاك.. بورك فيك، أوضح لنا ما تعني».

قال: «أرى أن تبعث مولاتي إلى أبي مسلم بما يدل على تأييدها لدعوته ورغبتها في رضاه. ونرى ما يكون منه».

قالت ريحانة: «أظنك تعني أن ترسل إليه المال».

قال: «المال وغير المال كما تشاء».

فقطعت جلنار حديثهما قائلة: «فهمت.. ولكن..». ونظرت في وجه ريحانة كأنها تستطلع رأيها في أمر لا تريد التصريح به أمام الضحاك، فأدركت ريحانة ذلك فنهضت وهي تقول: «أظنك يا مولاتي قد تعبت من السهر».

ففهم الضحاك مرادها، فنهض وأحنى رأسه ويداه على صدره يستأذن في الذهاب. وقال: «إني رهين ما تأمرينني به». قال ذلك وخرج.

نهضت جلنار، ومشت إلى غرفتها وهي تسترق الخطى مخافة أن يسمع وقع قدميها. أما ريحانة فإنها سارعت إلى السير في أثرها حتى وصلتا إلى غرفة جلنار، فدخلتا وتوسدت جلنار فراشها وتغطت باللحاف والتفت بالمطرق، دفعاً لما أحست به من البرد في أثناء

مرورها في الرواق. وجلست ريحانة بين يديها وقد لفت رأسها وعنقها بالشال. فلما استتب بهما المقام، قالت ريحانة: «هوّني عليك يا مولاتي فلن نعدم وسيلة إلى حل مشكلتك».

فقطعت جلنار كلامها قائلة: «وكيف نستطيع حلها، وأنا كحجر بين مطرقتين أو ثلاث. فأبي من جهة قد عقد خطبتي على ابن الكرماني وسيزُفني إليه قريباً، وأرى نفسي من جهة أخرى مقيدة القلب ولا أدري إذا كانت المحبة متبادلة. فكيف الخلاص؟ وماذا أصنع إذا لم تكن المحبة متبادلة؟». قالت ذلك وشرقت بريقها واحمرت وجنتاها، ولحظت ريحانة في عينيها دمعتين تترددان بين الأماقي فتأثرت لحالها وشعرت بحرج موقفها، فبادرت إلى التخفيف عنها فقالت: «أما ابن الكرماني فليس أمره بذي شأن، لأنك لو زففت إليه لما استطاع الاحتفاظ بك إلا إذا انتصر على أبي مسلم، وفي هذه الحالة لا يكون أبو مسلم كفؤاً لك، وأما إذا كانت الغلبة له فإنه لا يلبث أن يستولي على كل ما هو للكرماني، فتكونين له ولا تعدمين وسيلة تصونين بها نفسك عند الكرماني حتى ذلك الحين».

فأدركت جلنار ما عرضت به ريحانة، وتملكها الخجل، فتكلفت الابتسام، وعادت ريحانة إلى حديثها فقالت: «بقي علينا النظر في الوسيلة إلى أبي مسلم، والحق يُقال أن رأي العربي المهذار أهل للأخذ به. لأن زيارتك لأبي مسلم مفاجأة، وهي بغير سابق تراسل لا تخلو من الابتذال، وخير منها أن ترسلي إليه مع الضحاك بعض المال معاونة له على نجاح دعوته. ثم يتلطف الضحاك فيفهمه أن هديتك هذه دليل حبك إياه وإخلاصك لدعوته. ونرى ما يكون من جوابه. وإذا رأيت أن ترسلي إليه هدية خاصة به تؤكد محبتك، فعلت».

فأشرق وجه جلنار لهذا الرأي، وكانت متكئة فجلست وقالت: «لقد أعجبني يا ريحانة رأيك هذا، وإن إرسال الهدية الخاصة معين على معرفة رأي أبي مسلم فيَّ. فما عسى أن تكون تلك الهدية؟».

قالت: «السيف أجمل هدية تُهدى للقواد، فإذا بعثت إليه بسيف مرصع، وأبلغه الرسول أنه هدية منك إليه، ازداد اعتقاداً بسلامة نيتك في نصرته، وإذا كان في نفسه شيء ظهر».

فقالت: «ومن أين آتي بهذا السيف؟».

قالت: «ذلك يسير على مَن يبذل المال، فأعط الضحاك مالاً، فيذهب ويعود إليك بالسيف في ساعة!».

ففرحت جلنار بهذا التدبير وقالت: «إني آكل تدبير الأمر إليك، وأما النقود فهي عند الخازنة، خذي منها ما تشائين، واحذري أن يعلم أبي فنقع في مشكلة يصعب حلها».

قالت: «كوني مطمئنة يا مولاتي، وخففي عنك ونامي وسوف أقوم بتدبير كل شيء».

ثم قبّلت رأسها ويدها وعادت إلى غرفتها. أما جلنار، فلم تعرف طعم النوم إلا قليلاً لعظم اضطرابها وقلقها.

فلندع هؤلاء في تدبيرهم ولنرجع إلى أبي مسلم، فقد تركناه في دار الضيافة ومعه خالد بن برمك، وهو ساهر يفكر في مشروعه وفيما عساه أن يحول دونه من العقبات، فقد كان شديد الحذر متيقظاً سيء الظن بالناس. وبعد أن نامَ هزيعاً من الليل أفاق على هبوب الرياح وقصف الرعد وتساقط الأمطار، فشق عليه ذلك مخافة أن تحول الأوحال دون سفره. فأطل من نافذة غرفته ونظر إلى ما حوله

وكان المطر قد انقطع والصبح قد تنفس، فرأى المياه قد ملأت الطرق وسالت في أخاديد الأرض، فذهب إلى غرفة خالد ولم يكد يدنو منها حتى رآه خارجاً منها وقد تزمل بعباءته، فصاح به قائلاً: «خالد؟!».

فقال: «لبيك أيها الأمير».

قال: «ما رأيك في الرسول الذي بعثناه بالأمس. هل تظنه تمكن من التجسس؟».

قال: «أظنه فعل، وإذا أبطأ فما ذاك إلا بسبب الأمطار والأوحال».

قال: «إني في انتظاره على مثل الجمر لنعلم حال أعدائنا في مرو، فنتدبر في أمر حربهم».

فقال خالد: «ذلك ما شغل خاطري الليلة وحرمني النوم، على أني واثق بالرجل وإخلاصه، وهو يخاف غضبك ويكره نصراً بن سيار كرهاً شديداً».

قال أبو مسلم: «ما في معسكرنا مَن يحب نصراً، ولكنني أخشى أن يخدعهم الكرماني لأنه من دهاة الرجال. وقد علمت أنه أخرج نصراً من مرو وتملكها».

وفيما هما في ذلك سمعا حركة في داخل الدار، ثم إذا ببعض الغلمان قد أقبلوا يحملون كانوناً فيه نار وضعوه في أحد جوانب الغرفة للاستدفاء، وذروا فيه شيئاً من البخور فانتشرت رائحته في الدار كلها فاستأنس أبو مسلم بالدفء والبخور، وجلس على وسادة فوق البساط والتف بمطرف خز أسود ولاك عمامته على رأسه وأشار إلى خالد فقعد إلى جانبه، ثم تذكر أنهما لم يؤديا الصلاة بعد، فنهض ونهض معه خالد وصلّيا، ثم قعدا يفكران في أمر الرجل الذي

أرسلاه لتجسس أحوال مرو قبل وصولهما إليها، وكانا قد أوعزا إليه أن يوافيهما إلى هناك.

وبعد قليل جاء الخدم بالطعام، فأكلا ولم يتكلما إلا قليلاً لأن أبا مسلم كان قليل الكلام. وعند الضحى دخل أحد غلمان أبي مسلم وقال: «إن بالباب رجلاً يطلب مقابلة الأمير».

قال: «لعله من رجالنا؟». قال: «بل هو من رجال الدهقان». فقال: «يدخل».

فدخل الضحاك يحمل خريطة أثقلت كاهله، فوضعها بقرب الكانون وأغلق الباب، ودخل متأدباً في مشيته حتى وقف بين يدي أبي مسلم، فصاح به هذا قائلاً: «مَن أنت وما غرضك؟».

قال: «إني من موالي الدهقان، ولي مع الأمير شأن أبديه إذا سمح لي بخلوة».

وكان الضحاك يتكلم محاولاً إخفاء أمارات المجون من وجهه، ولم يتم كلامه حتى نهض خالد وخرج. فأشار أبو مسلم إلى الضحاك أن يقعد فأكب على يد أبي مسلم يقبّلها وقال: «قد أتيت مولاي الأمير في مهمة سرية أرجو أن يكتمها لوجه الله، وأنا رسول وما على الرسول إلا البلاغ».

قال: «لا خوف عليك».

فمد الضحاك يده وأخرج من تحت عباءته سيفاً مرصعاً دفعه إلى أبي مسلم. فأجفل هذا لأول وهلة مخافة أن يكون في الأمر دسيسة أو اغتيال، ونظر في وجه الضحاك والغضب والحذر بادٍ في عينيه. فضحك الضحاك متبالهاً، وقال: «أيخاف صاحب هذا الجند من مهذار مثلي جاء بهدية. ومَن يجرؤ أن يقدم على الأمير غير خاضع

مطيع؟ إني أرى الموت بين شفتيك والقضاء المبرم في عينيك، فبالله ألا تبسمت قبل أن أقع قتيلاً». قال ذلك وهو يتظاهر بالذعر، أو هو ذعر فعلاً، لأن أبا مسلم كان شديد الهيبة لا يستطيع أحد التفرس في وجهه.

فتكلف أبو مسلم الابتسام وهو يتناول السيف بيده، وليس في ابتسامه ما يدعو إلى الاستئناس أو السكينة، ولما تناول السيف تأمله وقلبه بين يديه ثم نظر إلى الضحاك وكان لا يزال واقفاً وقال: «اقعد».

فقعد متأدباً وهو يلتفت يميناً وشمالاً، فقال له أبو مسلم: "ما شأنك يا رجل؟ ألستَ عربياً؟".

فتراجع الضحاك وأظهر الخوف، وقال: «وهل عليَّ بأس من وصية الإمام؟».

فلم يتمالك أبو مسلم عن الضحك من حركته وهيئته وقال: «إن وصيته لا تجري على كل عربي، بل الإمام نفسه عربي.. فاطمئن وقل ما خطبك».

فنظر الضحاك إلى الباب نظرة الخائف المحاذر، وقال: «أطلب إلى مولاي أولاً أن يكتم ما سيدور بيني وبينه فقد جئته بأمر أرجو أن ينفعه، وإذا شاع أضرني».

قال: «إننا نكتم أمرك، فقل ولا تخشَ شيئاً».

قال: «إني رسول مولاتي الدهقانة جلنار.. هل تعرفها؟».

فوجم أبو مسلم لحظة ثم قال: «أليست ابنة الدهقان صاحب هذه المحلة؟».

قال: «هي بعينها، وقد شهدت مجلسك بالأمس وسحرت بما

شاهدته من حميتك. وأعجبها الأمر الذي أنت قائم به، ثم علمت بما أداه أبوها من معاونة فأحبت أن تخص نفسها بمال تؤديه هي من جيبها الخاص، فبعثت بجانب منه في هذه الخريطة (وأومأ إلى الخريطة) على شرط ألا يعلم بذلك أحد، وهي لا تلتمس مقابل ذلك إلا رضا الأمير أعزه الله. ثم إنها بعثت إليك بهذا السيف المرصع هدية، وهو قديم فيه سر عظيم ولم يحمله أحد إلا انتصر على عدوه».

فأعاد أبو مسلم النظر إلى السيف، وتناوله واستله من قرابه وتأمل فرنده وهو يلمع كالزجاج وفيه تموّج بديع، ثم قال: «يظهر أنه مسموم».

قال: «أظنه كذلك لأن مولاتي قالت إنه لم يُصَب به أحد إلا مات لساعته ولو كان جرحه خفيفاً».

فقال: «إنها هدية ثمينة، ثم ماذا؟».

قال: «عندي كلمة أخرى أحب كتمانها حتى عن الدهقانة نفسها. فإذا عاهدني الأمير على ذلك بحت له بها».

فاستغرب أبو مسلم كلامه واستأنس بخفة روحه، فقال له: «قل ما تشاء ولا تخف».

قال: «إن مولاتي الدهقانة أجمل أهل زمانها وما من أمير أو دهقان إلا تمنى رضاها، ولكنها تمنع نفسها عن كل طالب، ولم يمل قلبها إلى أحد منهم، وقد خطبها الكرماني ـ أمير العرب المحاصرين مرو ـ لابنه، فقبل أبوها الخطبة، ولكنها لم تقبلها، وقد تذهب إلى الكرماني طوعاً لأمر أبيها، فإذا سارت إليه فقلبها لا يسير معها.. لأنه عالق برجل أعظم منه وأعظم من كل رجل في خراسان».

فأدرك أبو مسلم أنه يلمّح إلى حبها إياه ولم يكن فاته ذلك من

قبل، على أنه أراد أن يتحقق ذلك فقال: «ومَن يكون هذا الرجل؟».

فقال: «هو في هذه الغرفة ولكنه ليس أنا!». قال هذا وضحك. فلم يتمالك أبو مسلم عن الضحك وقال: «لقد أعجبني أسلوبك يا رجل».

قال: «أنا أعلم عن مولاي الأمير أكثر مما يظن، ولذلك فإني لا أقصد برسالتي هذه أن أكلفه ما لا يريد. ولكنني تعهدت لصاحبة الهدية برضا أبي مسلم عنها، ويجوز أن يكون ذلك الرضا ظاهرياً فقط. ثم لا أُخفي على حامل علَم الإمام أن نظرة منه تشف عن رضا أو ارتياح تجعل هذه الفتاة المفتونة آلة بيده قد يستخدمها فيما ينفعه ولو كانت في فسطاط الكرماني نفسه أو في قصر نصر بن سيار صاحب مرو».

فأطرق أبو مسلم هنيهة، وهو يعمل فكرته ويتدبر ما سمعه من الضحاك فرأى قوله لا يخلو من صواب، ولكنه أمسك عن الخوض معه في ذلك، ثم رفع السيف من بين يديه ووضعه وراء الوسادة ونظر إلى الباب، فأدرك الضحاك أنه يريد أن يصرفه، فوقف وقال: «يأمر مولاي خازنه أن يأخذ هذه الأكياس». ومشى نحو الخريطة بقرب الكانون.

فصفق أبو مسلم فدخل حاجبه، فقال: «إليَّ بالخازن».

فخرج الحاجب وعاد ومعه إبراهيم الخازن، فلما دخل إبراهيم ورأى الضحاك في خلوة مع أبي مسلم أوجس خيفة. ولكنه ما عتم أن سمع هذا يقول له: «خذ هذا المال واثبته في دفاترك». ثم رأى الضحاك يفتح الخريطة ويخرج منها عشرة أكياس مختومة قائلاً له: «هذه عشرة أكياس في كل منها ألف دينار يوسفية». وأطال لفظ يوسفية!

فحملها إبراهيم وخرج وهو لا يصدق أنه نجا من شر الضحاك. وبعد خروج إبراهيم أقبل على أبي مسلم وانحنى يقبّل يديه ثم خرج.

ـ ٥ ـ
صاحب الخبر

لبث أبو مسلم هنيهة بعد خروج الضحاك مطرقاً يفكر فيما سمعه، وقد لمح في الرجل غير ما يظهره من المجون وقال في نفسه: «لا يخلو هذا العربي من دهاء مستور». وفكّر في أمر جلنار وتعلقها به وكان قد لحظ ميلها إليه من قبل ولم يعبأ به، فرأى بعد ما سمعه من نصيحة الضحاك أن يُستغل شغفها به في مقاصده وقضى ساعة في هذا التفكير، وإذا بخادم دخل حاملاً جراباً فيه البخور والند، وذر منهما شيئاً في الكانون، فلما رآه أبو مسلم تذكر خالداً فصاح فيه: "أين الأمير خالد؟".

فقال: «في الحديقة يكلم رجلاً قادماً من سفر».

فقال: «ادعهما إليَّ». وقد غلب على ظنه أن القادم صاحب الخبر الذي ينتظرانه. وما عتم أن دخل خالد مبتسماً وقال: «لقد جاء صاحب الخبر هل يدخل؟».

قال: «يدخل». ودعا خالداً للجلوس. وكان أبو مسلم يرى خالداً ذا عقل ودهاء ولا يُخفي عليه شيئاً. فجلس خالد على وسادة بالقرب منه، ودخل الرسول وهو لا يزال بلباس السفر، وعلى عباءته آثار المطر في الليل الماضي. فلما دخل ألقى التحية ووقف، فسأله أبو مسلم: «متى أتيت؟».

قال: منذ ساعة أو ساعتين».

قال: «وما الذي منعك من الدخول علينا؟».

قال: «كنت في انتظار الإذن».

قال: «ليس على صاحب الخبر حرج، ولا ينبغي أن يؤخر إذنه». والتفت إلى خالد كأنه يستطلع رأيه في ذلك، فأشار بالموافقة. ثم أمر حاجبه أن يغلق الباب ويخرج، وأشار إلى الرسول أن يقعد، فقعد متأدباً، فقال له أبو مسلم: «ما خبرك وكيف فارقت مرو؟».

قال: «فارقتها والحصار شديد عليها والأعداء محدقون بها».

قال: «أظنك تعني الكرماني؟».

قال: «إياه أعني، فهو وشيبان الخارجي، يقاتلان ابن سيار صاحب مرو معاً، وكل منهما يضمر السوء لصاحبه».

فقال خالد: «وكيف ذلك وعهدي بالكرماني أنه دخل مرو وأخرج نصراً منها؟».

قال الجاسوس: «نعم يا مولاي قد كان ذلك، ولكنه لم يدم.. ولكي يتضح لكم الأمر أستأذن الأمير في سرد الوقائع».

قال أبو مسلم: «قل ولا توجز».

قال: «لا يُخفى على مولاي أن أمر بني أمية أخذ يضعف منذ بضع سنين، وإنما بقي الحكم في أيديهم تهيباً من اسم الخلافة واحتراماً للدير. فلما أفضت الخلافة إلى مروان بن محمد اختلف أهله في بيعته وانتقضوا عليه مرة واحدة، فقام الخوارج وغيرهم ممن يطمعون في السلطة ـ ومنهم الكرماني ـ وللكرماني أيها الأمير حديث طويل مع نصر بن سيار أمير مرو.. هل أقصه عليكم؟».

قال: «لا بد من ذلك لأن التفصيل يهدينا إلى مخارج الأمور ومداخلها». قال: «لما مات أسد بن عبد الله عامل بني أمية على خراسان منذ عشر سنين، استشار هشام بن عبد الملك (الخليفة يومئذ)

بعض خاصته فيمن يوليه مكانه. فأشار بعضهم بأن يولي الكرماني وهو من رجال الدولة وأهل النجدة والحزم، فأعرض عنه هشام وسأل: (ما اسمه؟). فلما قيل له: (جديع بن علي). قال: (لا حاجة لي به لقد تطيّرت من اسمه). فعرض عليه غيره وغيره حتى استقر الأمر لنصر بن سيار حاكم خراسان الآن. فأسرها الكرماني في نفسه، فلما مات الوليد بن يزيد بن عبد الملك خلا كرسي الخلافة واختلف عليها بنو مروان، فقامت الفتنة وانتهز الكرماني الفرصة وأظهر العداء لنصر بن سيار. ولا يُخفى على مولاي أن الرجل إذا قام يطلب أمراً جعل اتكاله على حزب من الأحزاب، والكرماني وإن كان اسمه يدل على أنه فارسي من كرمان إلا أنه لقّب بذلك لأنه وُلد في كرمان، ولكنه عربي من بني أزد، وهم يمانيون، فاستنصرهم فنصروه على ابن سيار لأن رجال هذا مضربون من عرب الحجاز، والخلاف بين اليمنيين والمضريين قديم ولا يزال شديداً، وسيكون من أكبر سقوط العرب. وكان أهل خراسان أنفسهم منقسمين فيما بينهم للسبب نفسه. فلما مات الخليفة نهض من هذين الحزبين مَن يطلب الخلافة لغير مروان بن محمد. وكان عرب خراسان من هؤلاء فاختلفوا فيما بينهم، وحاول نصر بن سيار أن يوفق بينهم بالتي هي أحسن، فأعياه ذلك ومنع عنهم العطاء. فلما كان في بعض الأيام وقد وقف في المسجد يخطب، نهض الناس وطلبوا منه أعطياتهم فصاح فيهم: (إياكم والمعصية وعليكم بالطاعة والجماعة)، فوثب أهل السوق إلى أسواقهم وثارت الأفكار، فغضب نصر وخطب فيهم خطاباً لا يزالون يتناقلونه إلى اليوم، قال في جملته: (ما لكم عندي عطاء، كأني بكم وقد نبع من تحت أرجلكم شرٌّ لا يُطاق، وكأني بكم مطروحين في الأسواق كالجزر المنحورة، إنه لم تطل ولاية رجل إلا ملوها وأنتم يا أهل خراسان مسلحة في نحور العدو، فإياكم أن

يختلف فيكم سيفان، إنكم ترجون أمراً تريدون به الفتنة، ولا أبقى الله عليكم، لقد نشرتكم وطويتكم فما عندي منكم إلا عشرة، وإني وإياكم كما قال:

(استمسكوا أصحابنا بحذركم فقد عرفنا خيركم وشركم

(فاتقوا الله، فوالله لئن اختلف فيكم سيفان ليتمنين أحدكم أن ينخلع من ماله وولده. يا أهل خراسان إنكم قد غمطتم الجماعة وركنتم إلى الفرقة). ثم تمثل بقول النابغة الذبياني:

فإن يغلب شقاؤكم عليكم فإني في صلاحكمو سعيت

«فعلم الكرماني بذلك الخلاف، وكان نصر قد عزله عن منصب كان فيه من قبل، فاتفق مع أصحابه على انتزاع الأمور من يده، وكاتبوا مَن في مرو من اليمنيين مستنجدين بهم، وقد أخبرني رجل من خاصة ابن سيار أن المضريين أشاروا على نصر بأن يقتل الكرماني، وقالوا له: (إن هذا الرجل يفسد عليك أمرك فأرسل إليه فاقتله أو احبسه). فلم يصغ لرأيهم وقال: (لا، ولكن أزوج بني من بناته وبنيه من بناتي). فلما رفضوا اقتراحه قال: (فأبعث إليه بمائة ألف درهم، وهو بخيل لي يُعطي أصحابه منها فينصرفون عنه). قالوا: (لا.. هذه قوة له). وطال الجدال بينهم حتى قالوا له أخيراً: (إن الكرماني لو لم يقدر على السلطان والملك إلا بالنصرانية واليهودية لتَنَصّر وتهوّد). فلما رأى نصر إلحاحهم عزم على حبسه، فأرسل صاحب حرسه ليأتيه به، وأرادت الأزد أن تخلصه من يده فمنعهم الكرماني من ذلك، وسار مع صاحب الحرس إلى نصر وهو يضحك. فلما دخل عليه، قال نصر: (يا كرماني ألم يأتني كتاب يوسف بن عمر بقتلك فراجعته وقلت شيخ خراسان وفارسها فحقنت دمك؟). قال: (بلى). قال: (ألم أغرم عنك ما كان لزمك من الغرم وقسمته في

أعطيات الناس؟). قال: (بلى). قال: (ألم أرفع ابنك علياً على كره من قومك؟). قال: (بلى). قال: (فهل جزاء ذلك إجماعكم على الفتنة؟). فقال الكرماني: (لم يقل الأمير شيئاً إلا وقد كان أكثر منه، وأنا لذلك شاكر، وقد كان مني أيام أسد ما قد علمت، فليتأن الأمير فلست أحب الفتنة). ثم أمر نصر بضربه وحبسه في قلعة مرو، سنة ١٢٦ هـ. وسعى الأزد لإطلاق سراحه، فقال نصر: (إني حلفت أن أحبسه ولا يناله سوء، فإن خشيتم عليه فاختاروا رجلاً يكون معه). فاختاروا رجلاً اسمه يزيد النحوي أقام معه. ولكن ذلك الحبس لم يطل، فإن رجلاً من أهل (نسف) عاهد أهل الكرماني على إخراجه بحيلة لطيفة. ذلك أنه أتى مجرى الماء في القلعة فوسعه، وأدخل الكرماني في السرب. فخرج بكل جهد وركب فرسه والقيود في رجله، ثم أصبح بعد ذلك من ألد أعداء نصر، وندم هذا على الإبقاء عليه حياً، وتوسط الناس بينهما وطلبوا إلى نصر أن يؤمنه ولا يحبسه، فأمِنه ولكن هذا لم يأمنه. فكان يدخل الجامع للصلاة ومعه ١٥٠٠ رجل وأكثر، فيصلي خارج المقصورة ثم يدخل على نصر في المقصورة فيسلم عليه ولا يجلس. ثم تخلف عن نصر وأظهر الخلاف، فبعث إليه نصر مَن يستقدمه معتذراً إليه عن حبسه، فأبى».

وكان الرسول يتكلم، وأبو مسلم صامت يحدق بعينيه ويتفرس فيه. وقد راعه ما سمع عن مطاولة نصر للكرماني، فصاح بالرجل قائلاً: «لقد لقي نصر جزاء ضعفه وتردده، لماذا لم يقتله ويكفي نفسه مؤونة الحذر منه؟ أطال الله بقاء الإمام وأيّد دعوته، إن في وصيته ما يغنينا عن هذه المطاولة». قال ذلك وهو يعبث بشعرات من لحيته، وخالد يتهيب ما ظهر من حماسته ثم قال أبو مسلم للجاسوس: «ثم ماذا؟». فقال: «وما لبث الكرماني أن حارب نصراً وأخرجه من مرو

قهراً في العام الماضي أو الذي قبله ، ولكنه أنقذه من الحارث بن سريج».

فقاطعه خالد قائلاً: «أنا أعرف الحارث هذا، فقد كان في بلاد الترك وأبلى بلاء حسناً، وكان بينه وبين نصر اختلاف واشتد الجدال بينهما، فاقترح نصر أن يحكم بعض الوجهاء ولم يتم ذلك». ثم التفت خالد إلى أبي مسلم وقال: «والحارث هذا يزعم أنه صاحب الرايات السود!».

فنظر أبو مسلم إليه متعجباً، وواصل الجاسوس كلامه فقال: «ولكن نصراً لم يصدقه فأرسل إليه يقول: (إن كنت تزعم أنكم تهدمون سور دمشق وتزيلون ملك أمية، فخذ مني خمسمائة رأس ومائتي بعير، واحمل من الأموال وآلة الحرب ما شئت وسر.. فلعمري لئن كنت صاحب ما ذكرت إني لفي يدك، وإن كنت لست ذلك فقد أهلكت عشيرتك). فأجابه الحارث: (قد علمت أن هذا حق ولكني لا يبايعني عليه مَن صحبني). فقال نصر: (لقد ظهر أنهم ليسوا على رأيك، فاذكر الله في عشرين ألفاً من ربيعة واليمن يهلكون فيما بينكم)..».

فقطع أبو مسلم كلام الجاسوس، وقال: «إنهم يخافون أصحاب الرايات السود ويداروهم لما يرون من صدق بلائهم ومضاء عزيمتهم وأنهم يقتلون كل مَن يشكّون فيه».

فعاد الجاسوس إلى حديثه فقال: «ولم يكن ذلك ليثني الحارث عن عزمه، فرأى نصر أن يضرب به الكرماني فقال له: (إن كان ما زعمت حقاً، فابدأ بالكرماني فإن قتلته فأنا في طاعتك)، فلم يفعل. وتطاول الحارث على نصر حتى صاروا يقرأون سيرته في أسواق مرو وفي المساجد يدعون الناس إلى بيعته، حتى قرأوها مرة على باب نصر

نفسه، فهاج الناس والتحم الفريقان، وكانت معركة هائلة. فلم يرَ نصر إلا أن يستنجد الكرماني، ولكن هذا لم ينجده. وبعد ذلك انتهت المعركة بفرار نصر من مرو، واستيلاء الكرماني عليها. فلما رآه الحارث قد فاز، بعث إليه يطلب أن يكون الأمر شورى بينهما، فلم يقبل، ثم اقتتلا فقُتل الحارث وتفرقت قواته، وصارت قبائل اليمن كلها مع الكرماني، وقد انتصروا على المضرية أصحاب نصر فاستبدوا فيهم وانتقموا منهم وهدموا منازلهم. وكان الحارث نفسه مضرياً فلما قُتِل قال فيه نصر:

«يا مُدخل الذل على قومه بعداً وسحقاً لك من هالك».

فقال أبو مسلم: «فالكرماني الآن صاحب مرو.. وأين نصر؟».

قال: «لم تطل إقامة الكرماني في مرو، لأن المضرية اشتد ساعدهم بعد مقتل الحارث، وانضم إليهم جماعة كبيرة من رجاله. فعاد نصر إلى فتح مرو، وخرج الكرماني منها وعسكر خارجها».

قال: «فالكرماني الآن يحاصر مرو».

قال: «وليس وحده».

قال: «ومَن معه؟ أظنك تعني شيبان الحروري».

قال: «نعم يا مولاي. وليس شيبان بالشيء القليل لأنه يرى رأي الخوارج، فهو مخالف لنصر لأنه من عمال مروان. وقد اتفق مع الكرماني على قتل نصر لأن الكرماني يمني ونصر مصري».

فقطع خالد كلام الرجل، وخاطب أبا مسلم بالفارسية بما معناه: «لا يُخفى عليك أيها الأمير أن هذين لا يكرهان دعوتنا لأننا ندعو إلى خلع مروان أيضاً».

فأجابه أبو مسلم: «سأذيقهم طعم الحزم والعزم، وسأريهم كيف تؤكل الكتف».

ثم التفت إلى الرسول وقال: «إذن مرو يحاصرها الآن جند الكرماني وشيبان؟».

قال: «نعم يا مولاي وهما على وفاق».

قال: «وهل تعرف عدد رجالهما؟».

قال: «لا أعرفه بالضبط، ولكنهم يزيدون على بضعة آلاف».

فتحرك أبو مسلم في مجلسه كأنه يتحفز للنهوض، ففهم الرسول أنه يريد خروجه فنهض وخرج، والتفت أبو مسلم إلى خالد وقال له: «علينا قتال هؤلاء جميعاً: الكرماني، وشيبان، ونصر».

فسكت خالد ولم يجب، فلحظ أبو مسلم ما يجول بخاطره فقال: «كأني بك تسأل: كيف نحاربُ هؤلاء وليس معنا من الرجال أحداً؟. ولكن سترى كيف يأتيك الناس مئاتٍ وألوفاً». قال ذلك ونهض ليتفقد حالة الجو، فمشى معه خالد إلى الباب وأطلا على الحديقة فوجدا الشمس مشرقة، وقد صفا الجو وشاعَ الدفء وأخذت المياه في الجفاف. فقال أبو مسلم: «نسافر الليلة إن شئنا».

فقال خالد: «إذا رأى الأمير أن نبيت الليلة هنا ونرحل في الصباح، كان ذلك أقرب إلى الصواب».

قال: «لا بأس من ذلك، وأرى أن نبعث إلى كبار النقباء نخبرهم بعزمنا ونشاورهم في أمرنا وفي الخطة التي يجب أن نعمل بها قبل السير إلى مرو. لأننا في حاجة إلى الرجال والأموال، وأنا على يقين من نجدة كل دهاقين خراسان فهم متفقون على الانتقام من العرب كافة لما يسومونهم من الخسف والذل».

فقال خالد: «ألا ترى أن نكاتب الدهاقين ونستنجدهم ونبث الدعاة قبل سيرنا من هنا، حتى إذا نهضنا إلى مرو لا يطول انتظارنا النجدة، ثم تتوالى علينا بعد ذلك النجدات بإذن الله».

قال أبو مسلم: «سنكاتب الدهاقين ونبث الدعاة متى خرجنا من هنا، وننزل في أقرب القرى إلينا، ثم نرحل إلى سفيذنج فننزل فيها على صاحبنا سليمان بن كثير فنكون أمام مرو».

فلما سمع خالد اسم ابن كثير تذكر ما في قلب أبي مسلم من هذا الرجل مع ما يظهره له من احترامه. فابن كثير كان يدعو لأهل البيت قبل ظهور أبي مسلم، وقد أبلى في ذلك بلاء حسناً ونال مقاماً رفيعاً. فلما بعث إبراهيم الإمام أبا مسلم إلى خراسان وعهد إليه في رياسة الدعاة لم يقبله سليمان بن كثير لصغر سنّه، وكبر عليه أن يكون تحت أمره. وكان في جملة الدعاة رجل اسمه أبو داود، فحسن للدعاة قبول أبي مسلم رئيساً عليهم فقبلوه. وكان قد بلغ أبا مسلم ما قاله ابن كثير فيه، فحقد عليه وعرف فضل أبي داود، فلما سمع خالد بن برمك أبا مسلم يذكر ابن كثير تذكر هذه الحادثة، ولكنه تجاهل وأسرع إلى الجواب لئلا ينتبه أبو مسلم لما جال في خاطره فقال: «حسناً رأيت أيها الأمير، فلنتأهب للمسير، وفي الغد نسافر إلى أقرب القرى إلينا وهي (فنين) على ما أظن».

قال: «نعم هي بعينها، فابعث إلى النقباء أن يكونوا على أهبة الرحيل في الغد، ولا بد لنا قبل الرحيل من الاجتماع بدهقاننا لنوصيه بالاتصال بأصدقائه من دهاقين مرو ليمدوننا بالمال أو بالرجال، والله الموفّق».

فوافق خالد على هذا الرأي وخرج.

تركنا جلنار بعد خروج ريحانة من عندها مضطربة البال وقد

قضت ليلتها لم تنم، وكلما تصورت الضحاك مع أبي مسلم يقدم إليه الهدية خفق قلبها، فأصبحت متوعكة، وظلت في فراشها متضاربة الأفكار، تخاف أن يبكر أبوها إليها ويكلمها في شأن ابن الكرماني، وهي تريد معرفة ما يكنه قلب أبي مسلم أولاً.

وقضت في هذه الحال ساعات، ثم إذا بريحانة تدخل عليها، فلما رأتها جلنار اعتدلت في الفراش وتفرست فيها عساها أن تستطلع ما يبدو في وجهها من الأنباء، فلما رأتها تبتسم انشرح صدرها وسألتها عما فعلته، فأجابت: «قد أرسلنا الهدية وهي جميلة و. . .».

قالت: «هل عاد الضحاك؟».

قالت: «لم يعد. . فهل آتيك بالطعام؟».

قالت: «لا أشعر بحاجة إليه، دعينا من الأكل وأخبريني عما تتوقعينه من أمرنا».

قالت: «خيراً إن شاء الله ولكن. .». وسكتت.

فبهتت جلنار، وقالت: «ولكن ماذا؟».

قالت: "جئتك بأمر من أبيك".

فصعد الدم إلى وجهها واشتد خفقان قلبها، وقالت: "ماذا يريد؟".

قالت: «لا تخافي يا سيدتي لقد استدعاني مولاي الدهقان في هذا الصباح واسرَّ إليَّ أمراً أوصاني بألا أبوح به إليك، ولكنني سأخالفه وأقص عليك الخبر، وهو إني لما مثلت أمامه أعطاني خاتماً كان معه وهو هذا (وأرتها خاتماً من الذهب فيه حجر جميل من الفيروز). وقال: (هذا هدية لك). فأخذته وقبّلت يده، ثم حدثني عن حبّه لك ورغبته في راحتك وسعيه في سعادتك وأنه يعجب

لترددك في أمر ابن الكرماني، ثم ذكر ما يعلمه من دلتي عليك وعهد لي في أن أقنعك بقبول ابن الكرماني لأنه أمير ابن أمير وهو صاحب الأمر والنهي و..».

فقطعت جلنار كلامها قائلة: «وماذا قلت له؟».

قالت: «تظاهرت باستحسان رأيه، فما كنت أستطيع غير ذلك، حتى إذا آنس مني الموافقة ذكرت له إني لا أرى أن يعجل بالأمر، فما لا يقضى اليوم إلا بالعنف والضغط قد يقضى غداً بالرضا والاقتناع، وتعهدت له بإقناعك، وغرضي أن يمهلنا حتى نرى ما يبدو من ضيفنا، وقد جاريته في قوله حتى أملك منه سبباً يهيىء لي عونك، وإلا فإنه لو قال لك اذهبي الآن إلى الكرماني لما استطعت الامتناع».

فقالت جلنار: «أذهب، ولكن مكرهة».

ثم صمتت وظلت مطرقة، وأرادت بعدئذ أن تعود إلى السؤال عن الضحاك. ولكن منعها الحياء من تكرار السؤال، ولم يفت ذلك ريحانة، فوقفت، تقول: «هلم بنا إلى المائدة، ومتى تناولت الطعام ننظر ما يكون».

فنهضت وأخذت ريحانة في إلباسها ثيابها وتطييبها وضفر شعرها، وجلنار ساهية، حتى أتتها بالمرآة وقالت: «أنظري إلى هذا المحيا، وقولي سبحان الخلاق».

فحوّلت جلنار وجهها عن المرآة كأنها لا تريد أن ترى صورتها، وقالت: «لا تخدعيني بهذا الإطراء يا ريحانة، لو كان في وجهي جمال لما كنت في هذا الشقاء».

فابتدرتها ريحانة قائلة: «لا تيأسي يا مولاتي، وهلمّ بنا إلى

الطعام». قالت ذلك وخرجتا معاً، وجلنار تنظر إلى الرواق المؤدي إلى الحديقة لعلها تجد الضحاك عائداً فسمعت ريحانة تقول لها: «إذا أشار مولاي الدهقان إلى الكرماني أو ابنه فلا تبدي تمنعاً».

فأشارت جلنار برأسها بالقبول، وهي لا تزال تنظر نحو الرواق لا تحول وجهها وفكرها عنه. وجلست إلى المائدة وعليها ألوان الأطعمة الباردة والحارة والفاكهة، فتناولت شيئاً يسيراً منها وهي لا تتكلم، وكلما سمعت صوتاً يشبه وقع أقدام الضحاك التفتت نحو الباب وريحانة تلاحظ حركاتها وتتألم لقلقها وتحاول إلهاءها بالحديث، ثم تناولت تفاحة وقدمتها إليها وهي تقول: «ما أشبه لون هذه التفاحة بلون خدّيك». ودفعتها إليها فأخذت جلنار التفاحة وقضمت قطعة منها، فسمعت نقراً على الباب فأصاخت بسمعها واللقمة في فمها وقد أمسكت عن المضغ ووقفت لتفتح الباب. . فسبقتها ريحانة إليه وفتحته، فسمعت جلنار ضحك الضحاك ولم ترَ وجهه فاصطبغ وجهها بالاحمرار وكادت تشرق بريقها، ولكنها تجلدت وأخذت في مضغ التفاحة تتشاغل بذلك عما كاد يغلب عليها من القلق، ودخل الضحاك يتأدب في مشيته، فابتدرته ريحانة قائلة: «ما وراءك؟».

فضحك وتباله ووقف، فانتهرته ريحانة قائلة: «لا تتباله، هيا أخبرنا بما فعلته».

قال: «دعيني أضحك، فإني مسرور».

فأشرق وجه جلنار واستبشرت ونظرت إليه وهي تبتسم ولسان حالها يقول: «أخبرنا بما سرك».

فالتفت إلى جلنار وقال: «أبشرك يا مولاتي بأن عند صاحبنا الخراساني أضعاف ما عندك من. .». وسكت.

فلم تتمالك جلنار من الضحك، ثم انتبهت إلى ما في ذلك من

التسرع فأمسكت وقالت: «بارك الله فيك، لقد أتعبناك ونرجو أن نكافئك.. قص علينا خبرك».

قال وهو يلتفت يميناً وشمالاً كأنه يحاذر أن يسمعه أحد: «ذهبت إلى أبي مسلم بالهدية فقبلها، ولم يشأ أن يكلمني في حضرة رفيقه ابن برمك فأشار إليه فخرج. فلما خلوت به سألني عنك وتلطف في الاستفهام عن حالك، فكدت أطير من الفرح».

فلما سمعت جلنار قوله اشتد خفقان قلبها وكاد السرور يخرج بها عن حدود الحشمة لو لم تتذكر أنها أمام خادم، فتجلدت ونظرت إلى ريحانة كأنها تقول لها استزيديه بياناً، فقالت له ريحانة: «ماذا قال لك؟ هل رأيت منه ميلاً إلى مولاتنا؟».

قال: «رأيت عنده أضعاف ما عندها، وقد شهدت له بسلامة الذوق لأنه قدّر هذا الجمال حق قدره». قال ذلك وهو ينظر إلى الأرض مطرقاً من الحياء، فخجلت جلنار وغفرت له جرأته في سبيل ما جاءها به من البشرى، وظلت ساكتة فقالت ريحانة: «دعنا من التلميح وقل بصراحة ما قاله لك؟».

قال: «لا أذكر كلامه بالحرف، ولكني فهمت منه أنه عالق القلب بمولاتي وكان يخشى ألا يكون عندها مثل ما عنده، فكان يظهر الإعراض في أثناء جلسة الأمس. لكنه أوصاني وبالغ في التحذير من إظهار الأمر لمولاي الدهقان، وذلك لغرض في نفسه، هو سر عميق أزهق روحي قبل اطلاعي عليه».

فقالت ريحانة: «وما هو ذلك السر؟».

فوجم الضحاك وقطب وجهه كأنه ندم على ما فرط منه وتراجع نحو الباب، فابتدرته ريحانة قائلة: «ما بالك تتراجع، هل ندمت على صدق خدمتك؟».

فوقف وتشاغل بإصلاح عمامته، وقد حول وجهه إلى جلنار وجعل ذراعه بين عينيه ووجه ريحانة وأشار إلى جلنار بجفنيه وعضّ على شفته السفلى، ففهمت جلنار أنه لا يريد أن يتكلم أمام ريحانة فابتدرتها قائلة: «دعيه.. سأسأله فيما بعد».

فرجعت ريحانة إلى مقعدها وسكتت، وظل الجميع سكوتاً لحظة، ثم أدركت ريحانة أن الحالة تدعو إلى خروجها فخرجت. فلما خلت جلنار بالضحاك نظرت إلى وجهه مستفهمة، فدنا منها ثم التفت إلى الباب الذي خرجت منه ريحانة وقال: «سأبوح لك بسر عاهدني أبو مسلم أن ألقيه إليكِ على أن تعاهديني على كتمانه عن كل إنسان، فهل تعديننني بذلك؟».

فقالت: «نعم أعدك، فقل».

قال: «هو يحبك يا سيدتي كثيراً، ولكنه عاهد نفسه على ألا يقرب النساء ولا يعقد عقداً حتى يفرغ من مهمته ويخرج من حربه فائزاً بعد أن يهلك أعداءه.. فهمتِ؟».

فأطرقت وهي تفكر فيما ينطوي عليه هذا القول من المعاني، فلم تفهم مراده تماماً فقالت: «أفصح يا رجل.. قل كلمة أخرى».

قال: «أنتِ تعلمين أن أبا مسلم قائم بهذه الدعوة، وأعداؤه كثيرون، وأكبرهم الكرماني ونصر بن سيار، وهو لا يضمن الفوز إلا بقتلهما، وقد أخبرته أن الكرماني خطبك لابنه فسُرّ وابتهج». قال ذلك وحكّ ذقنه وضحك.

فأطرقت مفكرة في هذا التناقض، ثم رفعت بصرها إلى الضحاك وفي عينيها دلائل الاستفهام والاضطراب، فقال: «لم يسره أن تكوني لابن الكرماني، بل سرّه أنك ذاهبة إليه وأنت تريدين أبا مسلم وتحبين نصرته على أعدائه».

فأدركت جلنار أن أبا مسلم يرجو منها أن تعاونه على قتل الكرماني وهي عنده، وقتل ابن سيار، فأكبرت الطلب فوجمت ولبثت صامتة وقد حارت في أمرها وأعظمت أن تصرح للضحاك بما أدركته من خلال كلامه، وأصبحت بين عاملين قويين أحدهما يدفعها إلى إرضاء حبيبها والبذل في سبيله، والآخر يمسكها عن الاشتراك في قتل رجل لا ذنب له. وقضت مدة وهي مترددة فأتعبها التردد وأحست بصداع شديد وضاق صدرها فوقفت والضحاك يراعي حركاتها ويتوقع أن يسمع منها جواباً. فلما رآها وقفت، علم أنها في حيرة شديدة فقال لها: «لا تتعجلي في الحكم يا سيدتي، بل اعملي الفكرة أولاً، ولكن لا تنسي أن أبا مسلم يحبك، وأنه عاهد نفسه ألا يتزوج إلا بعد الانتهاء من حربه، وهو لا يرجو الفوز إلا بالتغلب على هذين الرجلين. وقد يمكن التغلب عليهما بغير قتلهما: وقد لا يكون إلا بقتلهما، فإذا كنت أنت عوناً له على بلوغ غرضه فإنه يزداد تعلقاً بك».

فأحست جلنار بعجزها عن الحكم فوراً، ورأت تأجيله ريثما ترى ريحانة.. رغم ما وعدت به من كتمانه عنها ـ والإنسان إذا أعجزه الحكم في مسألة أحس بميل شديد إلى مكاشفة بعض أخصائه بها، ولا عبرة بتعهده بأن يكتمها، بل قد يكون الإلحاح عليه في كتمان السر من بواعث ترغيبه في إفشائه ـ والنساء أقل صبراً على حفظ الأسرار من الرجال خصوصاً ما كان يتصل بالحب ومشاكله.

ضاقت جلنار ذرعاً بالأمر، فأشارت إلى الضحاك فانصرف، ومضت إلى غرفتها وخلت إلى نفسها لعلها تتوصل إلى حل لهذا الإشكال، فأغلقت بابها واتكأت على الفراش وغرقت في هواجسها حتى ضاق صدرها وأحست بشوق إلى ريحانة، ثم غلب عليها التعب

فأحست بالنعاس وشعرت بالبرد، فالتفّت باللحاف ونامت واستغرقت في النوم. وتركت الباب دون أن توصده، فجاءت ريحانة فرأتها نائمة فتركتها ومضت، وهي أكثر منها قلقاً وشوقاً لمعرفة ما أسره إليها الضحاك.

وظلت جلنار نائمة حتى الغروب فأفاقت على ضوضاء الخدم، ففتحت عينيها وهي تحسب أنها في الصباح فرأت ريحانة جالسة بقربها فمسحت عينيها وقالت: «لقد أبطأت وغلب النعاس عليّ».

قالت: «تخلفت عنك لتستوعبي سرك ثم جئت فرأيتك نائمة».

قالت: «ما هذه الضوضاء التي أسمعها؟».

قالت: «إن الأضياف في القاعة مع مولاي الدهقان». فلما سمعت ذلك أجفلت وأحست بميل شديد إلى مشاهدة أبي مسلم، وأدركت ريحانة غرضها فقالت: «سألني مولاي الدهقان عنك، فأجبته بأنك نائمة.. فهل تريدين الذهاب إلى القاعة؟».

قالت: «وماذا يفعلون هناك؟».

قالت: «إنهم جاؤوا للوداع، فإنهم على أهبة السفر في صباح الغد».

فوقفت ودنت من المرآة لتصلح من شأنها، فسارعت ريحانة إلى المشط فسرّحت لها شعرها وضفرته، وأتتها بقارورة الطيب فتطيبت، ولبست ثوباً سماوي اللون، والتفت بشال موشى بالحرير، وهي تضطرب من التأثر وترتعد رعدة الحب، وتتظاهر بأنها إنما ترتعد من البرد، فجاءتها ريحانة بمطرف من الخز التفت به فغطى معظم أثوابها، ومشت ريحانة بين يديها حتى دخلت القاعة من بابها السري، ثم تنحت ريحانة وأشرفت جلنار على المجتمعين بحيث تراهم ولا يرونها،

فرأت أباها جالساً على وسادة في صدر القاعة وبين يديه محجن فيه مسك، وهو يتشاغل بتفتيت المسك بين أنامله وقد فاحت رائحته حتى تضوع المكان بها، ورأت أبا مسلم جالساً وقد بدل ثياب السفر التي رأته فيها بالأمس. فجعل على رأسه قلنسوة من خز أسود وفوق أثوابه قباء أسود، فتذكرت ما سمعته عن الشعار الأسود الخاص بأصحاب هذه الدعوة، ورأت خالداً بجانب أبي مسلم بمثل لباسه وقد جلسا على وسادتين مثنيتين، دلالة على علو منزلتهما عند أبيها. فوقفت هنيهة وهي ترتجف، فانبه لها أبوها فناداها وأشار إليها أن تجلس عند بعض الأساطين فجلست لا تتكلم، وتوجهت بكل جوارحها إلى أبي مسلم لترى ما يبدو منه بعد ما سمعته عنه. فلحظت منه التفاتاً لم تعهده من قبل، فانشرح صدرها، وكانوا قد أخذوا بأطراف الحديث قبل وصولها فخاطبهم أبوها بالفارسية قائلاً: «أراكم مسرعين في الرحيل عنا، لعلكم لم ترتاحوا إلى ضيافتنا؟».

فقال أبو مسلم: «كلا يا حضرة الدهقان، بل نحن لا ننسى حسن ضيافتكم ونتمنى أن يكون كل الدهاقين مثلكم».

قال: «لا ريب عندي أنكم ستلاقون من إخواننا الدهاقين كل رعاية، وسيكونون عوناً لكم في هذه الدعوة لأنكم إنما تدعون إلى نصرتهم، بل أنتم تسعون في إنشاء دولة سيكون لآل خراسان نفوذ عظيم فيها. فننسى تحكم العرب في شؤوننا واستئثارهم بالأموال دوننا. فقد كنا من قبلهم وفي أوائل دولتهم أهل السطوة وأصحاب الحكومة، فما زالوا ينازعوننا عليها ويتحكمون فينا ولا يمر يوم لا يأتوننا فيه بضريبة».

فقال أبو مسلم: «وأظن أن هذا هو السبب في بقاء معظم الدهاقين على الزرادشتية أو المجوسية».

قال الدهقان: «نعم هذا هو السبب وأنا أعرف جماعة من هؤلاء، لولا ظلم هذه الدولة واستبدادها لاعتنقوا الاسلام، على أن بعضهم هَمّ بالإسلام ثم عدل عنه، ولا ريب عندي أنهم إذا آنسوا من حكامهم رفقاً فلن يتخلف أحد منهم عن الإسلام، وأنا أضمن ذلك».

قال خالد: «يكفينا من الدهقان أن يبعث بعض أتباعه إلى أصدقائه من الدهاقين لكي يحسنوا الظن بدعوتنا».

وكان أبو مسلم في أثناء الكلام ينظر إلى جلنار من طرف خفي، وهي تسارقه النظر وقد كاد قلبها يطير سروراً لما رأته يبتسم لها، وأصبحت لا تبالي بما قد يحول بينها وبينه من المشاق، بل استغربت ترددها في أمره من قبل. ولا غرابة في ذلك لأن الإنسان إذا هاجت عواطفه، أصابه ضرب من الجنون فلا يقدّر للأمور عواقبها ولا أخطارها. والحب سلطان مستبد إذا لم يعترضه العقل جرّ صاحبه إلى أكبر الكبائر. فكم من عاقل غفل عن حكم عقله في ساعة تغلبت فيها عواطفه، فارتكب أمراً جرّ عليه الخراب أو العار أبد الدهر، وقد كان في غنى عن ذلك لو أنه تحكم في عواطفه ساعة أو بعض الساعة، ولو أعملت الفكرة في أكثر الجرائم التي يرتكبها البشر ويشقون بسببها لرأيتها أنها حدثت في مثل تلك الغفلة. فلا غرو إذا هان على جلنار ركوب ذلك المركب الخشن إرضاء لحبيبها، ولم يعوزها للتفاني في ذلك إلا ابتسامة خرقت أحشاءها وأضاعت رشدها، على أنها ظلت تتجلد وتتظاهر بخلو الذهن مخافة أن يبدو أمرها لأحد من الحاضرين.

أما أبو مسلم فلما سمع كلام خالد قال: «نعم يكفينا أن يحسن الدهاقين ظنهم بدعوتنا، فإذا رضي هؤلاء هان كل عسير ولم يعد

يهمنا جند العرب ولا سيما أن دولتهم آخذة في الزوال».

فتذكر الدهقان أن هذا التعميم يشمل جند الكرماني لأنهم عرب أيضاً. فقال: «أظنك تعني عرب مصر لأن عرب اليمن أعداء لبني أمية؟».

فأدرك أبو مسلم أنه يعرض بالكرماني، وتذكر ما سمعه من الضحاك عن خطبة ابن الكرماني لجلنار فقال: «إن اليمنية ينصروننا ويدعون لإبراهيم الإمام، فهم أعواننا ونحن أعوانهم، أما إذا وقفوا في سبيلنا ودعوا لأنفسهم أو لرجل آخر فهم أعداؤنا والسيف بيننا وبينهم».

فاختلج قلب جلنار لهذا التصريح وتذكرت شأنها فيه، فامتقع لونها وبالغت في الالتفاف بالشال وتنحنحت كأن سعالاً داهمها، فأدرك أبو مسلم أنها تخاطبه فتبسم ووجه خطابه إلى الدهقان وقال: «إذا أصبحت مرو هدفاً للنزاع بيننا وبين الكرماني، أو بيننا وبين شيبان، فهي للفائز منا».

وكان الدهقان يفكر في مصير ابنته إذا تزوجها ابن الكرماني، فرأى أن الكرماني أقوى وأمنع من أبي مسلم لكثرة جنده واستعداده، فاعتزم أن يمسك الحبل من الطرفين، فإذا غلب الكرماني كانت ابنته عنده ونال بالمصاهرة غرضه، وإذا غلب أبو مسلم أمن على حياته وأمواله بما أبداه من الملاينة. ولم يكن عازماً على نصرته حقيقة وإنما وعده بالمساعدة خداعاً فقال: «نعم إن الكرماني مثلنا قام على بني أمية، ورجاله من القبائل اليمنية، وهم أعداء عرب مصر أنصار بني أمية. ولكن الكرماني عربي الأصل وإن كان اسمه يوهم غير ذلك، فنخاف إذا فاز ألا يكون لنا في دولته مقام. وأما أنتم فإنكم منا ونحن منكم ودولتكم دولتنا.. نعم إن الدعوة باسم خليفة عربي، ولكنه

سيكون نصيرنا لأننا نصرناه في دعوته. وزد على ذلك أنه أوصى بإبادة العرب من خراسان على ما سمعناه من وصيته التي بُعث بها إليك».

فما سمعت جلنار كلام أبيها، استبشرت وخيّل إليها أنه غيَّر رأيه في الكرماني، واختلج قلبها فرحاً وظهر ذلك على وجهها. ولو شاركتهم في الحديث لما خفي حالها على أبي مسلم، ولكنها كانت صامتة منزوية لا تجسر على الكلام لئلا يبدو شيء من عواطفها فيفتضح أمرها.

وأما أبو مسلم فلم ينخدع بأقوال الدهقان كل الانخداع، لأنه كان أكثر دهاء منه، وهو يسيء الظن بأقرب الناس إليه ولا يأمن أحداً على أمره ولا يعطي سره أحداً، بل كان يضمر السوء لكل إنسان إذا لم ينفعه أو ينصره، ويقيس الناس على ما يعلمه في نفسه ـ والناس مفطورون على حب الذات، وقلما يعملون عملاً لا ينظرون فيه إلى فائدتهم وإن تظاهروا بغير ذلك. والناس فئتان: فئة قائدة، وفئة مقودة، والفئة الأولى هم خيرة الآنام وأهل العقول الكبيرة وأصحاب المطامع. فهؤلاء لا يقدمون على عمل إلا وهم يرجون منه النفع لأنفسهم، ولكنهم يختلفون في مطامعهم ففيهم مَن يريد النفع لنفسه ويأبى الضرر لسواه وهم أهل الخير. وفيهم مَن لا يهمهم إلا الوصول إلى أغراضهم ولو خطوا إليها على جثث أقرب الناس إليهم. وأمثال هؤلاء كثيرون في تلك العصور، وأكثرهم يعدون من عظماء الرجال، ومنهم أبو مسلم، فقد كان واسع المطامع كبير النفس صلب القلب لا يهمه إلا الفوز في دعوته. وكان لا يحسن الظن بأحد، فلما سمع مواعيد الدهقان أظهر تصديقه إياها تشجيعاً له على الثبات في قوله، وهو في الواقع لا يطمئن إليه ولا سيما بعد أن علم بخطبة ابن

الكرماني لجلنار. ولم يكن أبو مسلم يجهل أن ليس عنده من الرجال إلا القليل، فلما تصور ذلك هبّ من مقعده كأنه تذكر شيئاً نسيَه. ووقف فوقف الجميع، فقال للدهقان: «أستودعك الله فإننا نبيت الليلة، على أن نرحل في فجر الغد وأنتم نيام، فلا تنس وعودك فإننا نحارب في سبيل إخواننا الخراسانيين وجميع رجال فارس».

فقال: «اطمئن.. سأبذل أقصى الجهد في جمع كلمة الدهاقين على نصرتكم».

فقال خالد: «إذا فعلت ذلك فإنك تفعله لخيرك وخير أهلك». وقبل أن يخرج أبو مسلم من القاعة التفت إلى جلنار وكانت تراعي كل حركة من حركاته، فلما وقع نظرها على نظره توّهمت أنه ابتسم لها وأنه وعدها باللقاء القريب، اعتماداً على رسالته إليها على لسان الضحاك، فزاد هيامها به وأحست عند ذهابه كأنه انخلع من قلبها، ولكنها عللت نفسها بما سمعته من أبيها من تحقير الكرماني وإعظام أمر أبي مسلم، وحدثتها نفسها بأن أباها قد غيَّر رأيه في خطيبها.

خرج أبو مسلم وخالد، والغلمان بالشموع بين أيديهما، حتى بلغا مبيتهما، وظلت جلنار في مكانها تنتظر الخلوة بأبيها لعله يبدي ما يطمئنها. فلما عاد من توديع الرجلين، ابتسم لها ودنا منها وجعل يمناه على كتفها وهو يتبع أبا مسلم بنظره ويقول: «طالما قلتم ولم تفعلوا».

فلم يعجبها قوله لأنه دلّ على إنكاره أمر أبي مسلم، فتجاهلت وقالت: «ومَن هؤلاء يا أَبَتي؟».

قال: «هؤلاء أهل بيت النبي، فإنهم ما زالوا منذ أخذ بنو أمية الملك يبثون الدعاة ـ من أمثال أبي مسلم هذا ـ فنحسن وفادتهم ونمدهم بالمال وننصرهم جهدنا. ثم لا نلبث أن نسمع بذهاب

دعوتهم وأن الأمويين قتلوا صاحب الدعوة أو صلبوه، فيقوم سواه وهكذا. وكانت الدعوة قبلاً لأبناء بنت النبي، وأما اليوم فإنهم يدعون لأبناء عمه. ولا ريب عندي في فشل هذه الدعوة لأن نقل الدعوة من آل أبي طالب إلى آل العباس يهيّج غضب الطالبيين كافة، وهم أصحاب الدعوة، وأهل خراسان لا يعرفونها كسواهم. ثم إن هذا الغلام مغرور يريد أن يحارب هذه الدولة بسبعين رجلاً أو مائة رجل!».

وكانت جلنار تصغي إلى كلام أبيها باستغراب، ولو انتبه وهو واضع يده على كتفها لشعر بقشعريرة اعترتها عند سماع قوله. وخافت هي ظهور ذلك منها فتظاهرت بإصلاح شعرها وتخلصت من يده وقالت: «سمعتك تطريه وتعده بالمساعدة وتؤمله بالنصر».

قال ضاحكاً: وماذا خسرت؟ أليس ذلك أفضل من أن أعاديه أو أعترض رأيه وهو شديد الوطأة لا يبالي العواقب، وإذا عادانا لا نكون في مأمن من أذاه. هذا إلى أني لا أقطع بفشل هذه الدعوة، إذ لا آمن أن ينقلب الأمر إلى عكس ما أراه، فيكون لنا عند أبي مسلم شفاعة لاعتقاده أننا على دعوته، أما إذا كانت الغلبة للكرماني وأنت عنده فلن يصيبنا إلا كل خير. أما نصر بن سيار فإنه مغلوب على أمره في الحالين لأن سلطان بني أمية ذاهب لا محالة، وستنقسم مملكتهم الواسعة إلى دول صغيرة يملكها أمراء مستقلون كما حدث لمملكة الفرس بعد الاسكندر إذ حكمها ملوك الطوائف. وفي اعتقادي أن خراسان ستكون إحدى تلك الممالك وسيملكها الكرماني كما قالت لك غير مرة، والعاقل مَن اغتنم الفرص عند سنوحها». وكأنه تذكر وصية ريحانة بألا يلح على ابنته في شأن ابن الكرماني وأن يترك أمره إليها، فقال: «هلم بنا نتناول العشاء فقد حان وقته». قال ذلك

ومشى يجر مطرفه ويخطر في مشيته والخدم يقفون له وجلنار تسير في أثره حتى وصلا إلى غرفة المائدة، وقد أعدت فيها المآكل على خوان فوق البساط عليه الكثير من ألوان الأطعمة والأشربة والفاكهة. وكانت جلنار أثناء الطعام لا تتكلم وإنما كانت تتشاغل بالأكل وأفكارها تائهة في أبي مسلم، وهي تتصوره خارجاً من القاعة وعليه تلك الحلة السوداء بعد أن نظر إليها النظرة الأخيرة. فلما تذكرت أنه ذاهب في الفجر ولن تراه إلا إذا قدر لها لقاؤه وهي تحسب ذلك بعيداً صعباً، وقفت اللقمة في زورها ودمعت عيناها رغم إرادتها. فأشارت إلى أحد الغلمان الواقفين للخدمة فجاءها بكأس من الفضة فيه ماء فشربت وهي تتظاهر بأن عينيها دمعتا من الغصة وإنها تألمت منها، ثم التمست الإذن في الانصراف قبل الفراغ من الطعام وذهبت إلى غرفتها فوجدت ريحانة في انتظارها.

- ٦ -
إظهار الدعوة

ما كاد أبو مسلم يخرج من عند الدهقان حتى استقدم كبار النقباء إليه، وهم اثنا عشر اختارهم محمد بن علي والد إبراهيم الإمام في أول الدعوة سنة ١٠٠ هـ. وأكثرهم من عرب اليمانية وكلهم من نخبة القواد، وفيهم سليمان بن كثير. وكان يومئذ في (سفيذنج)، وأبو الحكم عيسى بن أعين وكان في (فنين) التي هم سائرون إليها، وقحطبة بن شبيب الطائي، ولاهز بن قريظ التميمي، وأبو داود الذي تقدم ذكره، ونصر بن صبيح التميمي، وشريك بن غضبى التميمي، وعبد الرحمن بن سليم. وكان فيهم من الفرس: خالد بن برمك، وأبو عون الخراساني، فتناولوا جميعاً العشاء مما أعده خدم الدهقان كالعادة. فلما فرغوا من الطعام، قال لهم أبو مسلم: «إننا ناهضون

في صباح الغد إلى (فنين) ننزل فيها على أخينا أبي الحكم عيسى بن أعين، وهناك نفكر في توجيه القواد إلى الشيعة في الأطراف، فتأهبوا للنهوض مبكرين، ومروا رجالكم بإعداد الأحمال اللازمة حتى نقوم من هنا في الفجر ونصل إلى (فنين) في الضحى».

فتحادثوا في ذلك ملياً ثم نهضوا إلى خيامهم، وأصبحوا في الفجر وقد تأهبوا للرحيل. وكانت مياه المطر قد جفّت واعتدل الطقس، فوصلوا إلى فنين في الضحى، ونزلوا هناك على عيسى بن أعين فنصبوا الخيام للرجال، ونزل أبو مسلم وخاصة الذين ذكرناهم في بيت عيسى، وكان ذلك في شعبان سنة ١٢٩ هـ. وعند وصولهم عقدوا جلسة أقروا فيها إنفاذ النقباء إلى الأطراف لإظهار الدعوة وجمع الرجال للقتال. وكانت الجلسة في قاعة غصت بأصحاب اللحى من المشايخ، وكلهم ينقادون لرأي أبي مسلم وهو شاب كأنه أحد أبنائهم، ولم يروا غضاضة في ذلك نزولاً على أمر الإمام، لأنهم إنما قاموا يدعون له ويعتقدون صدقه ويعملون برأيه. فلما اجتمعوا وتشاوروا أخذ أبو مسلم في توجيههم، فوجه أبا داود النقيب ومعه عمر بن أعين ـ أخو عيسى ـ إلى (طخارستان) فما دون (بلخ). ووجه نصراً بن صبيح وشريكاً بن غضبى إلى (مرو الروذ) ـ وهي غير مرو المحاصرة ـ ووجه عبد الرحمن بن سليم إلى (الطالقان). ووجه الجهم بن عطية إلى (خوارزم). وأرسل غيرهم أيضاً، وأوصاهم جميعاً بأن يظهروا الدعوة في رمضان لخمس بقينَ منه إلا إذا أعجلهم عدوّهم دون الوقت بالأذى والمكروه، فيحل لهم أن يدافعوا عن أنفسهم ويجردوا السيوف ويجاهدوا أعداء الله، ومَن شغله منهم عدوهم عن الوقت فلا حرج عليهم أن يظهروا بعد الوقت. وأوصاهم بالصبر والثبات.

وظل أبو مسلم في (فنين) إلى أول رمضان، ثم نهض بمن بقي من رجاله حتى نزل (سفيذنج) في اليوم الثاني من رمضان وفيها سليمان بن كثير الخزاعي، فأشرفوا على مرو عن بُعد لأنها في سهل واسع غير محاط بالجبال حتى لا يرى المقيم بها جبلاً وليس في شيء من حدودها جبل وأرضها سبخة كثيرة الرمال. فرحّب سليمان بن كثير بأبي مسلم ورفاقه، وأنزله وخالداً عنده ونزل الباقون في الخيام، ولبثوا ينتظرون يوم ٢٦ رمضان المحدد لإظهار الدعوة.

وفي اليوم الثاني من وصوله إلى هنا، وقف هو وسليمان وخالد في مكان يشرفون منه على مرو وما حولها. فرأوها محاطة بسور من طين وفي وسطها بناء هائل هو قلعتها التي تبدو كمدينة مرتفعة يراها القادم من بعيد. فقال أبو مسلم: «ما أضخم هذه القلعة وأعلى بناءها».

فقال سليمان: «الطريف فيها أنهم جاؤوها بالماء من النهر بقناة على قناطر، وقد دخلتها مرة فرأيتهم غرسوا على سطحها مطابخ ومناقل وما إلى ذلك، فإذا مشيت فيها تخيلت أنك في بستان على قمة جبل».

ورأى أبو مسلم خياماً خارج السور وعليها رايات مختلفة الألوان والأشكال، فتذكر ما سمعه من جاسوسه عن الكرماني وشيبان، فقال لسلمان: «هذان المعسكران للكرماني وشيبان؟».

قال: «نعم، وهما يحاربان نصراً بن سيار، ورجالهما كثيرون في المعسكرَين».

فقال أبو مسلم: «كأنك تخاف قلة عددنا، سترى أننا كثيرون بإذن الله. ألا ترى أن نبث دعاتنا في هذه القرى حول مرو؟».

قال: «حسناً تفعل أيها الأمير، فإن أهل هذه القرى ملّوا تعدّي العرب على أغراسهم، وهم لا يفرّقون بين اليمنية والمضرية وإنما

يرون أن العرب يظلمونهم وأن الفرس خير منهم، فإذا بثثنا دعاتنا بينهم على هذا الأسلوب استجابوا لهم».

فجمع أبو مسلم الدعاة وبث جماعة منهم في القرى المجاورة يدعون لإبراهيم الإمام بقيادة أبي مسلم الخراساني، فجاءهم في ليلة واحدة أهل ستين قرية. وكان أبو مسلم يجتمع بهم سراً ثم يردهم إلى قراهم على أن ينتظروا ساعة إظهارالدعوة، فيدعوهم إليه بنيران يوقدها.

وفي ليلة الخميس لخمسٍ بقينَ من رمضان من سنة ١٢٩ هـ. احتفل أبو مسلم بذلك احتفالاً كبيراً، فجمع كبار الدعاة في ساحة (سفيذنج). وعقد اللواء الذي بعث به الإمام وسمّاه (الظل) على رمح طوله أربعة عشر ذراعاً وغرسه أمام المنزل الذي يقيم به، وجاء برمح آخر طوله ١٣ ذراعاً عقد عليه الراية التي سماها (السحاب). فعل ذلك في مشهد موقر حضره النقباء وهو يتلو: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾.

وبعد أن تلا الآية، التفت إلى النقباء وقال: «أتعلمون لماذا سمى مولانا الإمام هذه الراية السحاب؟». فقالوا: «لا».

قال: «لقد سماها بذلك إشارة إلى أن السحاب يطبق الأرض. وهل تعلمون لماذا سمى هذا اللواء بالظل؟».

قالوا: «لا». فقال: «لأن الأرض لا تخلو من الظل، وكذلك الأرض لا تخلو من خليفة عباسي أبد الدهر».

ثم جاؤوا بالألبسة السوداء ويسمونها «السواد» فلبسوها، وأولهم في ذلك أبو مسلم وسليمان بن كثير وأخوه ومواليه ومَن أجابوا الدعوة من أهل سفيذنج وكل الدعاة، ثم أوقدوا النيران طبقاً للاتفاق مع الشيعة الذين بايعوا فجاؤوا إليه. وكان (أهل التقادم) أول

القادمين وعلى رأسهم أبو الوضاح في تسعمائة راجل وأربعة فرسان، ومن أهل هرمز جماعة كبيرة كذلك مع أبي القاسم الجوباني في ألف وثلاثمائة راجل وستة عشر فارساً، وفيهم من الدعاة أبو العباس المروروذي، فجعل أهل التقادم يكبّرون من ناحيتهم، ويجيبهم أهل هرمز بالتكبير، حتى دخلوا معسكر أبي مسلم حصن سفيذنج وسد دروب المحلة.

ولما كان عيد الفطر، أمر أبو مسلم سليمان بن كثير أن يصلي به وبالشيعة، ونصب له منبراً بالمعسكر وأمره أن يبدأ الصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة. وكان بنو أمية يبدأون بالخطبة قبل الصلاة مع الأذان والإقامة. كما أمره بأن يكبّر ست تكبيرات تباعاً ثم يقرأ ويركع في السابعة، ويكبّر في الركعة الثانية خمس تكبيرات تباعاً ثم يقرأ ويركع في السادسة، ويفتتح الخطبة بالتكبير ثم يختمها بالقرآن. وكان بنو أمية يكبّرون في الركعة الأولى أربع تكبيرات، وفي الثانية ثلاث تكبيرات، فلما أتم سليمان الصلاة انصرف أبو مسلم والشيعة إلى طعام أُعِدّ لهم.

وكانت المائدة التي أعدها سليمان في فسطاط كبير بجانب المعسكر فجلسوا حولها مستبشرين، وأبو مسلم في صدرها ساكت مفكر كعادته يتناول اللقمة بعد اللقمة على مهل وعيناه تنظران إلى ما وراء الباب من السهل الواسع الذي لا يقف البصر في آخره على غير الأفق. وحوله النقباء والأمراء وكلهم هائبون منظره، وفيهم مَن يفكر فيما يهددهم من القتال الشديد المقبل.

فلما طُعموا، كانت الشمس قد مالت عن خط الهاجرة، نهضوا لشؤونهم وكلّ في شاغل من أمر نفسه أو أهله، أما أبو مسلم فلم يكن همه إلا تنظيم مَن اجتمعوا إليه من الناس وهم كثيرون

بالقياس إلى الفترة التي اجتمعوا فيها، وقليلون إذا قيسوا برجال نصر في مرو، ورجال الكرماني وشيبان خارجها. وكان أبو مسلم لا ينفكّ يخلو بخالد بن برمك فقد كان موضع ثقته ومستودع أسراره، فلما خرج القوم من فسطاط المائدة انصرف هو وخالد معاً إلى جانب من المعسكر على مرتفع يشرفان منه على مرو وضواحيها وعلى معسكرهما.

فلما رأى أبو مسلم قلة جنده وكثرة أولئك، التفت إلى خالد وقد أزاح عمامته إلى الوراء وابتسم ـ ونادراً ما كان يبتسم ـ فأقبل خالد عليه كأنه يتأهب لتنفيذ أمره، فقال أبو مسلم: «ألا يخيفك قلة جندنا وكثرة جنود عدونا؟».

فابتسم خالد وقال: «لا يخيفني شيء ما دمت أميرنا وقائدنا، وقد استبشرت اليوم بكثرة مَن جاءنا من الشيعة على قصر مدة ظهورها».

فأجابه أبو مسلم بقوله: «صدقت، فالغلبة ليست بالكثرة وإنما هي بحسن الإدارة وضم الصفوف. نعم إن أعداءنا كثيرون ولكنهم أحزاب متفرقة قد يفني أحدها الآخر قبل خروجنا إليهم، وربما كان لنا منهم عون عليهم. أليسَ أهل اليمن مع الكرماني؟ وأهل مضر مع ابن سيار؟ والخوارج على الاثنين؟ سأريك مصير هؤلاء جميعاً.. ثم رفع نظره فرأى سواداً قادماً من عرض الأفق وغباراً متصاعداً فاستبشر، وسمع خالداً يقول: «أظن أن جماعة من شعيتنا قادمون لنصرتنا».

فلم يجبه أبو مسلم وظل يحدق ببصره، ثم قال: «لا أرى أعلاماً سوداء، لذلك لا أظن أن القادمين شيعة لنا». ولبثا هنيهة أخرى فانكشف الغبار عن قبة على فيل أبيض كبير، وحول القبة بضعة فرسان يسير في ركابهم جماعة من العبيد، ووراء الفيل جمال

عليها أحمال الآنية والفرش وغيرها. فاستغربا ذلك وزاد استغرابهما لما رأيا الركب متجهاً نحوهما، فجعلا ينظران إليه لعلهما يتبينان شيئاً من أمره فإذا بتلك القبة مصنوعة من الديباج الأحمر وقد تدلت أستارها حتى لا يظهر شيء مما في داخلها، وحول عنق الفيل وعلى جبهته وفي مقدم صدره عقود وأوسمة مرصعة بحجارة كريمة مختلفة الألوان، وقد كُسِيَ ظهره وجوانبه بالديباج الأصفر الزاهي. ويقود الفيل رجل طويل القامة عليه عباءة وعمامة، ما لبث أبو مسلم أن عرف حين اقترب أنه الضحاك، فتذكر حكاية جلنار وخطبتها إلى ابن الكرماني وما كان من حديثهما عنها، فأجفل لأول وهلة إذ ظنها مزفوفة إليه هو، ثم رأى الضحاك يعهد بزمام الفيل إلى عبد بجانبه، ثم يسرع نحوه متأدباً حتى إذا وقف بين يديه حياه تحية الأمراء وهَمَّ بتقبيل يده، فمنعه أبو مسلم وابتدره قائلاً: «ما شأنك؟». فضحك الرجل وقال بصوت ضعيف: «لا تجزع ليست مزفوفة إليك!». ثم رفع صوته وقال: «أليسَ هذا معسكر أبي علي الكرماني؟».

فقال له خالد: «قبحك الله ألا ترى الأعلام السوداء؟».

فتباله الضحاك، وقال: «لقد أخطأنا الطريق، أظن معسكر الكرماني هو ذاك». وأشار بيده إليه، ثم أخذ يحك قفاه وظل واقفاً مطرقاً.

فقال خالد: «ثم ماذا؟».

وأدرك أبو مسلم أنه لم يأت إليه إلا لأمر ذي شأن، فمشى وتبعه الضحاك وظل خالد في مكانه، فلما انفردا قال الضحاك: «إن هذه المسكينة مزفوفة إلى ابن الكرماني مرغمة، وقد أوصتني بأن أحتال في الدنو من معسكرك لكي تراك، لأن قلبها». وتنحنح ثم قال: «وإذا أرسلت نظرك إلى القبة رأيتها تنظر إليك من خلال الستور خلسة

فانظر». وضحك.

فرفع أبو مسلم نظره إلى القبة وكانت قد صارت على نحو خمسين خطوة منه، فرأى وجهاً مطلاً من خلال الستور إذا شبهناه بالقمر ظلمناه، لأن القمر صحيفة لا ماء فيها ولا حياة، ولو كان لأبي مسلم قلب يهوى ما استخف بعواطف تلك الفتاة المستهامة. ولكنه خلق من عقل ودهاء وطمع وكبرياء وابتعد قلبه عن محبة النساء، ولم يعرف قلبه من أنواع الحب إلا حب المعالي، والانتصار بالرأي والشجاعة.

أما جلنار، فذات قلب كبير، لم يخفق بالحب لغير أبي مسلم، والحب كله رجاء، وقد زادها الضحاك أملاً بما نقله إليها من حب أبي مسلم لها، فاستسهلت كل صعب في سبيل مرضاته، فقبلت أمر أبيها ورضيت بالزفاف إلى ابن الكرماني تقرباً من معسكر حبيبها وعملاً بإرادته. وأوصت الضحاك بأن يحتال في الوقوف هناك ليعلم أبو مسلم أنها جاءت إلى الكرماني بجسمها، أما قلبها فمعه هو. فلما رأته ينظر إلى قبتها اختلج قلبها في صدرها، وتوهمت أنها رأت أبا مسلم يبتسم لها ويحييها، فدمعت عيناها وأرخت الستر وتحولت إلى الداخل وريحانة معها لم يخف عليها شيء من أمرها.

أما الضحاك فإنه حنى رأسه لأبي مسلم وقال: «كن على يقين أني سأقوم بما يرضيك». ثم عاد من حيث أتى وهو يقول بصوت عالٍ: «نحن إذن قد أخطأنا الطريق إلى معسكر أبي علي. هلم بنا يا قوم إلى تلك الأعلام اليمنية فإن الكرماني هناك!».

ولما وصل إلى مكان الفيل تناول زمامه وأشار إلى أحد العبيد، فانطلق مسرعاً يعدو نحو معسكر الكرماني ينبئهم بقدوم العروس، وكان الكرماني قد عقد قران ابنه بجلنار في منزل الدهقان بعد أن أدى

إليه المهر.

أما خالد فإنه ترك أبا مسلم مع الضحاك وانصرف إلى المعسكر، فرأى رجلاً مسرعاً نحوه وهو يقول: «أين الأمير؟». فقال: «وما الخبر؟».

فأشار بيده إلى مرو، وقال: «لقد بدأت الحرب بين الكرماني وبين نصر».

فالتفت خالد إلى مرو فرأى الفرسان قد خرجوا من المدينة ومعهم أعلام بني أمية، وخرج إليهم رجال الكرماني بأعلامهم، وقد تطايرت النبال واشتد القتال. وكان أبو مسلم قد أقبل نحو خالد ورأى مثل ما رأى، ففرح وقال: «لقد أزفت ساعة العمل».

فقال خالد: «هل نستعد للهجوم أيها الأمير؟».

قال: «احذر أن تفعل، إنما شأننا اليوم أن نصبر لنرى عاقبة هذا القتال».

قال: «ألا نغتنم فرصة اشتغال نصر بالحرب ونهجم على المدينة».

قال: «إذا هجمنا لا نأمن أن يتحد العدوّان علينا، ولكن نصبر إلى الغد». قال ذلك ومضى إلى منزل سليمان بن كثير، فرأى النقباء قد اجتمعوا هناك وهم يسألون عن أبي مسلم وكلهم يرون رأي خالد في الهجوم. فلما أقبل أبو مسلم عليهم استشاروه، فأمرهم بالتربص فسكتوا وأطاعوا.

فلما غربت الشمس تراجع الجيشان وأمسكا عن القتال ورجع كل منهما إلى مكانه، والنقباء يرون أن أبا مسلم قد أخطأ لتقاعده عن اغتنام تلك الفرصة وهو لا يقول شيئاً. فلما أمسى المساء أمر الرقباء

أن يبيتوا على حذر، ثم خلا إلى خالد وسليمان وهَمّ بأن يكاشفهما بما في ضميره، فسمعوا طارقاً يطرق الباب ففتحوا له وإذا بفارس دخل ومعه رجل موثق بعمامته والفارس يقول: «قد قبضنا على هذا الرجل في معسكرنا وليس هو منا». فلما رآه أبو مسلم على نور المصباح عرفه، فصاح به: «الضحاك؟». قال: «نعم يا مولاي».

فأشار إلى الفارس فتركه وانصرف، ودخل الضحاك فأمر بحل وثاقة وسأله عن أمره فقال: «هل أتكلم أم تأذن لي في خلوة؟».

فأدرك أنه يريد الخلوة، فأشار إلى خالد وسليمان فذهبا إلى غرفة أخرى، وجلس أبو مسلم على وسادة وأمره أن يجلس وقال: «ما وراءك؟».

فجلس الضحاك جاثياً متأدباً وقال: «اسمح لي يا مولاي أن أثني على تريثك الليلة، وكنت أخشى أن تأمر جندك بالهجوم».

قال: «ثم ماذا؟».

قال: «هل تأذن لي في أن أبدي رأياً؟».

قال: «قل بارك الله فيك، ما أسرع ما اطلعت على الخفايا».

قال جاداً: «قد رأيت يا مولاي أمراً هالني وخفت عاقبته على رجالك!».

قال: «وما هو؟».

قال: «وصلنا بالعروس إلى فسطاط الكرماني فإذا هو وابنه علي زوجها المبارك، قد ركبا لمحاربة نصر بن سيار صاحب مرو، فأنزلنا العروس في خبائها بين عبيدها وجواريها، وخرجت لاستطلاع الأحوال فرأيت جند الكرماني كبيراً، وكلهم من رجال اليمن الأشداء، وفيهم العدة والنجدة وربما زادوا على خمسة أضعاف

رجالك. ولما خرج رجال نصر لقتاله رأيتهم أيضاً كُثراً فخفت أن يغرك ذلك فتخرج برجالك للحرب وأنا لا أضمن لك الفوز لعلمي أن الجندين وإن تباينت عصبيتهما بين اليمن ومضر، فإنهم جميعاً من العرب فإذا رأوا الخراسانيين يحاربونهم اتحدوا عليهم».

قال: «هذا حق فأكمل».

قال: «فرأيت أن خير ما تفعله الآن أن تمكن البغضاء بين هذين الجيشين».

فأعجب أبو مسلم بسداد رأيه لأنه كان قد عزم عليه، وقال: «ذلك هو الرأي الصواب، وهو الذي عزمت عليه. ولكن كيف السبيل إلى إلقاء الفتنة الليلة حتى تتم لنا الحيلة في الغد».

قال: «أتستشيرني يا مولاي؟».

قال: «لا بأس من المشورة فإنها آمن عاقبة، فإذا لم يعجبني رأيك رجعت إلى رأيي».

فأخذ الضحاك يحك جانب رأسه بإحدى يديه ويده الأخرى على عمامته يسندها لئلا تقع، ثم ضحك وقال: «أكرم بك يا ضحاك، أن الأمير يستشيرك!». ثم وقف وقفة الجَد، وقال: «الرأي يا سيدي أن تكتب كتاباً إلى شيبان الحروري صاحب الجند الآخر المعسكر وراء الكرماني، وتقول في سياق الحديث ما معناه: (إن قبائل اليمن لا وفاء لهم ولا خير فيهم فلا تثقن بهم ولا تركن إليهم، فإني أرجو أن يمكنك الله منهم، وإذا بقيت لا أدع لأهل اليمن شعراً ولا ظفراً). أو نحو ذلك مما يدل على أنك تكره اليمنية ولا ترجو خيراً منهم. وترسل هذا الكتاب مع رسول تأمره أن يجعل طريقه إلى معسكر شيبان من جهة معسكر المضرية أصحاب نصر بن سيار، فيقبضون عليه ويأخذون الكتاب منه ويطلعون عليه فيقوم في

نفوسهم أنك معهم قلباً وقالباً، فيميلون معك وتقوى نفوسهم على اليمنية. واكتب كتاباً آخر إلى شيبان نفسه واطعن على المضريين، ثم أرسل هذا الكتاب مع رسول يجعل طريقه في معسكر الكرماني وهم يمنيون فيقبضون عليه ويطلعون على الكتاب فيرون أنك معهم على المضريين وتقوى نفوسهم بك، فإذا اشتد القتال في الغد وأردت النزول كان الفريقان معك». وضحك ضحكة طويلة، فلم يتمالك أبو مسلم عن مجاراته في الضحك قليلاً، وقد سُرّ بهذا الدهاء وقال: «إن لك لشأناً يا رجل، وما أنت ضحاك كما تتظاهر. إني فاعل لساعتي ما أشرت به». ثم نهض ليأمر الكاتب بذلك فأمسك الضحاك بذيله وقال: «وأنا ماذا أعمل؟».

قال: «تنال عطاء جزيلاً جزاء صدق خدمتك».

قال: «إني لا ألتمس على ما أقوم به أجراً. فإني لم أفعل شيئاً أستحق عليه الأجر. ولعلي استطيع ذلك فيما بعد، وأما الآن فأنا ذاهب إلى مولاتي الدهقانة وسأبلغها سلامك وثناءك، ليس لأنك تحبها ولكن لأن ذلك يسرها وينفس كربها ويعزيها عن رؤية عريسها الأعور!».

قال: «ومَن تعني؟».

قال: «أعني علياً بن الكرماني فإنه نصف أعمى، فضلاً عن غرابة شكله. وهو مع ذلك زوجها بعقد مكتوب. وسترى كم ينفعنا هذا العقد!». ثم وقف فقبّل يد أبي مسلم، وخرج مهرولاً.

عاد خالد وسليمان إلى أبي مسلم فأمر بالكاتب فجاءه، ثم أخبرهما بما عزم عليه وأملى على الكاتب كتابين إلى شيبان الخارجي دفعهما إلى رسولين بارعين، وأمر أحدهما أن يمر بمعسكر نصر بن سيار والآخر بمعسكر الكرماني، ومتى قرىء الكتابان يرجعان بهما

إليه ولا يوصلانهما إلى شيبان، فسار الرسولان وفعلا ما أمرهما به.

فلما اطلع الكرماني على الكتاب وفيه ما فيه من نقمة أبي مسلم على قبائل مضر، توهم أن أبا مسلم معه على المضَرية. ولما اطلع نصر بن سيار على الكتاب الآخر توهم أن أبا مسلم معه على اليمنية، فقويت نفس كلّ منهما على قتال صاحبه. وكان أبو مسلم أثناء إقامته هناك قد كتب إلى الكور بإظهار الأمر فسوّد (ألبس السواد) جماعة كبيرة في (نسارابيورد) و(مرو الروذ) وغيرهما، وأقبل الأنصار إليه تباعاً.

وفي صباح الغد عاد الجيشان إلى القتال بقلوب قوية وهواهما مع أبي مسلم، ولكي تتم الحيلة كتب إلى كل من نصر بن سيار والكرماني كتاباً يقول فيه: «إن الإمام إبراهيم صاحب الدعوة، قد أوصاني بك وبرجالك خيراً ولست أعدو رأيه». فازداد الفريقان رغبة فيه ورهبة منه، واشتدت نقمة كل منهما على صاحبه. فلما احتدم القتال ركب أبو مسلم ومَن معه من النقباء والأتباع، وأقبلوا على المتحاربين فلم يتعرض لهم أحد بسوء، فنزل بمن معه بين خندق الكرماني وخندق نصر وهابَه الفريقان، ورأى بدهائه أن يجرىء الكرماني حتى يعرضه للخطر فبعث إليه: «إني معك». فسُرّ الكرماني واشتد ساعده بانضمام أبي مسلم إليه. فلما رأى نصر ذلك أدرك حيلة أبي مسلم فبعث إلى الكرماني يقول: «ويحك لا تغتر، فوالله إني لخائف عليك وعلى أصحابك منه، فادخل مرو نكتب كتاباً بيننا بالصلح». وكان غرض نصر أن يفرق بين الكرماني وأبي مسلم. فسمع الكرماني كلامه ورجع إلى صوابه وخاف أن يكون نصر مصيباً، فدخل فسطاطه وظل أبو مسلم في المعسكر.

ثم خرج الكرماني حتى وقف في الرحبة بين المعسكرين في

مائة فارس وعليه قباء ذو طاق واحد وأرسل إلى نصر يقول: «اخرج لنكتب بيتنا الكتاب».

فلما رآه أبو مسلم يقول ذلك خاف حبوط مسعاه. وكان أبو مسلم واقفاً على جواده وعليه درع كاملة تغطي جسمه وجانباً من الجواد لا يبالي تساقط النبال عليه. وبينما هو في تلك الحيرة أبصر رجلاً ملثماً طويل القامة يسرع كالجواد الجموح إلى معسكر نصر وهو يتقي السهام بكفّيه، فعرف من حركته وقيافته أنه الضحاك وما لبث أن رآه قد تغلغل في ذلك المعسكر. ثم رأى كوكبة من الفرسان خرجت من معسكر نصر وفي مقدمتها فارس يقول بأعلى صوته: «أنا الرجل الموتور، أنا ابن الحارث بن سريج، جئتك يا كرماني يا ابن الفاعلة. أنت قتلت أبي وسأقتلك به». قال ذلك وانقض انقضاض الصاعقة، والتقت الكوكبتان واشتبكتا، واشتد أزر المضرية. ثم رأوا فارساً خرج من مرو يحرض المضرية ويسوق فرسه أمامهم وقد جلّله الشيب، ولكن الشيخوخة لم تغير شيئاً من نشاطه وحميته. ولما ساق جواده لعبت الريح بلحيته وهي بيضاء عريضة ملء صدره، وصاح في رجاله يستحثهم. فعلم أبو مسلم أنه نصر بن سيار، فقال في نفسه لو ظهر في بني أمية مثل هذا الرجل قبل اختلال أمرهم لما عجل بسقوطهم، ولكنه لن يستطيع أمراً. وهجم بعض الفرسان مع نصر، فتغلبوا على الكرماني وأصابوه بطعنة فخرّ عن فرسه فأجهزوا عليه، وأمر نصر بصلبه فصلبوه.

فلما رأى أبو مسلم قتل الكرماني تظاهر بالأسف وتوقع فشل اليمنية، وإذا بعلي بن الكرماني قد هجم يطالب بثأر أبيه. فهجم أبو مسلم معه ونادى رجاله فهجموا جميعاً على نصر ورجاله، فأرجعوهم عن مواقفهم، ثم تراجع الجيشان.

رجع أبو مسلم من المعركة وقد سرّه مقتل الكرماني، وأخذ أثناء رجوعه يعمل فكرته في تدبير الحيلة لقتل ابنه علي، ولكنه رأى أن يستعين به على نصر أولاً ثم يقتله ويقتل شيبان الخارجي، فوصل إلى معسكره واجتمع إليه النقباء فنظر إليه وقال: «ألم يكن رأينا صواباً، قتلنا الكرماني ولم نسفك دماء رجالنا. والرأي فوق شجاعة الشجعان؟!».

فأعجبوا بدهائه وحسن سياسته، وازدادوا تفانياً في طاعته وقالوا: «مر بما تشاء فإنك صاحب القول الفصل».

ـ ٧ ـ
سر الضحاك

تركنا جلنار في طريقها إلى معسكر الكرماني، وقبل وصولها جاءها وفد من رجال الكرماني استقبلوها وأنزلوها في خباء خاص نصبوه في مؤخر المعسكر وأنزلوا فيه أحمال الآنية والفرش، وأدخلوا جلنار غرفة من غرفه ليس فيها من النساء سواها ومعها بعض الجواري وريحانة، وقد أصبحت في هذه الغربة ألصق بها من ظلها. وكانت ريحانة قد أحست أنها هي المسؤولة عنها، وقد علمت ما هي معرضة له من الأخطار فوطنت النفس على بذل كل شيء في سبيل سلامتها.

فلما وصلت جلنار إلى الخباء، سبقتها الجواري إلى تهيئة ما يلزم من أسباب الراحة، وقام الضحاك بإنزال الأحمال ومعه العبيد والخدم. ثم جاءت ريحانة فأدخلتها غرفتها وأخذت تنزع ما عليها من ثياب السفر وتلبسها ثوب البيت وهي صامتة لا تتكلم، ثم لاحت منها التفاتة إلى جلنار فرأت عينيها تدمعان فانقبضت نفسها وابتدرتها قائلة: «ما الذي يبكيك يا مولاتي؟» ولم تكد تنطق بهذه العبارة حتى

اختنق صوتها وغصت بريقها ولم تنبس بكلمة، فتشاغلت بضفر شعر سيدتها، ثم تجلدت وأعادت السؤال وهي تحاذر أن يختنق صوتها وقالت: «ما بالك يا مولاتي لا تجيبين عن سؤالي؟».

فالتفتت جلنار إلى ريحانة والدمع يتلألأ في عينيها، وقالت لها بالفارسية: «أتسألينني عن السبب وأنت أعلم به مني؟ أين نحن الآن؟ كيف خرجت من دار أبي وقد كنت فيها في حصن حصين وجئت دار الحرب والنبال تتساقط على فسطاطي، ثم إني لا أعرف إلى مَن أنا صائرة!».

فأحبت ريحانة أن تخفف عنها، فقالت: «أنت صائرة إلى الأمير علي بن الكرماني، وكل هذا المعسكر رهن إشارتك».

قالت: «وأين هو عليٌّ هذا؟ إني لم أره ولو رأيته ما عرفته. سامحك الله يا أبتاه. لقد فرطت فيَّ، بل اللوم عليَّ أنا فقد سلمت نفسي لرجل لا أعرفه ولم أره، وقد وصلت إلى منزله ولم أجده!».

فقالت ريحانة: «خففي عنك يا مولاتي إنه لا يلبث أن يأتي فقد اتفق وقت وصولنا مع وقت خروج الأمير الكرماني لملاقاة جند مرو للقتال. ولا شك أن علياً ابنه معه وسترينه عائداً وقد تلطخ جواده بدم الأعداء وفي وجهه عزة النصر، وهذا فخر لك. إن في ذلك لذة لم تتعوديها، فإذا ذقتها مرة عرفت قيمتها، إن لذة النصر عظيمة يا مولاتي».

فذُعِرت جلنار عند سماعها ذكر القتال، وقالت: «أهو في ساحة القتال؟ ألم تقولوا لي أنه صاحب مرو وله فيها الأمر والنهي؟».

قالت: «قد كان الأمر كذلك، وكلنه خرج منها ولا يلبث أن يفتحها كما فتحها من قبل».

فصاحت وقد نسِيت موقفها: «لا يهمني فتحها أم لم يفتحها، إني لا أريده، أخرجوني من هذا المكان اذهبي بي من هنا يا ريحانة!».

فضحكت ريحانة تخفيفاً لثورتها، وكانت قد انتهت من تمشيطها وتبديل ثيابها فألبستها ثوباً عنابيّ اللون جعلت عليه منطقة مرصّعة، ولفت كتفيها بمطرف من الخز الموشّى مبطّن بالفرو الثمين، وقد احمرّ وجهها من أثر السفر وتوردت وجنتاها وتكسّرت عيناها من البكاء وغشيهما ذبول الاهتمام، وتجلّت في جبينها وبين عينيها وعلى أساريرها دلائل الهيبة والحذر والجزع. واسترسل شعرها ضفيرة واحدة على ظهرها وقد تلألأ القرطان في أذنيها وفي كل منهما جوهرة واحدة تُضيء في الظلام، غير ما في عنقها من العقود الثمينة وغير ما يحيط بمعصمها من الدمالج والأساور، فأصبحت فتنة للناظرين. فلما فرغت ريحانة من إلباسها، دعتها إلى الجلوس فجلست وسألت: «وأين الضحاك يا ترى؟».

قالت: «لا يلبث أن يأتينا، فقد تركته يهتم بالأحمال وما إليها». وصفقت فدخل خادم، فقالت له: «أين الضحاك؟».

قال: «كان حول الخباء، ثم ذهب ولا أدري أين هو الآن". فأجفلت جلنار ونظرت إلى ريحانة كأنها تستطلع رأيها، فقالت ريحانة: «هلم بنا نطل من باب الخباء نتفرج على المعسكر عسى أن نرى الضحاك».

فنهضت ومشت وريحانة وراءها حتى أطلتا من باب الخباء وإذا بسهم سقط بالقرب منهما عند الباب، فذُعرت جلنار وتراجعت، وأما ريحانة فكثيراً ما شهدت مثل هذه المعارك فلم تحفل به وتجلدت تشجيعاً لمولاتها، ثم ضحكت وقالت: «ما الذي أجفلك يا مولاتي؟».

فقالت وهي ترتعد خوفاً: «إنهم يقتتلون على مقربة منا، بالله ما هذا؟ ما الذي جاء بي إلى هذا المكان؟ كيف رضيت بالمجيء.. آه يا أبا مسلم!». وكأنها نطقت باسمه سهواً فخجلت، وأخذت تمسح دموعها.

وكانت ريحانة أعلم منها بتحرج الموقف ولكنها لم يسعها إلا التخفيف عنها، وشعرت بأنها أساءت إليها إذ لم تمنعها من المجيء فقالت: «الحرب بعيدة عنا، تعالي انظري إلى المعركة فإنها وراء هذا المعسكر فيما بينه وبين المدينة. وأما السهم فقد أفلت ووقع هنا صدفة». ثم أمسكتها بيدها وأخرجتها من الخباء، فأطلت على المعركة عن بُعد فرأت الفرسان يتجاولون والسيوف تبرق في أيديهم وبعضهم يحمل الأتراس وبعضهم يشرعون الرماح وأكثر القتال بين الفرسان. ولذلك قلما كانوا يترامون بالنبال، فالنبالة أكثر ما يكونون من المشاة. ولم تستطع جلنار أن تشهد القتال طويلاً، فدخلت ودخلت ريحانة في أثرها وكلتاهما صامتة وقد قلقتا لغياب الضحاك. حتى إذا دنا المغيب، ازداد انقباض جلنار وتصورت مجيء زوجها الذي لم تره من قبل ولا أَحبه قلبها لانشغاله بسواه. فأمنسكت ريحانة بيدها فأحست برجفة فيها، فقالت: «ما بالك ترتعدين يا مولاتي؟».

قالت: «إني أرتعد لقرب الساعة التي سألقى فيها ابن الكرماني، بالله كيف أقابله؟ أحقاً هو بعلي؟ كلا.. الموت أحب إليَّ من قربه». ثم قبضت على يد ريحانة بيديها وصاحت: «لا أطلب نجاتي إلا على يدك».

قالت: «لا بأس عليك يا سيدتي، عليَّ تدبير كل شيء، وإنما أرجو منك أن تتجلدي ولا تُظهري نفورك منه، فقد يكون نِعم الزوج، ولا يحق لك أن تبغضيه قبل أن تريه؟».

فنظرت إليها جلنار من طرف عينيها ولسان حالها يقول: «ألا تعلمين ما يكنّه فؤادي من حب أبي مسلم؟».

فأدركت ريحانة مرادها، وقالت باسمة: «ثقي بأنك ستنالين بغيتك، ولكن بالصبر والحزم».

وما لبثتا أن سمعتا صهيل الخيل وضوضاء الناس فأجفلتا معاً، أما ريحانة فتجلدت وقالت: «يظهر أن الفرسان قد رجعوا من المعركة». ثم خرجت حتى أطلت من باب الخباء وعادت وهي تقول: «ها هو ذا الأمير قد أتى على فرسه وهو مخضب بالدماء كما قلت لك، وسيأتي إليك فلا تجزعي».

فقالت: «والضحاك لم يأتِ بعد، أين هو؟ قد تركنا في ساعة الحاجة إليه».

قالت: «لا تلومي الغائب حتى يحضر».

ثم جاء الخدم من رجال الكرماني يحملون الشموع مغروسة في أعواد نصبوها في جوانب الخباء، فأضاء المكان وجلنار لا تستطيع الوقوف من شدة التأثر. فجلست وقد اصطكت ركبتاها، وإذا بالضوضاء تقترب من الخباء، ثم سمعت رجلاً يتكلم قرب الباب بصوت عالٍ ويقول: «أين خباء عروسنا الدهقانة..؟».

فلما سمعت جلنار صوته تحققت أنه زوجها فارتعدت فرائصها وازداد اضطرابها، فتشاغلت بمطرفها تلف به منكبيها ويداها ترتعشان وقد بردتا. فخرجت ريحانة لاستقباله لدى الباب، وقالت: «أهلاً بالأمير الجليل، إن مولاي الدهقان يوصيك بابنته خيراً، ويقول لك إنه قد عهد إليك بفلذة كبده فكن بها رفيقاً».

فقال: «لقد أوصى حريصاً، إن الدهقانة تنزل عندنا أرفع منزلة

وأعز مكانة». ومشى إلى الغرفة وهو يقول: «وأين هي؟».

فقالت: «هي جالسة في حجرتها، وقد أنهكها تعب السفر أثناء النهار».

فأدرك مرادها وقال: «إني إنما أُريد راحتها، وقد أحببت لقاءها للترحيب بها». ودخل وقد تنسّم رائحة الطيب.

وكانت جلنار جالسة وقد سمعت قوله فسكن روعها وأطرقت وهي تراعي دخوله بجوارحها. فلما دخل حجرتها وأقبل عليها ورأى جمالها أخذت بمجامع قلبه، ولكنه هابها وقال: «مرحباً بعروسنا لقد أتيت أهلاً ونزلت سهلاً، وعسى أن يكون مقامك عندنا مثل مقامك في بيت أبيك».

فرفعت جلنار بصرها إليه لترى وجهه والحياء يغالبها، فرأت شاباً في نحو الثلاثين من عمره قصير القامة عريض المنكبين توشح بعباءة من الحرير وتقلد السيف وغرس الخنجر في منطقته وعلى رأسه عمامة حمراء، وكان مستدير الوجه واللحية دقيق الشاربين وقد ذهبت إحدى عينيه. فلما دنا منها قعد على البساط أمامها ووضع السيف معارضاً على حجره وقال: «لا بأس عليك يا جلنار، أرجو أن يذهب عنك تعب السفر الليلة، وأن يكون قدومك فأل خير على هذا المعسكر. فقد أتيت والحرب قائمة بيننا وبين صاحب مرو وعدنا من هذه المعركة ظافرين بحول الله، فعسى الله أن يأتينا بالفتح على يديك وببركة قدومك».

وكانت جلنار مطرقة حياء لا تدري بماذا تجيب، فأجابت ريحانة عنها: «ذلك ما نرجوه أيها الأمير البطل، فقد قدمنا ونحن نتوقع أن يكون مقامنا بمدينة مرو، فعسى ألا يكون نزولنا في هذا المعسكر طويلاً».

فتحمس علي وقال: «لو قدمتم مجيئكم قليلاً لنزلتم تواً في مرو، وقد كانت في قبضتنا فخرجت من أيدينا منذ بضعة أيام. ولكنها ستعود إلينا بإذن الله».

فأدركت جلنار غرض ريحانة من ذلك التعريض، فقالت والحياء يغالب منطقها: «لعل قدومنا كان شؤماً عليكم، فكيف تتوقعون أن يكون بركة.. ولو كان ذلك لما كان نزولنا في غير دار الإمارة بمرو؟!».

فقال: «عفواً أيتها الدهقانة، إن قدومك بركة وفأل حسن. وأنا على يقين من ذلك، وسترين صدق قولي».

قالت: «أنت صادق، ولكننا علمنا شؤم قدومنا من النبال التي رأيناها تتساقط حولنا منذ أنيخت بنا المطايا في هذا الخباء!».

فازداد علي حماساً وأريحية واستسهل كل صعب في سبيل رضاها فقال: «إنك ستبيتين غداً في دار الإمارة بإذن الله». قال ذلك إرضاء لها، ولم يدر أنه قيّد نفسه بوعد دون الوصول إليه خرط القتاد. فلم تغفل ريحانة عن انتهاز الفرصة، فنظرت إلى مولاتها وهي تظهر الإعجاب بأريحية علي وقالت: «إن الأمير يا مولاتي قد وعد ـ ووعده عهد ـ بألا تبيتين غداً إلا في دار الإمارة!».

فقال علي وقد أخذ الهيام منه مأخذاً عظيماً، فأثار حماسته وحميته: «نعم لا تبيتين غداً إلا في دار الإمارة». ثم أدرك تسرّعه فأراد أن يحتاط لنفسه فقال: «وأعاهدك على أني لا أتمتع بهذا الوجه الجميل إلا في تلك الدار».

فأطرقت جلنار حياء وسكتت. فأجابت ريحانة عنها قائلة: «بورك فيك من شهم حر، والحر إذا عاهد وفى».

فنهض وهو يقول وقد ثارت النخوة في نفسه: «أستودعك الله، وسترين بلائي غداً، فاذهبي الآن إلى فراشك واستريحي». وخرج يجر سيفه وراءه.

فلما توارى، نظرت ريحانة إلى سيدتها وقالت لها بالفارسية: «ما قولك في هذا العهد؟».

قالت: «لا بأس به، ولكني أخاف أن يتمكن من دخول مرو غداً».

قالت: «لا أظنه يستطيع ذلك، وإذا استطاع كان جديراً بك، إذ لا يكون لأبي مسلم حينذاك شأن».

فقطعت كلامها وقالت: «لا تقولي هذا، وإن أبا مسلم مكبلاً بالأغلال لأحب إليَّ من سواه على عرش كسرى!».

فقالت ريحانة: «دعي ذلك إلى تقدير العزيز الحكيم، وإن غداً لناظره قريب. ولكن غياب الضحاك قد أقلقني، وهو إنما جاء معنا ليكون في خدمتك. قومي الآن إلى الطعام ثم نرى ما يكون».

جلست جلنار ومعها ريحانة إلى المائدة، ووقف بعض الجواري في خدمتهما. ثم إذا بخادم قد دخل مهرولاً وهو يقول: «الضحاك بالباب».

فتهللت جلنار وعافت الطعام شوقاً إلى سماع الضحاك، ولم تكن ريحانة أقل منها رغبة في ذلك لتطلعه على ما وفقتا إليه تلك الليلة، فقالت للخادم: «ادخله إلى الحجرة الوسطى، واحمل إليه الطعام وقل له أن الدهقانة ستوافيه على عجل».

فلما انتهيا من طعامهما ذهبتا إليه فوجدتاه في انتظارهما، فقالت له جلنار: «أين كنت يا رجل؟».

فتأدب في موقفه ويداه في منطقته وعمامته مائلة على رأسه وقد نبش شعر لحيته وشاربيه حتى تغيرت سحنته فما تمالكت جلنار عن الضحك، ثم أجابها بضحكة طويلة. فأشارت إليه أن يقعد وقعدت وأقعدت ريحانة بجانبها، فجثا الضحاك على ركبتيه وقال: «لقد أذنبت بخروجي بلا استئذان. ولكن العفو أقرب للتقوى».

فقالت ريحانة: «كيف تتركنا وحدنا وقد أوصاك الدهقان برعاية مولاتنا وبألا تفارقها؟».

قال: «نعم أخطأت بمخالفتي وصية مولاي الدهقان، ولكنني أصبت بمجاراة مولاتي الدهقانة». قال ذلك وأطرق إطراق الحياء.

فقالت: «دعنا من مجونك، وقل أين كنت؟».

قال: «إذا كنت لم تفهمي كلامي فمولاتي الدهقانة قد فهمته». ونظر إلى جلنار وقال: «أليس كذلك؟».

فقالت جلنار: «لعلك ذهبت إلى أبي مسلم؟».

فقهقه ثم قطع ضحكته بغتة، وقال لريحانة: «أرأيت الفرق بين مَن يفهم ومَن لا يفهم؟».

فتطاولت جلنار بعنقها نحوه وقالت: «وماذا فعلت؟».

قال: «غداً تعلمين ماذا فعلت».

فقالت ريحانة: «قل الآن، فنقول لك ماذا فعلنا نحن».

قال: «أنا أعرف ماذا فعلتما، لقد أخذتما العهد على صاحبنا ألا يتزوج إلا في دار الإمارة».

فدُهشت جلنار لاطلاعه على ذلك والتفتت إلى ريحانة لتشاركها في الاستغراب، فالتفت الضحاك إلى ريحانة وقال: «وهل من الغريب أن أعرف أمراً أنا فعلته».

فقالت ريحانة: «وكيف ذلك؟ ونحن إنما حملناه على هذا الوعد خطوة خطوة؟».

قال: «أنا وضعت الأساس وقد فكرت في الأمر قبل خروجنا من بيت سيدي الدهقان، فلما وصلنا كان قصارى همي أن ألاقي الأمير علياً، فتركتكما وذهبت إلى قرب المعركة حتى إذا عاد الأمير علي منها بشَّرته بمجيء العروس ثم ألقيت إليه كلاماً أعددت به ذهنه لذلك العهد!».

فاستغربتا تيقظه وذكاءه، وقالت ريحانة: «ثم إلى أين ذهبت؟».

قال: «ذهبت إلى الأمير الآخر». ورفع بصره إلى سقف الخباء وتظاهر بأنه ينظر إلى ما فيه من الرسوم الملونة ولم يضحك. ثم أرسل بصره إلى جدران الحجرة فابتدرته ريحانة قائلة: «وما الذي فعلته هناك؟».

قال: «غداً تعرفينه».

فقالت: «بحياة مولاتنا افصح واترك المجون».

فتظاهر بالجَد، ووجه خطابه إلى جلنارِ قائلاً: «بحثت مع أبي مسلم في الطريق المؤدي إلى بقائه وحده في هذا الميدان».

فقالت جلنار: «وكيف ذلك؟ قل».

فقصّ عليها ما دار بينه وبين أبي مسلم بإيجاز، وقال: «والحق يُقال أن هذا الخراساني نبيه عاقل، ولا سيما لأنه شهد لي بالذكاء». وضحك.

فقالت ريحانة: «إن ذكاءك معلوم عندنا».

قال: «أشكرك على هذا الإطراء، وآسف لأني نذرت ألا أتزوج!».

فقطعت جلنار كلامه وقالت: «اكفف عن ريحانة ولا تعبث بها».

قال وهو يحك ذقنه: «كأنك تظنينها تكره ذلك، ولكنني عملاً بأمرك قد عفوت عنها ولا سيما لأنها تحبك».

فضحكت جلنار وقد سرى عنها وخف ما بها، فلما رأت ريحانة سرور سيدتها شاركتها فيه وشعرت بفضل الضحاك عليهما، فقالت في نفسها: «لا ريب أن لهذا الرجل المهذار شأناً، وإن أمره لعجيب».

ثم التفتت ريحانة إلى سيدتها وقالت: «ألا تذهبين إلى الفراش يا مولاتي؟».

قالت: «نذهب». ووقفت، فوقف الضحاك وقال: «وأنا ذاهب، وقد لا أنام الليلة، فإذا طلبتماني بعد ساعة ولم تجداني فلا تحسباني فررت».

قالت جلنار: «افعل ما بدا لك، إننا لا ننسى لك جميلاً تبذله. وإذا وفقنا إلى ما نريد كان لك ما تطلب، انصرف إذا شئت».

فخرج ليبيت في فسطاط الأعوان والحاشية، وكان الكرماني وابنه قد استأنسا به عندما اجتمعا به في غروب ذلك اليوم وآنسا فيه خفة الروح.

ولم ينم تلك الليلة حتى علم أن رسول أبي مسلم مرّ بالمعسكر وقبضوا عليه، ورأى الكرماني في فسطاطه يتلو كتاب أبي مسلم ومعه إبناه علي وعثمان وكانا لا يفارقان مجلسه وهما عمدته في حروبه، وعثمان أصغر من علي. فلما تحقق الضحاك نجاح حيلته ذهب لينام.

ولما التحم الجيشان في صباح الغد وقف الضحاك يرصد

حركاتهما، فلما رأى الكرماني قد قبل مصالحة نصر بن سيار أسرع إلى معسكر نصر ملثماً وحرّض ابن الحارث على أن يثأر لأبيه فجاء وقتل الكرماني.

تركنا أبا مسلم في معسكره فرحاً بما أوتيه من جواز حيلته على الكرماني. فلما تفرق عنه النقباء بعد العشاء إلى خيامهم ظل هو في غرفته وحده يعمل فكرته في إتمام مشروعه للتفريق بين الجيوش المحيطة بمرو. وكان إذا خلا إلى نفسه ربض كالأسد وأخذ في تدبير الأمور بدهاء، فإذا ملّ الجلوس وقف وتمشى ذهاباً وإياباً كأنه نمر كاسر حُبس في قفص من حديد وقد جاع فتحفز للوثوب على فريسة قريبة منه. وكان وهو يفكر، يرى شبح الضحاك نصب عينيه ويتوقع أن يراه قادماً إليه بحيلة يظنها الضحاك فتحاً جديداً وهي عند أبي مسلم «قديمة» وإنما كان يظهر إعجابه بفطنته تشجيعاً له على خدمة أخرى، والضحاك يتوهم أن حقيقة مساعيه تخفى على أبي مسلم، وما علم أن هذا الخراساني يقرأ كل ما يجول في خاطره ويدرك ما سيأتي به إليه أو يشير به عليه، وإنه إنما يظهر له استحسانه وإعجابه دهاء ومكراً، وقد أضمر له السوء. فقد كان الناس في ذلك العصر أعداء بعضهم لبعض، كل منهم يترقب من صاحبه غفلة ليغتاله، وقد اختلفت العناصر وتباينت المقاصد وصدرت وصية الإمام إبراهيم بقتل كل من يشتبه فيه.

وفيما كان أبو مسلم سابحاً في عالم خياله، يتمشى وبيده قضيب يلاعبه بين أنامله، جاءه أحد الحراس يقول: «إن بالباب رجلاً يطلب المقابلة». فأدرك أنه الضحاك، فأذن له فدخل وقد تنكر بقلنسوة من قلانس الفرس فوقها عمامة صغيرة فبدا كأنه من كَهَنة المجوس. فلما أقبل رحّب به وبشّ له، ولكن الضحاك قرأ في احمرار

عينيه وتغضن جبينه ما دله على أهمية الأمر الذي يفكر فيه، فوقف متأدباً فخاطبه أبو مسلم قائلاً: «أهلاً بصديقنا الضحاك».

فأعظم الضحاك هذا التنازل من أبي مسلم وبالغ في التأدب في موقفه، وقال: «إني لا أستحق هذا الإكرام يا مولاي، وإنما أنا عبدك أرجو رضاك».

قال: «ومتى كان العربي عبداً للفارسي».

فوجم الضحاك لحظة ثم قال: «إن المسلمين أخوة، وإنما يتفاضلون بالتقوى والجهاد، وقد ذهبت الدولة التي تحسب للعرب مزية على غيرهم، وكان تعصبها للعرب سبباً لذهاب سلطانهم. وكيف لا أكون عبداً لبطل خراسان صاحب دعوة الإمام؟».

فاستضحك أبو مسلم وقعد، ثم أشار إلى الضحاك فقعد جاثياً على ركبتيه وقد أطرق وسكت، فابتدره أبو مسلم قائلاً: «ما وراءك يا ضحاك؟».

قال: «ما ورائي إلا الخير، وقد جئتك مهنئاً بما أوتيته من الفوز الباهر ولعَلي أنفذ لك أمراً».

قال: «إنما نحن مدينون بهذا الفوز لتدبيرك وسعيك، وإذا تم لنا النصر جعلناك في منصب يليق بأمثالك».

قال: "لا ألتمس إلا رضا مولاي الأمير، فمرني بما تشاء".

قال: «قل ما الذي تراه الآن؟ لقد أعجبني سداد رأيك بالأمس».

فأطرق الضحاك هنيهة كأنه يعمل فكرته، ثم قال: «ألا ترى بعد أن قتل الكرماني أن تتخلص من ابنه فيخلو لك الجو؟».

قال: «وشيبان؟».

فضحك الضحاك وقال: «شيبان؟ وما شأن هذا الخارجي. فهو ليس ممن يحسب لهم حساب؟».

قال: «كيف لا وهو صاحب جند وعصبية مثل الكرماني».

قال: «إذا قتلت ابن الكرماني، فأمر شيبان عليَّ».

وكان أبو مسلم ينظر أثناء حديثه إلى قلنسوة الضحاك وفي نفسه أن يعلم ما تحتها، وقد لحظ من وراء حافتها أن رأس الضحاك حليق فأومأ بالقضيب إلى القلنسوة وقال: «ومَن أتاك بهذه القلنسوة؟». وأظهر أنه غمزها بالقضيب سهواً فسقطت فبانَ رأسه حليقاً. فوثب الضحاك وتضاحك، وبادر إلى القلنسوة فأعادها إلى رأسه وقال: «قد انتظمت في سلك المجوسية من عهد قريب».

فتجاهل أبو مسلم ما أدركه من رؤية الرأس الحليق،. وتضاحك وقال: «إن الكهانة خليقة بالفرس وليس بالعرب».

فأصلح الضحاك قلنسوته وقد امتقع لونه من تلك المفاجأة، ولكنه صدق أن أبا مسلم إنما فعل ذلك سهواً فقال: «إن الرجل يغيّر زيّه للوصول إلى غرضه، ولو لم ألبسها ما استطعت بلوغ خيمتك».

فأظهر أبو مسلم أنه صدق قوله، وقال: «إنك لتعجبني بجدّك وهزلك، فلنعد إلى الجَد. ما الحيلة إذا أردنا التخلص من ابن الكرماني؟».

قال: «إن قتل هذا الرجل سهل وصعب».

قال: «وما معنى ذلك؟».

قال: «ألا تذكر يا مولاي مجلسنا في منزل دهقان مرو، إذ قلت لك إن إظهارك الميل لهذه الفتاة المفتونة سيكون عوناً لك على تنفيذ مأربك؟».

ففهم أبو مسلم تلميحه ولكنه تجاهل وقال: «نعم أذكر ذلك ولكنني لم أفهم مرادك».

قال: «مرادي أن تتخذها نصيرة لك في خيمة ابن الكرماني وعلى فراشه».

قال: «أتراها تعيننا على قتله؟». قال: «نعم يا سيدي أنا أضمن ذلك على شرط!».

قال: «وما هو الشرط؟». قال: «ذلك شرط يسير. ترسل إلى هذه الفتاة علامة تؤكد لها رضاك عنها وإن قتل ابن الكرماني يرضيك، وأنا أتم الباقي».

قال: «وما هي العلامة التي تعنيها؟».

قال: «علامة تعلم أنها منك».

فنظر أبو مسلم إلى الضحاك نظرة كشف بها أسرار قلبه كما يكشف أصحاب أشعة رنتجن ما وراء الجوامد، وقال: «لا أظنها تقنع بغير خاتمي».

قال: «تلك خير علامة نقضي بها الإرب».

فأطرق أبو مسلم كأنه يتردد، ثم قال: «هل تعلم أهمية هذا الأمر؟ إني إذا دفعت إليك خاتمي فكأني سلّمت إليك أمري؟».

قال: «أعلم ذلك يا مولاي، ولو علمت أن الأمر يقضي بدونه لما طلبته».

فنزع أبو مسلم الخاتم من إصبعه ودفعه إليه، وقال: «هذا هو، خذه وامض مسرعاً وعد إليّ به الليلة فإني لا أبيت بدونه».

فوقف الضحاك إجلالاً وتناول الخاتم وقبّله ووضعه على رأسه وقال: «قد لا أستطيع مقابلة الدهقانة الليلة فآتيك في الصباح ومعي

الخاتم بإذن الله». قال: «سر في حراسة المولى».

ثم استأنف الكلام وقال: «ألبث هنا ريثما أعود إليك». وخرج من باب سرّي في الغرفة، وظل الضحاك واقفاً وقلبه يطفح سروراً لما استبشر به من نجاح أمره، وأصاخ بسمعه لعله يشعر بحركة أو يسمع صوتاً يستدل به على شيء فلم يسمع شيئاً. ثم عاد أبو مسلم وقال: «اذهب يا ضحاك وإذا وفقت في خدمتنا كافأناك، ولكن متى استوثقت من الفتاة فقل لها ألا تعجل بالأمر بل تنتظر إشارة أخرى، فهمت؟». قال: «سمعاً وطاعة». وانصرف.

أصبحت جلنار في ذلك اليوم وقد تهيأ الجيشان للنزال، وهي تخاف أن ينتصر الكرماني لأن هذا يعرقل مساعيها ويخيّب آمالها، فوقفت مع ماشطتها بحيث ترى المعركة عن بُعد فرأت تضعضع جند الكرماني ثم رأته عاد إلى معسكره وكاد ينتصر فخافت، وأخيراً علمت بما كان من قتله ثم شاهدت تضعضع عسكره وهجوم ابنه عليٍّ واتحاده مع أبي مسلم فاستغربت ذلك وأغلق عليها تفسيره، فعادت إلى خبائها مع ريحانة وقد انقبضت نفسها وقالت لها بالفارسية: «ما الذي أراه يا ريحانة، أبو مسلم ينصر صاحبنا؟».

قالت: «لا يغرنك ما تشاهدينه فإنها حيلة من أبي مسلم، ومتى جاء الضحاك يفسر لنا كل شيء».

ولما غربت الشمس ولم يكن الضحاك قد جاء بعد، انقبضت نفس جلنار ولم تستطع طعاماً ولا شراباً، وريحانة تخفف عنها وتمنيها بالمواعيد. ثم سمعتا قرقعة اللجم وصهيل الأفراس بباب الخباء، فأجفلتا وعلمتا أن عليّاً قادم برجاله فمكثتا صامتتين، وإذا بباب الخباء انفتح ودخل عليٌّ وثيابه ملطخة بالدماء وقد أخذ الغضب منه مأخذاً عظيماً. فخافت جلنار من منظره ولم تعلم بماذا تخاطبه وهو على هذه

الحال وقد قُتل أبوه، فلبثت صامتة. أما ريحانة فتجلدت واستقبلت علياً، وقالت: «أحسَنَ الله عزاء الأمير، إن مَن يُقتل في ساحة الوغى ويخلف مثلك لا يموت، وإنك لآخذ بثأره».

فأعجبه قولها فسرى عنه، والتفت إلى جلنار وقال: «لنا ببقاء عروسنا الدهقانة أكبر عزاء وسوف أثأر لأبي من أولئك الأنذال، وما هي إلا أن تطلع الشمس ونعود إلى القتال فلا تغرب إلا ونحن في دار الإمارة بإذن الله». قال ذلك وهو يصلح من شأن خوذته على رأسه وابتسم وأشار إلى جلنار أن تجلس فجلست صامتة. والقلوب إذا لم تتفاهم عجزت الألسنة عن الكلام. فحمل سكوتها على محمل الحياء فعذرها واكتفى بما سمعه من ريحانة، ولكن جلنار لم يسعها عند سماع ما قاله إلا أن تجيبه قائلة: «إن العزاء ببقاء مولاي الأمير، حفظه المولى وأعانه على الأخذ بالثأر».

فلما سمع قولها انشرح صدره، وقال: «إني سأثأر لأبي وسترين وتُسرّين». ثم صفق فجاءته قيِّمة الخباء فأمرها أن تقوم على خدمة الدهقانة أحسن قيام. ثم خرج للاهتمام بأمر الجيش والاستعداد للقتال في الغد.

فلما خرج ظلت الدهقانة صامتة وقد أخذتها شفقة على ذلك الشاب لما تضمره له من الشر، ثم خافت أن يميل قلبها إليه فاستحضرت صورة أبي مسلم في ذهنها، فذهب منه رسم علي وهاجت عواطفها. فلما خلت بريحانة قالت: «متى يأتي الضحاك لنسأله عما حدث اليوم؟».

قالت ريحانة: "لا يلبث أن يأتي، وقد أوصانا بالأمس ألاَّ نستبطئه إذا غاب".

قالت: «إن لهذا الرجل لشأناً، فقد جاء ليكون في خدمتي وأراه

يقضي أكثر وقته خارجاً».

فقالت ريحانة: «إذا غاب يا مولاتي فإنما يغيب في خدمتك أيضاً، هكذا فعل بالأمس فلا تلومي الغائب حتى يحضر».

فأجابت جلنار قائلة: «إني والحق يُقال لم أرَ مثل إخلاص هذا الرجل في خدمتنا، والغريب أنه عربي لم يستنكف أن يكون من موالينا».

قالت ريحانة: «إن العرب ليسوا الآن كما كانوا من قبل، فقد انحلت عصبيتهم وانقسموا فيما بينهم ودالت دولتهم.. ألا تذهبين لنتناول الطعام؟».

فنهضت جلنار ومشت وهي تقول: «نذهب إلى المائدة ريثما يعود ذلك المهذار».

فمشت ريحانة في أثرها وهي تتمتم قائلة: «لا أظنه مهذاراً».

وبعد أن تناولتا الطعام قضتا برهة تتحدثان، وكلما سمعتا وقع أقدام ظنتا الضحاك قادماً حتى طال انتظارهما وغلب عليهما النعاس. فذهبت جلنار إلى الفراش، وظلت ريحانة جالسة بين يديها والنعاس يغالبها والقلق ينبهها. فانقضى هزيع من الليل ونام أهل المعسكر وساد السكوت وسكت القصاصون والقراء ولم يأت الضحاك بعد.

وبينما هي في سهوة من سهوات النعاس سمعت ضحكة الضحاك فذُعرت وفتحت عينيها فإذا هو واقف بإزاء الخباء وكأنهما عمودان. فهمّت بأن تصيح به وخافت أن توقظ سيدتها وترعبها فاقتربت منه وقالت بصوت منخفض: «سامحك الله على هذا الغياب».

فمشى وهو يشير إليها أن تتبعه فتبعته حتى خرجا من الغرفة إلى

غرفة أخرى ليس فيها نور، وكانت رجلاها تتثاقلان، فمد يديه وأمسك بيدها وشدها وهو يقول: «لا تخافي، لا بأس عليك».

قالت: «دعني أحمل إليك السراج لأرى وجهك وأسمع حديثك».

فضحك وقال: «ما أشد شوقك لرؤية هذا الوجه! هاتي السراج».

فذهبت تمشي على رؤوس أصابعها حتى حملت السراج من غرفة جلنار وجاءت به ووضعته بجانب العمود وجلست. فجلس الضحاك وكان قد أبدل بالقلنسوة العمامة التي يعرفه بها أهل المعسكر، فابتدرته قائلة: «لقد أطلت الغياب الليلة، ومولاتي الدهقانة نامت منقبضة النفس على أثر ما رأته من نصرة أبي مسلم لجند الكرماني».

فقطع الضحاك كلامها وقال: «ألم يقتل الكرماني؟ تلك عاقبة انتصاره له!.. وإذا طالت نصرته لهذا البيت أجهز على أهله واحداً بعد واحد».

فلم تفهم ريحانة قوله، فقالت: «بالله لا تكلمني بالألغاز».

قال: «قبّحك الله ما أغلظ فهمك!. ما تقرب هذا الخراساني من قوم إلا أبادهم في سبيل مطامعه. فقد تظاهر بنصرة الكرماني حتى يستعين به على صاحب مرو، ولم يكن يقصد سرعة قتله ولكن الأقدار عجّلت بذلك».

قالت: «إن مولاتنا الدهقانة في قلق شديد لغيابك بعد علمها بمقتل الكرماني، فهل أوقظها لسماع حديثك؟».

قال: «سأوقظها بعد قليل وإنما أريد أن أسر إليك أمراً أرجو

أن تساعديني فيه خدمة لمولاتنا».

قالت: «وماذا تريد؟».

قال: «إن مقتل الكرماني إنما كان بمسعاي أنا توطئة لمقتل ابنه ليرضى عنا أبو مسلم فتنال مولاتنا ما تتمناه!».

قالت: «أنت سعيت في قتل الكرماني؟ لله ما أقدرك! والآن تريد أن تقتل ابنه؟ كيف تستطيع ذلك؟».

فضحك وقال: «لا أستطيع ذلك إلا بك».

فدُهشت وقالت: «لعلي من أهل السيف ولست أدري؟!».

قال: «ليس الفوز بكثرة الجند يا ريحانة وإنما ينال المرء مرامه بالدهاء والصبر. وأنا الآن آتٍ من عند أبي مسلم وقد وعدته بقتل ابن الكرماني، وأصبح يتوقع ذلك منا بعد أن حدثته في شأن مولاتنا الدهقانة معه، وأنها ستكون عوناً له على نجاح مهمته. وليس من شيء يسهّل عليه المهمة مثل قتل آل الكرماني ليستأثر بالسلطة من دون بقية العرب».

فأجفلت ريحانة من هول طلبه، وسكتت ولم تحر جواباً.

فلما رآها ساكتة وقف وقال: «دعيني أذهب إلى مولاتي جلنار فإنها أعلم منك بأهمية هذا الطلب».

فوقفت تقول: «لا أظن الدهقانة ترى قتل رجل يتفانى في حبها بلا ذنب اقترفه، ولا هي اعتادت القتل. امكث هنا ريثما أوقظها ثم أدعوك». وتركته ومضت ثم عادت ونادته، فتبعها والسراج بيدها حتى دخلت غرفة جلنار، وكانت قد جلست في الفراش والتفت بالمطرف، فدخل ووقف متأدباً، فأمرته بالجلوس على طنفسة صغيرة عليها رسوم فارسية ملونة، وجعل ركبتيه تحته.. وهي

جلسة التأدب عندهم.

فلما استتب به المقام، قالت جلنار: «لقد أزعجني غيابك وأنت تعلم أن أبي إنما أمر بمجيئك لتكون معي لأني لم أزل أعد نفسي غريبة بين هؤلاء القوم، ولكنك منذ أتينا هذا المعسكر لا تمكث إلا قليلاً وتتركنا على أحر من الجمر في انتظارك». فأطرق الضحاك ولم يجب، فاستأنفت جلنار الكلام وكأنها استدركت أمرها فقالت: «لا أنكر أنك لا تغيب إلا في مهمة تهمني، وإنك من أشد الناس غيرة عليَّ وسعياً في راحتي، ولكنك أقلقتني اليوم حتى كادت تزهق روحي».

فابتسم الضحاك معتذراً، وقال في هدوء ورزانة واحترام: "يسوءني يا مولاتي أن أسبب لك قلقاً، وأقسم برأس مولاي الدهقان إني إنما غبت في خدمتك، ومتى عرفت من أين أنا آت الآن عذرتني!».

قالت: «من أين؟». فالتفت إلى ريحانة كأنه يستشهدها وقال: «قصصت بعض حديثي على ريحانة أثناء رقادك ولا بأس من الإعادة، أتيت الآن من معسكر الخراسانيين بعد حديث مع الأمير أبي مسلم".

فلما سمعت اسم الأمير أبي مسلم بدا الاحمرار في وجهها وتجلت علامات الحب في عينيها وغلب عليها الحياء، فأطرقت ثم قالت: «وماذا جرى؟».

قال: «لم يحدث شيء بعد، وأخاف ألا يحدث شيء فيذهب سعينا هدراً!».

قالت وقد أوجست خوفاً من هذا التلميح: «ما الذي تخافه؟».

قال وهو يخفض صوته: «أخاف أن ينقلب سعينا علينا، فنحن

إنما ركبنا هذا المركب الخشن وحملنا دهقانة مرو إلى خيمة هذا الرجل، وحملناها ما حملناها من المشقة وعرضناها للخطر، كل ذلك لكي نصل إلى ما نبتغيه من قائد جند الخراسانيين، وقد فهمت من كلام ريحانة الآن أن أمرنا صائر إلى غير المراد!».

فالتفتت إلى ريحانة وفي عينيها أمارات الاستفهام، فأجابتها هذه بنظرة الاستغراب. فقال الضحاك: «لا تستغربي يا مولاتي فإني أفصح لك عن مرادي بعبارة وجيزة. قد رأيت اليوم ما كان من نصرة أبي مسلم لابن الكرماني، ولا أظنك تجهلين معنى هذه النصرة، فأبو مسلم لم ينصر عدوه هذا إلا احتيالاً حتى يتمكن من الفوز عليه في شيئين مهمين: الأول أنت وهو الأهم عنده، والثاني فتح مرو. وكذلك لا يغرنك ما يبديه ابن الكرماني من مداهنة أبي مسلم، فهو إنما يسايره لكي يحقق غرضه فيتزوج الدهقانة ويفتح مرو، وكل من الأميرين لا ينال أربه إلا بقتل صاحبه لينفرد بالغنيمتين. فابن الكرماني يهيىء الوسيلة لقتل أبي مسلم، وهذا يهيئها لقتل ابن الكرماني، وترجيح الفوز لأحدهما راجع إليك!».

فاستغربت جلنار هذا التفصيل، وأدركت بعض مراد الضحاك، وأشكل عليها البعض الآخر فقالت: «وما علاقتي بذلك؟».

فقال وهو يبالغ في خفض صوته وجلنار تتطاول بعنقها نحوه: «إن ابن الكرماني يتربص غفلة من أبي مسلم ليغتاله، ومَن يدري متى يتأتى له ذلك، وقد أراد أبو مسلم أن يسبقه فيقتله، ولكن ريحانة تأبى ذلك فأرجو ألا يكون رأيك من رأيها».

فقالت: «هل ترضى ريحانة بفوز ابن الكرماني؟ لا أظن».

قال: «لم تقل ذلك صريحاً، ولكنني ذكرت لها وسيلة تسهل

قتل هذا الرجل وتجمعك بأبي مسلم فعرقلت مساعيّ».

فقطعت ريحانة كلامه، ووجهت خطابها إلى جلنار قائلة: «ليس الأمر كذلك يا مولاتي، ولكنه جاءني برأي لا أظنك ترضين به!».

فابتدرها الضحاك قائلاً: ألا ترضى مولاتنا بقتل هذا الرجل واستقلالها بأبي مسلم؟».

قالت ريحانة: «ولكنك تريد أن يكون قتله على يدها».

فلما سمعت جلنار قولها بدا الارتباك في وجهها، ونظرت إلى الضحاك فرأته يصعد كتفيه ويقلّب شفتيه ولسان حاله يقول: «ذلك لا يعنيني».

فقالت جلنار: «أحقاً أنت تعني ذلك؟ أتريدني أن أقتل هذا الرجل؟ وكيف أقتله وهو لم يسيء إليّ؟».

قال: «تفعلين ما تشائين، يبدو أنك ألفت الإقامة هنا ونسيت وعدك».

قال: «لم أنسَ وعدي ولا غيّرت عزمي، وأنت تعلم ذلك».

فمدّ يده إلى جيبه وأخرج الخاتم ودفعه إليها، وقال: «هل تعرفين صاحب هذا الخاتم؟».

فتناولته وحدقت فيه على ضوء السراج، فإذا عليه اسم أبي مسلم.. فاختلج قلبها في صدرها وهاجت عواطفها وتنسمت منه رائحة حبيبها، ونظرت إلى الضحاك وقالت: «هذا خاتمه، ما الذي جاء به إليك؟».

قال: «لم أسرقه، ولكن صاحبه دفعه إليَّ دليلاً على صدق رسالتي فهل تصدقين ما أقول؟».

قالت: «وهل كذّبتك في شيء قبل الآن؟». قال: «كلا».

قالت: «وما الذي بعثك به إليَّ؟».

قال: «قصصت عليك غرضه، وخلاصة ذلك أننا إن لم نقتل صاحب هذه الخيمة فسيقتل هو صاحب هذا الخاتم. فإن أحدهما سيقتل الآخر لا محالة، فإذا ترددنا في مقتل هذا فكأننا سعينا في قتل ذاك. ولا سبيل إلى ذلك إلا بك، فاختاري أحد الأمرين».

فأدركت جلنار غرضه فأعظمت الطلب، ولكنها أعظمت أن تعرض حبيبها للخطر وهي تعتقد أنه يحبها وفي قتله ذهاب كل آمالها، فلبثت حائرة، واستولى السكوت على الجميع. ثم فتحت جلنار فاها وقالت: «قد أوقعتني في حيرة لا أعرف كيف أنجو منها، أما القتل فلا طاقة لي به ولكنني أبذل جهدي في منع الأذى عن ذاك».

فضحك وقال: «تمنعين الأذى؟ افعلي ما بدا لك فليس عليَّ تبعة ما يحدث من عاقبة هذا التردد».

فخافت تهديده وزادت حيرة وعادت إلى صمتها فقال الضحاك: «كيف تمنعين الأذى وأنت محبوسة في هذه الخيمة لا تستطيعن مبارحتها إلا بقتل صاحبها، وإذا لم نعجل بقتله سبقنا هو إلى قتل صاحبنا.. فنندم حين لا ينفعنا الندم.. على أنك أنت صاحبة الشأن ونحن طوع أمرك، والخسارة إنما تعود عليك فافعلي ما تشائين».

فقالت: «أقتله بيدي؟ بالله كيف أستطيع ذلك.. تبصر في الأمر يا ضحاك، وقل ماذا كنت تفعل لو كنت في موضعي؟».

قال: «لو كنت في مكانك لقضيت الأمر بشربة من ماء أو لقمة من طعام!».

فأطرقت هنيهة ثم قالت: «لا، لا أقدر على ذلك، ولكنني أبذل جهدي في منع الأذى عن.. وإذا استطعت المساعدة في..».

وسكتت ثم قالت: «دعني أتدبر المسألة».

فنهض الضحاك وقد رجح عنده أنه سيقنع جلنار في جلسة أخرى وقال: «أرجعي لي الخاتم لأرجعه إلى صاحبه.. وأنا على يقين أنك ستعودين إلى رأيي».

فقالت: «وهل ترجعه إليه الليلة؟».

قال: «لا بد من ذلك، فقد أعطانيه على هذا الشرط».

فتثاقلت جلنار في دفع الخاتم إليه لأنها استأنست به وتنسّمت منه ريح حبيبها، ثم فطنت إلى تثاقلها والضحاك واقف في انتظارها، فدفعته إليه رغم إرادتها، فتناوله وخرج.. وترك الدهقانة وماشطتها في بحور من الهواجس.

سار الضحاك مسرعاً حتى خرج من المعسكر، وقد انتصف الليل وأطل القمر من وراء الجبال. فمضى مسرعاً إلى مكان نزع فيه جبته وغيّر قيافته وحلّ عمامته وتعمم بطريقة خاصة، ومشّط لحيته وشدّ منطقته إلى وسطه وأصلح من شأنه حتى ذهبت عنه هيئة المجون، وولى وجهه نحو معسكر شيبان الخارجي.

وكان معسكر الخوارج وراء معسكر الكرماني في منبسط من الأرض، والخوارج يسعون إلى نزع السلطة من كل مسلم، ويرون أن الحكم لله وحده ـ يقولون ذلك ويطلبون السلطة لأنفسهم، فغرضهم غرض جميع طلاب الخلافة في ذلك العهد وإن اختلفت الأسباب. وكان زعيمهم شيبان قد جاء برجاله وحاصروا مرو قبل مجيء أبي مسلم، ثم جاء الكرماني فتنازعا على مرو.

وكان نصر بن سيار صاحب مرو من أهل الدهاء والحزم، فكان إذا خاف أحد العدوين استعان عليه بالعدو الآخر فلم يستطع أحد منهما أن يتغلب عليه.

وأما الضحاك فكان من أمراء الخوارج، شديد التمسك بمذهبهم. فلما تحقق امتناع مرو على أصحابه وعلِم ما كان من سعي الكرماني في تزويج ابنه من ابنة دهقان مرو، رأى أن يحتال في قتل الكرماني غيلة، وخطر له أن يتنكر ويدخل في خدمة الدهقان ويحبب نفسه إلى الدهقانة حتى تستأنس به، ويكون في جملة مَن يُحمل معها من الخدم والعبيد إلى بيت زوجها، فيتقرب من الكرماني وينتهز فرصة غفلة منه ويقتله، فيشتد أزر الخوارج وينفردوا بغزو مرو فيتم لهم النصر. فاحتال حتى بيع للدهقان فيمن بيع له من الأسرى، وبذل جهده للتقرب من الدهقانة بوساطة ريحانة بما كان يبديه من المجون وخفة الظل حتى وثقت به كل الوثوق وصارت تعهد بأسرارها إليه. وكان يحرض ريحانة على تحبيب ابن الكرماني إلى سيدتها.

وبينما هو يسعى في ذلك جاء أبو مسلم إلى الدهقان ونزل عنده، فاطلع الضحاك على مقاصده وعرف قوته فأعمل فكره في تدبير الحيلة، ثم عهدت إليه ريحانة في السعي لدى أبي مسلم لتزويج الدهقانة به، فرأى أن يستعين بأبي مسلم على قتل الكرماني وابنه على يد جلنار. فحسُن له التظاهر بحبها ونقل إليها خبر رضاه بها من تلقاء نفسه. وأراد أن يستخدم الدهقانة لقتل الكرماني وابنه وغيرهما إذا اقتضت الحال. ثم يتمكن من قتل أبي مسلم إذا ساعدته الأحوال، وإلا فيكتفي بقتل ابن الكرماني ليبقي اليمنية بلا أمير فيحضهم على الاتحاد مع شيبان فينفرد أبو مسلم برجاله الخراسانيين وهم قليلون، فيغلبه الخوارج ويفتحون مرو ويتم لهم ما كانوا يأملونه من إخراج

بني أمية من خراسان والاستقلال بها.

فلما جاء أبو مسلم إلى مرو، وعلم الضحاك ألا بد له من الاستعانة بالكرماني على شيبان ونصر، تظاهر بأنه على رأيه وأشار عليه بالتفريق بين الأميرين وزعم أنه استنبط هذا الرأي ليكتسب ثقة أبي مسلم، توصلاً إلى إغرائه بقتل ابن الكرماني على يد جلنار، وكان في خلال إقامته عند دهقان مرو، وبعد قدومه إلى معسكر الكرماني، يتردد سراً على معسكر الخوارج ويطلع شيبان على ما يدبر. ولذلك ظل شيبان بعد قدوم أبي مسلم إلى مرو هادئاً لا يحارب عملاً بمشورة الضحاك، فإما أن يتحارب أبو مسلم والكرماني فيقضي أحدهما على الآخر فيخلو الجو لشيبان، وإما أن يحتال الضحاك في قتل ابن الكرماني.

وكان الضحاك قد تواطأ مع شيبان في الليلة الماضية على أن يذهب إلى أبي مسلم فيحرضه على قتل ابن الكرماني على يد جلنار، فإذا تأتى له ذلك بعث دعاة الخوارج إلى اليمنية من رجال الكرماني يحرضونهم على الاتحاد معهم لأنهم عرب مثلهم، ويطلعونهم على حيلة أبي مسلم في التفريق بينهم بالكتب التي أرسلها إليهم مع الرسول. وكان شيبان عازماً على مهاجمة مرو في صباح الغد، حالما يعلم بقتل ابن الكرماني. فبعث أمراءه في المعسكر يستحثون الرجال على التأهب، وأمر القصاصين أن يتلوا على الجيش أقوال عنترة وغيره من أشعار الجاهليين في الحماسة والفخر، استنهاضاً للهمم وتحريضاً للجند، على عادة العرب في حروبهم حينذاك.

ـ ٨ ـ

القصاص ورفيقه

جلس شيبان في خيمته ينتظر قدوم الضحاك، فلما أبطأ في

قدومه عليه وقد مضى هزيع من الليل، ضجر وخاف أن يغلب النعاس عليه وعلى أمرائه الساهرين معه. فأمر بعض غلمانه أن يأتيه بقصّاص يتلو عليه بعض الأشعار أو القصص للتسلية. فذهب الغلام ثم عاد يقول إنه سمع قصّاصاً يُنشد أشعاراً حماسية بصوت رخيم ويضرب على الطنبور بأشجى الأنغام.

فقال: «وأين هو؟».

قال: «بالقرب من فسطاط الأمير».

فأصاخ شيبان بسمعه، فسمع نشيداً مطرباً يدوي في ذلك الليل الهادىء تتخلله أنغام الطنبور، فأمر الغلام أن يأتي به، فخرج الغلام ثم عاد ووراءه شيخ طاعن في السن طويل القامة عريض المنكبين، عليه عمامة صغيرة، واسع الصدر، أبيض الشعر وقد غطت لحيته معظم صدره، وعليه عباءة حمراء قصيرة وبيده طنبور يضرب عليه بخفة ومهارة، ومعه رجل قصير القامة على رأسه عمامة كبيرة لها زائدتان عريضتان إحداهما مُرْسَلَة إلى الوراء والأخرى مدلاة على جبينه فوق عينيه كأنه يشكو رمداً فبدا مغمض العينين، إذا مشى تعلق برفيقه القصّاص يلتمس الطريق في أثره وبيده دف صغير ينقر عليه نقراً جميلاً.

وكان شيبان في خيمة كبيرة قائمة على عدة أعمدة، في أرضها بساط كبير قد جلس هو في صدره على وسادة، وبين يديه بضعة أمراء من خاصته. فلما رأى القصّاص داخلاً أمره بالجلوس والإنشاد وأجلس رفيقه، فبدأ هذا بالنقر على الدف نقراً محكماً، وأخذ القصّاص في الإنشاد بما يُطرب الجماد. فأنشد بعض أشعار عنترة، ثم أمره شيبان بأن ينشد أشعار غيره من الجاهليين، فتلا أقوال زهير وطرفة وغيرهما وهو يضرب على الطنبور بما يحرك العواطف

الحماسية، وكلما قال بيتاً حماسياً هاج الأمراء وتحمسوا واستعادوه. وطلب إليه بعضهم أن يقص عليهم قصص حرب البسوس، ويوم ذي قار الذي انتصف فيه العرب من العجم، وغيرهما من أيام الجاهلية المشهورة، فأجابهم إلى كل ما طلبوه سواء أكان قصة أم شعراً أم ضرباً على الطنبور، بينما رفيقه ينقر على الدف نقراً حسناً، ويساعده بالإنشاد وهو مطرق من ألم عينيه. فطرب الجميع ونسوا ما كانوا فيه من ملل الانتظار، وتجمع رجال الحاشية والخدم في الخيمة وحولها حتى تكاثروا واختلطوا.

وبينما هم في تلك الضوضاء، دخل غلام تخطى رقاب الناس حتى وقف بين يدي شيبان وأسرَّ إليه قولاً. فأشار شيبان إشارة تحرك لها كل مَن في المجلس من الأمراء والحاشية ووقفوا وعلت ضوضاؤهم وهموا بالخروج. فوقف القصّاص وأمسك به رفيقه وأرادا الخروج مع الخارجين، فجاءهما غلام وأومأ إليهما أن يذهبا إلى خيمة الحاشية بجوار الفسطاط. فخرج القصّاص ورفيقه ممسك بطرف ثوبه، فرأى في طريقه رجلاً طويلاً دخل الفسطاط فتنحى له الناس واستقبله شيبان بالترحاب وأجلسه إلى جانبه، وهو يقول: «أهلاً بالأمير شبيب».

ولم تمض بضع دقائق حتى خرج الناس من الفسطاط إلا الأمير شيبان والأمير شبيباً وبضعة أمراء آخرين. واتجه سائر الحاشية والأعوان إلى خيمة بالقرب من الفسطاط. وأراد القصّاص أن ينصرف فأمسكه بعض الخدم، وأمروه أن يدخل الخيمة ويُنشد لبعض رجال الحاشية هناك، فدخل مع رفيقه وأخذا في الإنشاد والضرب والنقر. فبعث الأمير شيبان إليهم أن يسكتوا لئلا يشوّشوا عليهم حديثهم، على أن يستبقوا القصّاص إلى ما بعد الفراغ من الحديث، ففعلوا.

فلما خلا شيبان بشبيب ومن ظل في الفسطاط من خاصته، انطلق لسانه بالترحاب وهشّ له واستدناه حتى تماست ركبتاهما وشيبان يقول: «بورك في الأمير شبيب، أرجو أن تكون قد أفلحت فآن لنا الظهور».

فقال: «النجاح لا ريب فيه بإذن الله وببركة الأمير شيبان». قال ذلك وأخرج خاتماً دفعه إليه.

فدُهش شيبان وتناول الخاتم وتفرس فيه، فلما عرفه تبسم والتفت إلى أمير بجانبه وقال: «هذا خاتم الشاب الخراساني، فما قولكم فيمن تمكن من الحصول عليه؟».

فأجاب أحد الأمراء قائلاً: «وماذا ينفعنا خاتمه وهو معسكر أمامنا، وقد اتحد مع هؤلاء اليمنية وقبض على زمام أميرهم ابن الكرماني بعد أن قتل أباه، فإذا اتحدا على صاحب مرو غلباه ولا فائدة من مقامنا هنا».

فضحك شبيب، ووجه خطابه إلى الأمير شيبان وهو يتربع في مجلسه ويده اليمنى على ركبة شيبان واليسرى يحك بها ذقنه، وقال: «لم أخط خطوة إلا وأنا حاسب لها حساباً وأظنني أحسنت التدبير، وسأبدي لكم رأيي ولكم أن تغيّروا فيه». ثم التفت يميناً ويساراً كأنه يستوثق من خلو المكان من الغرباء، فابتدره شيبان قائلاً: «تكلم فإننا في مأمن من الناس، وليس حولنا أحد نخافه على إفشاء سرنا».

فقال شبيب: «لا يهمنا أمر هذا الخاتم إلا بقدر ما نستطيع أن نقتل به ابن الكرماني اليوم أو غداً».

فقال شيبان متعجباً: «اليوم؟».

قال: «قد كنت أتوقع قتله الليلة، ولكنه في حال لا يبقى بها

إلى ما بعد الغد».

فقال أحد الأمراء: «وكيف نقتله وهو محاط بالحراس والخدم؟».

فاعترضه شيبان قائلاً: «نقتله بالدهاء والذكاء. وإذا كنتم تعرفون دهاء الأمير شبيب فلا تستغربوا ذلك منه». ثم التفت إلى شبيب كأنه يلتمس منه إتمام الحديث فقال شبيب: «إذا قتل ابن الكرماني فإن رجاله يكونون معنا على أبي مسلم، لأنهم عرب يمنيون مثلنا يكرهون عرب خراسان ومضر مرو، ولا يجمع كلمتهم الآن إلا أميرهم ابن الكرماني، فمتى قُتل فعليّ (وأشار بإصبعه إلى صدره) أن أجمع كلمتهم تحت قدم الأمير شيبان، ومتى فعلنا ذلك تكاتفنا على قتل أبي مسلم وتشتيت جمعه، ولا ريب أن نصراً صاحب مرو يساعدنا في ذلك أو يلزم الحياد».

فقطع شيبان الحديث وقال: «بل يساعدنا لأنه بعث إليَّ في صباح هذا اليوم يطلب محالفتي».

فقال شبيب: «ولو لم يطلب هو نصرتنا لطلبنا نصرته، وإنما الغرض الأول أن نتخلص من ابن الكرماني، ولا تحسبن التخلص منه هيناً، بل هو يستحيل على سواي، ولذلك حديث يطول شرحه، والأمير شيبان يعرف معظمه». فأمن شيبان على كلامه. فقال شبيب موجهاً خطابه إلى شيبان: «لقد كدت أزهق روحها قبل أن أصل إلى غرضي، فقد جعلت هذه الفتاة المفتونة بحب ذلك الخراساني تعتقد أنه مفتون بها وأنه لا سبيل لها إليه إلا بقتل زوجها ابن الكرماني. ولا شك أنه أكثر هياماً بحب الفتاة منها بحب أبي مسلم، وآمل أن يهلكهم الحب جميعاً. وقد بذلت جهدي في تحريضها على قتل ابن الكرماني بالسم أو ما إلى ذلك إرضاء لحبيبها. وهو في الواقع لا

يحبها، ولكنه مالأني على إظهار الحب تنفيذاً لغرضه كما خدعته أنا بإظهار التفاني في سبيل دعوته لتنفيذ غرضي، وهو يحسب أنه يخادعني ويسايرني ويظنني مخدوعاً مغروراً وهو المخدوع المغرور. والخلاصة أني غررت به حتى دفع إليَّ خاتمه علامة منه لتلك الدهقانة على أنه يحبها، ويريد منها أن تفتك بخطيبها. وقد آنست منها إباء، ولكني سأعيد الكرّة في الغد بحيث لا ينقضي إلا وقد نفذت الحيلة».

فظهرت أمارات الإعجاب على وجوه السامعين، وهم يتطاولون بأعناقهم نحوه ويراعون حركات شفتيه وعينيه لاستيعاب أقواله. ثم أطرق وسكت، كأنه يفكر في أمر خطر له فسكتوا فجأة يتوقعون منه قولاً، فإذا هو يقطب حاجبيه ويرفعهما كما يفعل الحائر ثم التفت إلى شيبان وقال: «بقي أمر لا بد من الرجوع فيه إليكم».

فتوجهت أنظارهم إليه، وقال شيبان: «وما الذي تريده؟».

قال: «لا بد لنا من تمهيد السبيل لجمع كلمة هؤلاء اليمنية معاً، بحيث إذا قُتل أميرهم انحازوا إلينا وتمّ الأمر لنا».

فقال شيبان: «وهل نفعل ذلك قبل مقتل الرجل أو بعده؟».

قال: «يجب أن نمهد السبيل خوفاً من الفشل، وأرى أن يكون ذلك بمخاطبة كبار الأمراء سراً. ولولا اشتغالي بما هو أهم من ذلك لما كلفني تبغيض أبي مسلم إلى اليمنية أكثر من اطلاعهم على حيلته في إلقاء الفتنة بينهم وبين المضرية، وهو الرأي الذي كنت عرضته عليه يوم وصوله كما تعلمون. فإذا اطلعوا على هذا السر مع ما في قلوبهم من الكره الطبيعي للفرس اتحدوا معنا لا محالة، فما قولكم؟».

فصاحوا بصوت واحد: «هذا هو الرأي الأعلى».

فوقف شبيب وهو يتوكأ على كتف الأمير شيبان، وقال: «دعوني أذهب الآن».

فقال شيبان: «إلى أين؟». قال: «إلى أبي مسلم».

قال: «إلى أبي مسلم؟ ولماذا؟».

قال: «لأعيد إليه خاتمه فقد فارقته على ذلك، فيجب أن أصدقه الوعد لتتم الحيلة، ولكي أستمهله ريثما أقتل ذلك المغرور». قال ذلك ووقف، فوقف بقية الأمراء، ثم خرج مسرعاً لا يلوي على شيء، وتركهم وكلهم معجب بتدبيره ودهائه، ولبثوا هنيهة يتشاورون وقد انشرحت صدورهم واطمأنت قلوبهم وأيقنوا بالنجاح. وبدا لهم أن يعودوا إلى سماع القصّاص وموسيقاه، فصفق الأمير شيبان فدخل أحد الغلمان فقال له: «إليَّ بالقصّاص». فخرج الغلام ثم عاد يقول: «لم أجد القصّاص ورفيقه يا مولاي.. وأظنهما ذهبا إلى الرقاد لأني رأيتهما وقد استولى عليهما نعاس شديد حتى ناما والناس جلوس في خيمة الخاصة، فتركوهما نائمين وخرجوا، فذهبت إليهما الآن فلم أجدهما».

قال: «لا أظنهما ينصرفان قبل أن يأخذا مكافأة، ابحث عنهما جيداً حول هذه الفساطيط فقد أطربانا وحق علينا إكرامهما».

فخرج الغلام وعاد ولم يعثر عليهما، فأسف الأمير لذهابهما وأوصى الغلام بأن يتحرى شأنهما في الغد لئلا يتهماه بالبخل. وانفض المجلس وذهب الأمراء إلى مضاجعهم، وظل الأمير شيبان وحده يدبر وسائل الاتصال بالأمراء اليمنية في الغد.

أما شبيب فإنه لما بَعُدَ عن معسكر الخوارج، اختلى لتبديل ثيابه، فعاد إلى ما كان فيه من مظهر المجون، ثم سار تواً إلى معسكر أبي مسلم. فوصل إلى المعسكر وقد انقضى معظم الليل، وأقبل على

المنزل الذي ترك أبا مسلم فيه ولم يستغرب أن يجده مستيقظاً إلى تلك الساعة لعلمه بما هو عليه من السهر على شؤونه واليقظة لتنفيذها. فلما وقف بالباب دخل به الحارس على أبي مسلم، فإذا به لا يزال بلباس النهار، فاحتفل به وبشّ له وناداه قائلاً: «أهلاً بالضحاك، عسى أن تكون قد وفيت بالعهد».

فمد الضحاك يده وتقدم إلى أبي مسلم باحترام والخاتم بين إبهامه والسبابة وقال: «هذا هو الخاتم يا مولاي أدى مهمته، شكراً له ولصاحبه».

فمدّ أبو مسلم يده وتناول الخاتم، وقال: «بل الشكر لك أيها الهمام، هل أرسلت الرجل إلى خوارزم؟». وكانت عادته إذا أراد قتل رجل أن يقول: «ارسلوه إلى خوارزم».

قال: «لم أستطع إرساله الليلة، لأني وجدت الدهقانة مترددة في تنفيذ الحكم لأنها لم تتعود مثل هذه الأمور». وضحك.

فجاراه أبو مسلم في الضحك، وقال: «لا بأس من الانتظار، ولكن هل استوثقت من قيامها بالأمر غداً أو بعد غد؟».

قال: «نعم، فإنها لما رأت الخاتم هانَ عليها كل صعب في سبيل مرضاة صاحبه».

فأظهر أبو مسلم الاستحسان والإعجاب، وأشار إلى الضحاك أن يجلس وقال: «إذا وفّقت إلى ما تقول وفتحنا مرو، كان لك عندنا مقام رفيع ورتبة عالية».

فشكر الضحاك هذا التلطف ولم يجلس، وقال: «إن أسمى ما تتوق إليه نفسي أن أكون حائزاً على رضا مولاي. وإذا أذنت لي في الانصراف الآن ذهبت لإتمام أمرك».

قال: «لا تعجل في الأمر لئلا يفسد علينا تدبيرنا، ولا أظن الدهقانة توفق إلى التنفيذ قبل جلسة أخرى تقنعها فيها بلباقة ومهارة، وهي الآن لا شك نائمة، فالأحسن أن تبيت الليلة عندي فإذا طلع النهار قمت بمهمتك».

فأظهر الطاعة وهو يفضل الذهاب لإتمام ما أبرمه مع شيبان، ووقف لا يحير جواباً، وسكت أبو مسلم وأخذ يخطر في الغرفة ذهاباً وإياباً، فعلم الضحاك أنه يعمل فكرته في أمر مهم، فظل ساكتاً مؤملاً أن يرجع عن استبقائه عنده. وبعد هنيهة وقف أبو مسلم بجانب الضحاك فجأة وألقى يده على كتفه متلطفاً، فاستأنس الضحاك بهذا التحبب وأصاخ بسمعه لما سيقوله أبو مسلم فإذا به يتفرس في عينيه تفرس مستطلع، ثم قال بعبارة ناعمة: «أشاعرٌ أنت حقاً بمنزلتك عندي وعظم ثقتي بك؟».

وكان الضحاك قد أوجس خيفة من تحديق أبي مسلم وصدق فراسته - ويكاد المريب يقول خذوني - فلما سمع منه هذا التلطف سرى عنه وقال: «كنت لا أشعر بذلك وقد أعطيتني خاتمك وعهدت إليَّ بأسرارك».

قال: «لا يزال عندي سر آخر.. هل أكاشفك به؟».

قال: «لك الأمر، أما أنا فطوع مشيئتك».

قال: «اجلس إذن واصغ». قال ذلك وأجلسه ويده على كتفه. فجلس الضحاك وهو يتطاول بعنقه ليسمع ذلك السر الجديد لعله يساعده في غرضه.

فلما جلسا قال أبو مسلم بصوت منخفض: «إنك ولا شك تعلم عدد مَن معي من رجال خراسان، وكلهم طوع بناني، ولكنني لا أثق إلا ببعضهم ولا أسلم سري إلى أحد منهم، وقد خطر لي في

هذه الساعة خاطر أردت أن أستشيرك فيه لما آنسته من إخلاصك وصدق خدمتك ودهائك، وإن كنت تتظاهر بالبله والمجون فأنت أهل للمراتب العالية. وقد حفظت أمر تواطئنا على قتل ابن الكرماني فلم يعلم به حتى خالد بن برمك وسليمان بن كثير، مخافة أن يطرأ ما يفسد علينا تدبيرنا، وقد خطر لي الآن أمر زادني خوفاً من الفشل».

قال: «وما هو يا مولاي؟».

قال: «إذا نحن قتلنا ابن الكرماني، فمن يضمن لنا انصياع رجاله إلينا وهم عرب ونحن فرس. ألا تظنهم ينحازون إلى غيرنا؟».

فتجاهل الضحاك وقال: «وإلى مَن يا مولاي؟ أما انحيازهم إلى نصر فأمر بعيد لأنه قتل أميرهم الكبير».

فقطع أبو مسلم كلامه قائلاً: «أنا أعلم أنهم لا يحبون نصراً، ولكنهم قد ينحازون إلى الخوارج المعسكرين هنا. أصدقني لأنك عربي وتعرف أغراض العرب. ألا تظن أمراء اليمنية يؤثرون العرب علينا؟».

فأطرق الضحاك وقد وقع في حيرة لا يدري بماذا يجيب واستغرب السؤال، ولكنه تجلد وتظاهر بالسذاجة وقال: «أظنهم يفضلون العرب».

قال: «خطر لي خاطر أستنصحك فيه، فإما أن توافقني عليه أو ندفنه هنا لا يعلم به أحد».

قال: «إني طوع أمرك يا مولاي».

قال: «علمت من أصحاب الخبر الذين بثثتهم في معسكر الخوارج منذ قدومي إلى هذا المكان أنهم ينوون محالفة نصر بن سيار صاحب مرو على حربنا وحرب ابن الكرماني، فبدا لي الآن أن أحالف

هؤلاء الخوارج على نصر وابن الكرماني، فإذا قتلنا هذا جعلنا قيادة العرب اليمنية كافة إلى الأمير شيبان، على أن يكون حليفنا على نصر، لأن الهدف الذي نرمي إليه بدعوة الإمام إنما هو إخراج الخلافة من بني أمية، وليس الغرض أن نفتح مرو أو غيرها من مدن خراسان. وهذا سر عميق لو علمت أن طائراً تنسّم ريحه قتلتك وأنت تعلم أني أقتل على التهمة بأمر الإمام».

فتوسم الضحاك من وراء هذا السر خيراً كبيراً يعود عليه، فأقبل على أبي مسلم وقال: «إذا كنت ترتاب في صدق نيّتي فاقتلني حالاً».

فابتسم أبو مسلم وقال: «علمت مكنونات قلبك، ولكن ليطمئن قلبي، فاعلم أننا نرمي من وراء فتحنا مرو إلى إخراجها من سلطان بني أمية، ولا يهمنا مَن يتولاها بعدهم، وإني أخشى من الخوارج أن ينضموا إلى رجال ابن الكرماني بعد قتله فيتبعوننا، ولا سيما إذا حالفوا نصراً صاحب مرو. فهل من سبيل إلى أميرهم شيبان، هل تعرفه أو تعرف أحداً يتوسط بيننا وبينه لنبرم اتفاقاً يقينا شر ما نخافه؟».

فلما سمع الضحاك قوله، استبشر بالفوز وأيقن بنجاح مسعاه من أهون سبيل فقال: «أما الأمير شيبان فإني أعرفه، وهَب أني لا أعرفه فلا أعدم وسيلة إليه. وإذا جاز لمثلي أن يبدي رأياً بين يديّ صاحب دعوة الإمام إبراهيم، فهو أن أهنئك بهذا الرأي السديد، ولا سيما بعد أن علمت الغرض الأساسي من القيام بهذه الدعوة، لأن هؤلاء الخوارج لا يطمعون في أكثر من الاستيلاء على مرو. فإذا كان استيلاؤهم عليها برضاك كانوا عوناً كبيراً لك في سائر الفتوح، ولا يُخفى عليك أنهم يكرهون المضرية أكثر من كرههم الفرس، فإذا

حالفتهم نصروك وخدموك».

فأظهر أبو مسلم الارتياح إلى نصيحة الضحاك، وقال: «علينا إذن أن نتصل بالأمير شيبان. ولكني لا أثق بأحد سواك، فهل أعهد بهذا الأمر إليك؟».

قال: «إذا كنت واثقاً مني فأنا أطوع لك من بنانك».

قال: «لا أثق بأحد سواك فامكث عندنا الليلة، وفي الغد أبعث معك برسالة تذهب بها إلى الأمير شيبان».

فقال: «سمعاً وطاعة».

قال: «فاذهب الآن إلى فراشك في هذه الغرفة. (وأشار إلى غرفة بالقرب من المكان)، وفي صباح الغد أهيىء لك الكتاب».

فأشار مطيعاً وذهب إلى فراشه. واستيقظ في الصباح فإذا بخادم يدعوه إلى أبي مسلم، فهرول حتى وقف بين يديه، فدفع إليه كتاباً مختوماً وقال: «لا أريد أن يطلع عليه أحد من رجالي، فاذهب به من هذا الطريق (وأشار إلى طريق غير الذي اعتاد المجيء منه).».

ـ ٩ ـ
فتح مرو

تناول الضحاك الكتاب وخبّأه، ثم ودَّع أبا مسلم وخرج في لباس المجون من الجبة والعمامة المنحرفة والنعل في يديه، ومشى من وراء الخيام حتى توارى عن أبي مسلم، ثم عرج ليدور من وراء المعسكر وهو يسرع في خطواته، فرأى بضعة فرسان عرف من لباسهم أنهم من رجال أبي مسلم، فتجنبهم مخافة أن يسألوه، ولكنهم ظلوا يركضون أفراسهم نحوه، فما لبثوا قليلاً حتى أحدقوا به. وأشار أحدهم إلى رفاقه فانقضوا عليه، فوقف وسألهم عما يريدون؟

فابتدره رجل منهم ملثم وسأله: «مَن الرجل؟».

فتحيّر ولم يدر بماذا يُجيب، فقال: «إني عابر سبيل».

فقال له: "ليس هذا سبيل للعبور، قل مَنْ أنت وما شأنك؟".

قال: «لا شأن لكم بي فإني سائر في مهمة». ولم يجسر أن يخبرهم عن مهمته.

فهمّ به بعضهم فشدوا وثاقه، وقالوا له: «إما أن تخبرنا عن شأنك، وإما فإنك أسير عندنا».

قال: «سيروا بي إلى الإمام أبي مسلم لتعلموا مَن أنا».

قالوا: «لا نسير بك إليه ما لم تخبرنا».

فصاح فيهم: «إذا لم تسرعوا بي إليه فإنكم نادمون».

فقالوا: «إذا كنت رسولاً فأين الكتاب الذي أنت ذاهب به، وإلا فأنت عدونا».

فطال الجدال بينه وبينهم وهو لا يجسر أن يذكر الكتاب الذي يحمله، فأطاعهم خوفاً على حياته وهو يهددهم بما سيلاقونه من غضب أبي مسلم إذا لم يطلقوا سراحه، فأجابه الفارس الملثم قائلاً: «سأرسل فارساً يطلع الأمير على أمرك، فإذا أمر بإطلاقك أطلقناك».

فرضِيَ الضحاك بذلك وأُذعن لهم فساقوه إلى خيمة على أكمة تشرف على معسكر أبي مسلم، فوقفوا به هناك حيناً وهو يتوقع رجوع الرسول حالاً فشاعت عيناه وهو ينظر إلى المعسكر وقد توارى الرسول عن بصره وراء التلال والخيام، ثم إذا به يرى حركة في معسكر الخراسانيين، وسمع بعدها قرع الطبول ونفخ الأبواق، وتطلع فرأى الخراسانيين على خيولهم وقد شرعوا الأسنة وساروا والأعلام السود

تتقدمهم يعلوها لواء الإمام ورايته، وقد رفعا بضعة أذرع فوق سائر الإعلام. فأيقن أن الخراسانيين يهاجمون مرو، ثم رآهم وقفوا تجاه المدينة فاستغرب وقوفهم. وأجال بصره في مرو، فرأى أعلام ابن الكرماني تخفق على الفرسان اليمنية، وقد ركب رجال ابن الكرماني وقرعوا طبولهم وشرعوا أسنتهم وأقبلوا على مرو من جانب آخر. فظن أن رجال الكرماني لصد الخراسانيين، ثم ما لبث أن رآهم يسيرون نحو المدينة بعزم ثابت والسهام تتطاير فوق رؤوسهم. لم تمضِ ساعة حتى دخلوها من أحد جوانبها، ثم إذا بأبي مسلم ورجاله قد دخلوها من الجانب الآخر فاستغرب الضحاك ذلك وزاد استغرابه حين رأى اللواء والراية قد غرسا بباب قصر الإمارة في وسط مرو، فعلم أن أبا مسلم قد دخلها ثم رأى حامية المدينة يخرجون منها فارين، وعرف من أعلامهم البيض أنهم جند بني أمية. ورأى في جملة الهاربين جماعة من الفرسان عرف من قيافتهم أنهم من كبار القوم، وإذا بأحد الفرسان الواقفين بجانبه يهتف قائلاً: «هذا نصر بن سيار قد خرج هارباً».

فرأى الضحاك شيخاً جليلاً معمماً بعمامة بيضاء كبيرة وقد انبسطت لحيته البيضاء على صدره وهو يهمز جواده طلباً للفرار وحوله بضعة من فرسانه، فتحقق أنه نصر بن سيار ومعه أهله، وأدرك أنه لم يفر إلا وهو لا يرى حيلة في استبقاء المدينة. فلما رأى الضحاك ذلك كله، دُهش ونسِيَ أسره وأعمل فكرته فيما كان يتوقعه من اتحاد اليمنية والخوارج على أبي مسلم، واستغرب عجلة أبي مسلم في الفتح على حين أنهما كانا على موعد من قتل ابن الكرماني قبل الفتح. وظل الضحاك واقفاً مشرفاً على مرو كأنها بين يديه ويراعي حركات الجند، فما لبث أن رأى رجال الكرماني يخرجون من مرو إلى معسكرهم

ومعهم ابن الكرماني نفسه، وقد عرفه من رايته، فاستغرب رجوعه إلى معسكره بعد الفتح، وتذكر جلنار في الحال وعلم أنها في خوف ليس على حياتها ولكن على أن يفي ابن الكرماني بوعده أن يتزوجها بعد فتح مرو. ثم تذكر ما تواطأ هو وأبو مسلم عليه من قتل ابن الكرماني وضمّ رجاله إلى رجال شيبان، وتبادر إلى ذهنه سوء الظن بأبي مسلم وخاف أن يكون قد خدعه، على أنه لم يرَ مسوغاً لسوء الظن.

وفيما هو كذلك رأى فارساً جاء من أقصى مرو يسعى، فعرف أنه الرسول الذي كان قد ذهب إلى أبي مسلم في شأنه عندما قبضوا عليه. ثم تقدم الرسول إليه مهرولاً يقول: «لقد أسأنا إليك وإلى الأمير». وأخذ في فكّ وثاقه، وقال لرفاقه الفرسان: «إن الأمير لما علم بالقبض على هذا العربي غضب غضباً شديداً لأنه كان قد أنفذه في مهمة ذات بال، وهو يقول لكم أكرِموه وسيروا به إليه الآن في قصر الإمارة».

فاطمأن الضحاك لما علم أنهم قبضوا عليه خطأ، وركب جواداً جاؤوه به وسار معهم حتى دخلوا «مرو». فشاهدوا الناس في هرج وأكثرهم فرحون بالفتح لأن جمهورهم من الفرس وكانوا يقاسون العذاب في ظل سلطة العرب المضرية، وكان نصر قد أراد إصلاح ما أفسده أسلافه فلم يستطع وذهب سعيه عبثاً حتى خرجت مرو من يده. كان الخراسانيون قد ملوا حكومة العرب منذ تولاها بنو أمية وأخذوا يسومونهم سوء العذاب، ويولون عليهم العمال ليأخذوا الخراج بأي وسيلة. وكان أهل مرو قبل الإسلام مجوساً ضربت عليهم الجزية، فرغبوا في الإسلام غير مرة وأسلم كثيرون منهم، ولكن بعض العمال كانوا يعدون إسلامهم حيلة للتخلص من الجزية فلا

يرفعونها عنهم ويطالبونهم بها وهم مسلمون، فارتد كثير منهم لذلك مراراً، إلى أن تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز، وكان مسلماً حقاً فبعث إلى عماله ألا يتقاضوا الجزية ممن أسلم. ومن أقواله في كتاب له إلى الجراح عامله على خراسان وقد شكوه: «أنظر من صلّى قبلك، فاعفه من الجزية». فتسابق الناس إلى الإسلام، وقلّت الجزية، فكتب الجراح إلى عمر بذلك فأجابه: «إن الله بعث نبيّه محمداً داعياً ولم يرسله جابياً».

على أن هذه النعمة لم تدم على أهل خراسان لقصر خلافة عمر، فلما قتلوه وولوا من خلفه، عادت الأمور إلى ما كانت عليه.

وصل الضحاك إلى قصر الإمارة والناس يتدافعون عند بابه، وفيهم الدهاقين والتجار والمشايخ والعلماء والصنّاع، وقد اشتد الزحام وعلت الضوضاء، فلما رأوا فرسان أبي مسلم عرفوهم من قيافتهم ووسعوا لهم، فترجلوا، ودخل اثنان ومعهما الضحاك حتى قطعوا صحن الدار إلى الباب الداخلي الكبير، فرأوا الناس يتسابقون إليه والحراس يوقفونهم، وبالباب حارس من رجال أبي مسلم فحالما رأى الرجلين وسع لهما ومعهما الضحاك.

فلما وقف الضحاك بالباب، رأى قاعة واسعة جلس في صدرها أبو مسلم وفوق رأسه راية سوداء وعليه عمامة سوداء وثياب سود، وإلى جانبه خالد بن برمك في مثل لباسه، وبين يديه اثنا عشر أميراً باللباس الأسود عُرف منهم: «سليمان بن كثير، وطلحة بن زريق. وعلم أنهم النقباء الاثنا عشر الذين اختارهم الإمام من السبعين نقيباً الذين قاموا بالدعوة العباسية في أوائلها، فلما دخل الضحاك وقع نظر أبي مسلم عليه فابتسم له وأشار إليه أن يدخل ويجلس على كرسي في بعض جوانب القاعة، فدخل وحده وانصرف

الحارسان، فشاهد في بعض جوانب القاعة ركاماً من البرابط والعيدان وآنية الخمر والمزامير تركها الأمويون في القصر عند فرارهم، فقال الضحاك في نفسه: «تلك آثار الترف الذي يدمر أهله تدميراً».

وكان أبو مسلم في شوراه مع نقبائه، وما لبث أن أشار إليهم فتنحوا جانباً إلا طلحة بن زريق، فظل واقفاً بين يدي أبي مسلم وأشار إلى الحاجب أن يدخل الناس لأخذ البيعة أزواجاً، فدخل الفقهاء والعلماء ثم القواد والكتّاب والأعيان والدهاقين وهكذا، فرآهم الضحاك يدخل أحدهم حتى يقف بين يدي أبي مسلم فيسلم عليه بالإمارة قائلاً: «السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته». ثم ينادي بأعلى صوته ويقول وطلحة يتلو معه نص البيعة: «أبايعكم على كتاب الله وسنّة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، والطاعة لأهل بيت الرسول رضيّ الله عنهم، وعلينا بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعتاق والمشي إلى بيت الله الحرام، وألا نسألكم رزقاً ولا طمعاً حتى يبتدأ به ولاؤكم». فإذا فرغ رجع وتقدم سواه. وكانوا يتسابقون إلى ذلك وأمارات البشر ظاهرة على وجوههم، فتعجب الضحاك من ذلك، واستاء في سره لما رآه من ترحاب أهل مرو بالخراسانيين، وأيقن أن صاحبه شيبان لا يستطيع دخولها الآن إلا إذا حالف أبا مسلم، وهذا لا يكون إلا إذا قتل ابن الكرماني.

مضى معظم النهار في أخذ البيعة ثم وقف أبو مسلم وأشار إلى طلحة أن يأخذ البيعة عنه بين يديّ خالد بن برمك، وتنحى إلى بعض الغرف وأومأ إلى الضحاك فتبعه. فلما دخلوا قال أبو مسلم: «لقد ساءني ما أصابك من جهل أحد رجالي، وقد كنت عازماً على الانتقام منه أمامك لو لم يتفق لنا ما سرّنا في هذا النهار. ولعلك تستغرب فتح

المدينة بمثل هذه السرعة على حين أنني كنت عازماً على التأجيل بضعة أيام ريثما يتم اتفاقنا مع الأمير شيبان. ولكن سنحت لي في هذا الصباح فرصة خفت ضياعها، ونجحت».

وكان الضحّاك جالساً على ركبتيه احتراماً لأبي مسلم، ومع ما آنسه من انعطافه وإقباله عليه أثناء الحديث بقي متهيّباً أياه، يظهر إصغاءه واهتمامه بمراعاة حركة فمه، لأنه لم يكن يستطيع التفرّس في عينيه لحدتهما ولما ينبعث من نورهما الباهر وقوتهما الغالبة على الأبصار والعقول. فلما انتهى أبو مسلم من كلامه، أظهر الضحاك رغبته في سماع تتمة الحديث فقال أبو مسلم: «أما سبب هذه العجلة فإن ابن الكرماني بعث إليَّ في صباح اليوم بعد ذهابك رسولاً يقول: (لقد آن فتح مرو فادخل أنت ورجالك من ناحية، وأدخل أنا ورجالي من ناحية أخرى، فنتسلم المدينة على أهون سبيل). فظننته يخادعني فبعثت إليه: (لست آمن من أن تجتمع يدك ويد نصر بن سيار على محاربتي، ولكن أدخل أنت فابدأ الحرب مع أصحاب نصر. ثم أدخل أنا). وقلت في نفسي: (إذا كان قد فعل ذلك حيلة فلا يطيعني وإلا فليحمل الخطر وحده). فنهض برجاله وأنشب الحرب، فأرسلت أنا بعض رجالي ودخلوا المدينة من ناحية أخرى ففتح علينا، فدخلت القصر وأمرت ابن الكرماني ورجاله بالخروج منها إلى معسكرهم لكي نتمكن من مشروعنا الذي تعلمه».

فذُهل الضحاك لبأس ذلك الرجل ودهائه، ونسِيَ ما كان يتكلفه من الضحك في تماجنه، ولكنه خشِيَ أن يخاله أبا مسلم شك في أمره، فتضاحك وقال: «إنه لمشروع عظيم القدر، فهل أنت مُصرّ عليه؟».

قال: «أين كتابي إلى شيبان؟».

فمدّ يده وأخرجه ودفعه إليه، فقال أبو مسلم: «إني لا أزال مصرّاً وربما زدت إصراراً بعد فتح مرو على يد ابن الكرماني، فإنه قد ارتفع في عيني نفسه فيظن له فضلاً علينا فتحدثه نفسه أن يتحدانا. ولذلك فإني لا آمنه ولا بد من قتله لئلا يكون حجر عثرة، وقتله سهل عليك بوساطة تلك الفتاة المفتونة. فإذا قتلته خلسة سعينا في ضم رجاله إلى رجال الأمير شيبان ثم أسلم إليه قيادة هذه المدينة وأمضي في عملي، إلا إذا كنت لا تثق بهذا الحروري وتخاف أن يخوننا إذا سلمنا الأمر إليه».

قال: «لا خوف منه فإن عاهد وفى، ولا سيما بعد أن ملكت ناصية الأمر وبايعك الناس».

فقطع أبو مسلم كلامه، وقال: «ألم تلحظ أن البيعة كانت لأهل بيت النبي عامة لا لبني العباس، لأن الناس لم يعرفوا لبني العباس الحق في الخلافة بعد، وإنما هم يعرفونه لآل أبي طالب، ولذلك جعلنا البيعة مشتركة فمن فاز من الرهطين استأثر بالخلافة. فهل يؤخر هذا الأمير شيبان عن محالفتنا». قال: «كلا يا مولاي..».

فقال: «فابدأ إذن بقتل ذلك الأعور كما وعدتني، ولا تظن أحداً ينال من المقام عندنا ما ستناله، وسأطلع الإمام على فضلك».

قال: «إني لم أقم إلا ببعض ما يجب، ولا أتوقع جزاء غير رضاك».

قال: «هل تقتله الليلة؟». قال: «سأبذل جهدي».

قال: «أريد أن يكون قتله سراً بحيث يظن رجاله أنه مات موتاً طبيعياً».

قال: «اطمئن يا مولاي». ونهض الضحاك وحيّا، ثم هَمّ

بالخروج، فوقف أبو مسلم لوداعه وقال له: «عرج بإبراهيم الخازن لعله ينفعك في هذه المهمة». فلما سمع اسمه تذكر الليلة التي لقيَه فيها في بيت الدهقان وهو يعلم مكره وضعف ذمامه فقال: «أين هو؟». فأشار أبو مسلم إلى غرفة أخرى، فسار الضحاك إليها.

تركنا جلنار بعد ذهاب الضحاك جالسة في فراشها ملتفة بالمطرف غارقة في لجج الهواجس، تفكر فيما سمعته منه، وكلما تصورت إقدامها على قتل زوجها ارتعدت فرائصها واقشعر بدنها. وكانت ريحانة تلاحظ اضطرابها ولا تلومها لعلمها بهول الموقف على فتاة مثلها. ثم غلب عليها النعاس فنامت، ولم تستيقظ في الصباح إلا على قرع الطبول ونفخ الأبواق، فذُعرت ونادت ريحانة لتستفهم عما حدث فقالت لها: «إن الجند يتأهبون للهجوم على مرو». فخفق قلبها وتوكأت على ريحانة حتى أطلت من الخباء، فشاهدت مثل ما شاهدته في المرة الماضية، وكانت قد ألِفت المنظر فلم يكن خوفها مثله في تلك المرة. ثم ما لبثت أن رأت ابن الكرماني قادماً نحوها وهو مدجج بالسلاح وسيفه مجرد بيده، فلما رأته مقبلاً توارت حياء فناداها وصاح قائلاً والسيف بيمينه: «أبشري أيتها الدهقانة إننا فاتحون مرو اليوم وسنبيت الليلة في قصر الإمارة إن شاء الله».

فخجلت وساءتها البشرى، فتراجعت واستترت وراء ريحانة، فأجابت ريحانة قائلة: «نصرك الله على أعدائك وبلغك مرادك».

فاكتفى عليّ بذلك وهجم ورجاله في أثره، فلما بعدوا قالت ريحانة لسيدتها بالفارسية: «إني أرى الخراسانيين أيضاً هاجمين». فأطربها ذكر الخراسانيين لأن أبا مسلم فيهم، وتقدمت بحيث ترى ذلك الجند فإذا هم يزحفون على مرو من الجهة الأخرى. فقالت: «إذا فتحوا مرو فإنما يفتحونها ببسالة أبي مسلم، أين هو يا ترى؟».

فتطاولت ريحانة وجعلت تحدق ينظرها في الجند حتى وقع بصرها على الراية واللواء وهما يناطحان السحاب علوّاً فقالت: «ينبغي أن يكون أبو مسلم هناك». فحدقت جلنار ببصرها فرأت أبا مسلم وعرفته من طوله ولون فرسه ولباسه الأسود فتهلل وجهها فرحاً، ولكنها ما لبثت أن أوجست خيفة عليه من النبال المتساقطة.

ثم رأت عليّاً دخل مرو من ناحية ودخل أبو مسلم من ناحية أخرى، فتحققت فوزهما، ولم تدر أتفرح بذلك الفتح أم تحزن، لأنها تذكرت وعد ابن الكرماني أنه لا يتزوج بها إلا إذا فتح المدينة، وتذكرت قول ريحانة أنه لا يستطيع فتحها، فالتفتت إليها وقالت: «كم قلت لي إنه لا يقوى على فتح هذه المدينة، وها قد فتحها! ويلاه! لقد دنا أوان الخطر». قالت ذلك ورجعت إلى غرفتها وجلست على الفراش وانفجرت باكية، وتبعتها ريحانة وأخذت تخفف عنها، فقالت جلنار: «أين هو الضحاك يا ترى؟ لعله يستطيع تخفيف ما بنا؟».

فقالت ريحانة: «لا يلبث أن يأتي وعنده الدواء الناجع لهذه الكارثة!».

فأدركت جلنار أنها تعرض بقتل ابن الكرماني، فقالت: «ولكنه دواء أمَرّ من العلقم ولا يمكنني شربه. كيف أقتل رجلاً يحبني وإن كنت لا أحبه».

وآن وقت الغداء فتناولتاه وهما تتوقعان أن يبعث عليٌّ إليهما بالانتقال إلى قصر الامارة، وإذا هما تسمعان دبدبة وصهيلاً وضوضاء، ثم علمتا أن جند الكرماني رجع عن مرو بعد فتحها فبقيت لأبي مسلم وحده. ولم تفهما السر في ذلك، فمكثتا تنتظران ما يكون، وجلنار وجلة قلقة.

فلما رأت ريحانة قلقها، قالت: «لا أدري لماذا تكرهين ابن الكرماني

وهو يتفانى في هواك ويجل مقامك، وقد أوتي النصر بفتح هذه المدينة وانتقم لأبيه؟!».

فأسرعت جلنار ووضعت يدها على فم ريحانة كأنها تمنعها من الكلام اشمئزازاً واكتفت بذلك جواباً. فأدركت ريحانة أنها لا تود الخوض في هذا الموضوع، فسكتت وقد أخذتها الحيرة لا تدري كيف تنقذ سيدتها من هذه المشكلة. فتركتها في الغرفة وخرجت لتستطلع أحوال المعسكر بعد فتح مرو، فوجدت الخيام لا تزال في أماكنها وقد أُعيدت الخيول إلى مرابطها وغرست الأعلام في مغارسها، وتطلعت إلى فسطاط الأمير عليّ فإذا هو لا يزال كما كان والراية منصوبة ببابه وأمامه وفود المهنئين والمنشدين. وسَرّها عَوْد ابن الكرماني إلى مضربه لأنها كانت تظنه سيبقى مع أبي مسلم في قصر الإمارة فاطمأن بالها. وكانت الشمس قد مالت نحو المغيب، فالتفتت إلى ناحية مرو فرأت جماعة من الباعة خرجوا منها وفيهم مَن يحمل فاكهة أو طعاماً أو ألعاباً ليتكسبوا ببيعها في ذلك المعسكر، بعد أن زال الحصار عن المدينة، وشاهدت بين الخارجين رجلاً طويلاً قادماً نحو الخباء، فما لبثت أن عرفت أنه الضحاك فاستبشرت بقدومه، وأرادت أن تُسرع إلى سيدتها فأشار إليها أن تقف فوقفت.. حتى إذا دنا منها أومأ إليها فدخلت معه الخباء دون أن يراهما أحد، فقالت: «ما وراءك؟».

قال: «هل من حيلة لنا في النجاة من ابن الكرماني غير قتله، لقد فتح مرو، وحقّ له الدخول بعروسه، إلا إذا كانت مولاتنا تؤثر الاقتران به، وهذا يرجع إلى رأيها».

قالت: «إنها لا تستطيع ذكر الاقتران به، ولكنها في الوقت نفسه لا تتصور الإقدام على قتله!».

قال: «وأنت أيضاً جبانة مثلها؟».

قالت: «أتريد أن أقدم على قتله، وكيف أقتله؟».

فضحك وتماجن وقال: «وهل القتل صباغة أو تطريز؟ ليس أسهل منه على الإنسان، ولا تظني أن المراد قتله بالمبارزة أو المطاعنة وإنما هي حسوة أو لقمة وقُضِيَ الأمر».

فسكتت ريحانة ولم تدر بماذا تجيبه، ولكنها صعدت كتفيها كأنها تقول: «هذا لا يعنيني».

فقال الضحاك والاهتمام بادٍ في وجهه: «لا ينبغي أن نطاوع مولاتنا الدهقانة في ضعفها، فإنها لا تعلم شيئاً من أمور هذه الدنيا. وهي مع ذلك تريد الوصول إلى أبي مسلم، والوصول إليه لا يكون إلا بالنجاة من ابن الكرماني. وقد أتيتها بخاتمه تدليلاً على رغبته، فهي الآن أحوج من أبي مسلم إلى قتله لأنه زوجها وقد قيدناه بعهده ألا يقربها إلا بعد فتح مرو، وها قد فتحها وتوافد عليه الشعراء والمهنئون وبلغ قمة مجده، فهل من سبيل إلى دفعه إلا بالموت؟ وهل يتم ذلك إلا بقتله سراً». ثم سكت وحك ذقنه بسبابته، ثم حك ما وراء أذنه وقال: «لا أكلفك ولا أكلف الدهقانة أن تتولى الأمر مباشرة.. فأنا أدبر الحيلة، ولكن ينبغي أن يكون ذلك في حضرتكما وأنا أسقيه الكأس بأسلوب لطيف. والأجدر أن تطلعي الدهقانة على هذا العزم. إنما أطلب إليك أن تسهلي لي الوصول إليه بحيث لا يعلم أحد بقصدي؟».

فظلت ساكتة لا تعلم بماذا تجيبه، ولكنها كانت أصبر على هذا الأمر من جلنار، وقد خبرت الدنيا طويلاً.. على أنها ما زالت مرتبكة لا تدري هل توافق الضحاك بغير استئذان سيدتها. فلما رآها الضحاك ساكتة ولاحظ ترددها، قال لها: «قد فهمت ما يجول في خاطرك، لا تخافي. سيجري كل شيء ولا يشعر به أحد، فاكتمي

هذا الأمر عن الدهقانة وسترين كيف أقوم بمهمتي بلباقة وخفة». قال ذلك ومشى وهو يقول: «سأعود قريباً، واحذري من أن تبوحي بذلك إلى أحد».

فعادت ريحانة إلى سيدتها وهي تفكر فيما عسى أن تكون حيلة الضحاك وأسلوبه، ولما دخلت على سيدتها سألتها عما كانت تعمله فأخبرتها بما شاهدته من بقاء معسكر ابن الكرماني على حاله بمرابطه وفساطيطه وسائر أحواله، وإن علِياً في فسطاطه. وحدثتها نفسها بأن تبوح لها بما قاله الضحاك، ثم أمسكت وسكتت لترى ما يكون.

عاد ابن الكرماني بعد فتح مرو إلى معسكره عملاً بمشورة أبي مسلم، وعاد معه الأمراء اليمنية وقد سرّهم الفتح بعد أن أبلوا فيه بلاء حسناً. ثم ذهب إلى فسطاطه ليبدل ثيابه ويستقبل المهنئين، وجال في خاطره أن يذهب لساعته إلى جلنار ليريها نفسه عائداً من الفتح ويخبرها بأنه انتقم لأبيه ووفى بالوعد. ولكنه أجّل ذهابه إلى ما بعد استقبال المهنئين والمنشدين في فسطاطه لئلا يتبعوه إلى هناك، فجلس في صدر الخيمة وجلس أمراؤه بين يديه وهم يعجبون ببسالته، وكل منهم يذكر ما لقيَه أثناء المعركة من الوقائع الغريبة. ثم أذن للشعراء فدخلوا وأنشد كل منهم ما جادت به قريحته. فإذا فرغ أحدهم من الإنشاد أشار الأمير إلى كاتبه أن يعطيه منحة، على العادة الجارية، وفيهم مَن يُنشد قصيدته على الأنغام الموقعة على الطنبور أو العود أو الدف. وقضوا في ذلك بقية يومهم إلى ما قبل الغروب، وقد طربوا جميعاً إلا علِيّاً فقد نغصه غياب جلنار وود لو أنها هناك لتسمع ما قيل فيه من المديح.

وفيما هو في ذلك سمع ضجيجاً يتخلله دف ينقرون عليه نقراً خاصاً بالرقص. ثم دخل غلام يستأذن الأمير في دخول راقص

مضحك معه دب غريب الشكل، وكان الغلام يستأذن الأمير ولا يتمالك عن الضحك كأن الإعجاب أخرجه عن حد الاحتشام في حضرة الأمراء. فقال الأمير: «يدخل».

فدخل رجل طويل القامة عرف الأمراء كلهم أنه الضحاك خادم الدهقانة، وكانوا يستخفون دمه ويضحكون لرؤيته. فلما دخل ألقى التحية وتماجن، فلم يتمالك الأمير عن الضحك وصاح فيه: «ويلك، متى صرت رقّاصاً».

قال: «عندما فتح مولاي الأمير مرو عاصمة خراسان، فقد نذرت منذ صرت من أتباعه أن أرقص يوم الفتح وقد جئت لأَفي بنَذري».

فضحك الأمير وقد سَرّه أن يسمع المديح من رجل ينتمي إلى الدهقانة. وكم من بطل خاضَ المعامع واستقبل النبال وعرّض نفسه لأشد الأهوال التماساً لابتسامة حبيب يحبه، تلك هي لذة النصر في أعلى درجاتها. وأراد عليٌّ أن يسأل عن الدهقانة ثم احتشم لوجود الأمراء، ولكنه استأنس بالضحاك كثيراً وقال: «هل أنت الرقّاص حقاً؟».

قال: «كلا يا مولاي، ولكن معي دبّاً يرقص رقصاً غريباً».

قال: «أين هو؟».

قال: «بالباب». وصاح: «ادخل يا مبارك».

فتوجهت أنظار الجميع إلى الباب، فسمعوا خشخشة الجلاجل والأجراس. ثم دخل الغلام يقود رجلاً بحبل في عنقه وعلى الرجل جلد دب يكسو صدره وساقَيه إلى القدمين ويغطي ساعديه إلى الكتفين، وقد ستر وجهه بوجه دب حتى لا يشك الناظر إليه في أنه دب حقيقي، وشد برجليه ويديه أجراساً، وجعل حول عنقه

جلاجل.

فلما دخل الغلام سلّم المقود إلى الضحاك، فتناوله وجرّ الدب بعنف، فدخل وأخذ في الرقص وهو يزمجر ويثب كما يفعل الدب تماماً. فلم يبق أحد من الجلوس إلا أغرب في الضحك، والضحاك يتفنن في أساليب المجون. فلما تمكن الطرب من الأمير احتال الضحاك للاقتراب منه، وقال بحيث لا يسمعه سواه: «لا ينقص هذا المجلس إلا الدهقانة».

فلم يتمالك الأمير عند سماعه ذلك أن صاح: «يا ضحاك خذ هذا الدب وأرقصه في الخباء، وأنا قادم إليكم». قال ذلك ووقف وقد استخفه السرور وهاجت عواطفه وأسكره النصر، فوقف الأمراء احتراماً. فمشى حتى خرج من الفسطاط والضحاك يسير بالدب أمامه وقد خيّم الظلام، ولم يجسر أحد من رجال ابن الكرماني أن يتبعه إلى الخباء، فمشى وحده وقد التفّ بعباءة من حرير وعلى رأسه عمامة صغيرة مزركشة زركشة جميلة، وسار مختالاً في مشيته، حتى إذا أقبل على الخباء تنحى الضحاك ودبه كي يمر الأمير فدخل وهو يقول: «أين عروسنا الدهقانة؟».

فتقدمت ريحانة وجلنار إلى جانبها وعليها مطرفها، وقد غطت رأسها بخمار من نسيج كشمير وردي اللون، وعيناها تتلألآن من خلال الخِمار، والحياء يغالبها ويزيدها فتنة وجمالاً. فلما وقع بصره عليها، حيّاها وقال: «لقد جئتك ضاحكاً لأني انتقمت لأبي وغلبت صاحب مرو على مدينته، ففرّ فرار الأنذال وسوف أقتله بإذن الله».

فأجابته ريحانة وهي تبتسم: «لقد كنا على يقين من فوز الأمير على عدوّه لما نعلمه من بسالته وشدة بطشه، فنحمد الله على ذلك».

ثم أشار الأمير إلى الدهقانة بالجلوس وهو يقول: «وغداً ندخل

قصر الإمارة».

فجلست جلنار مطرقة لا تتكلم، فكان سكوتها أفصح من الكلام، وظلت ريحانة واقفة، فجلس الأمير وأشار إليها أن تجلس، فتنحت وأرادت الجلوس في بعض جوانب الغرفة، فأمرها أن تجلس بالقرب من سيدتها، ثم صفق ونادى الضحاك فدخل وهو يقود الدب وراءه. فلما رأت ريحانة الدب لم تتمالك عن الضحك لغرابة منظره، فوقف الضحاك والدب بجانبه، ثم أمره عليٌّ أن يرقّصه، فجرَّه بالمقود فلم ينتقل من مكانه فصاح فيه: «ارقص ولا تخجلنا بين يديّ الأمير». فلم يتحرك.

فضحك الضحاك حتى كاد يستلقي، والتفت إلى الدب وقال له: «كأنك تستحيي أن ترقص أمام النساء».

فلم يبقَ أحد هناك لم يغرب في الضحك ولا سيما ابن الكرماني فإنه قهقه قهقهة عالية، فتظاهر الضحاك بالغضب من الدب وشده ثانية فظل واقفاً كأنه صخر، فتقدم نحوه ووضع أذنه على فمه كأنه يتلقى أوامره سراً، وصبر هنيهة ثم تراجع وهو يضحك ويقول: «لم أكن أعلم أن الدب يشرب الخمر قبل الآن».

فالتفت ابن الكرماني إلى الضحاك وقال: «قد يكون اعتاد المسكر من صحبة رجال بني أمية في مرو، فقد رأينا في قصورهم مئات من آنية الخمر على أنواعها، وأما نحن فلا نشرب غير النبيذ فاسأله هل يريد نبيذاً؟».

فعاد الضحاك إلى مسارة الدب، ثم تحول عنه وقال: «لقد رضي بالنبيذ ليس ذلك غريباً؟ وأغرب منه أنه لم يطلب النبيذ إلا في الخباء». وضحك.

فقال ابن الكرماني: «يظهر أن دبك ألطف ذوقاً منك، وليس

النبيذ محرماً ولا سيما في مثل هذا المجلس، هات النبيذ يا غلام».

ولم تمض هنيهة حتى جاء الغلمان وهم يحملون مائدة عليها أصناف من نبيذ التمر والتفاح وغيرهما في أباريق الرصاص وحولها الأقداح من الزجاج الصافي الملوّن، وأوعز ابن الكرماني إلى الساقي أن يُدير الأقداح على الحضور. فجاء غلام ممنطق بمئزر من حرير وتناول قدحاً صبّ فيه نبيذاً وقدّمه إلى الأمير، فتناوله وقدمه إلى الدهقانة فاعتذرت عن شربه فألح عليها فشربت بعضه وأعادته إليه فشربه، وأمر الساقي أن يصب ويسقي الضحاك ودبه ففعل. ولما تقدم إلى الدب أعرض هذا عنه، فتقدم الضحاك يقول: «لقد بالغ دبنا في الدلال الليلة، هات القدح». وأخذه من الساقي وقدمه إلى الدب، فتناوله بكفه الغليظة وشربه وأعاد القدح إلى المائدة وهو يخطو خطوات الدب المعروفة والجميع يضحكون. ثم عاد إلى مكانه وأخذ في الرقص من تلقاء نفسه وأجاد وأبدع، والضحاك يطاوعه في تنقله كأنه يرقص معه. ثم وقف الدب فجأة، فقال الضحاك: «لا ينبغي لنا أن نغفل طلب صاحبنا». وأسرع إلى قدح ملأه نبيذاً وقدمه إليه. فتراجع ولم يمد يده فصاح فيه: «ما الذي تريده لقد أتعبتنا دلالاً».

فتقدم الدب نحو المائدة ومد يده إلى الإبريق فقبض عليه وجعل يصب في الأقداح حتى ملأها، والناس ينظرون إليه وقلوبهم تخفق خوفاً على المائدة وما فوقها من «لباقة» الدب، فإذا هو قد ملأ الأقداح ولم يخطىء في واحد منها. ثم أخذها قدحاً قدحاً وقدمها إلى الحضور فشربوا وهم مسرورون وشرب هو أيضاً، واستحسنوا لباقة هذا الساقي. فصاروا يطلبون منه أن يسقيهم فسقاهم مراراً، وجلنار لا تشرب إلا قليلاً. ثم أمسكت عن الشراب، فظل الشرب مقصوراً على الأمير والضحاك والدب حتى انقضى هزيع من الليل وهم في

ذلك، وقد أخذ الطرب من الأمير مأخذاً عظيماً. وعند ذلك تظاهر الدب بالسكر وأفلت من يد الضحاك وخرج من الخباء والقدح بيده، فتبعه الضحاك وتظاهر بمراودته وأرجعه إلى الخباء والقدح لا يزال في يده، فتقدم نحو الأمير فدفعه إليه وأخذ في الرقص. فتناول الأمير القدح وشربه كالعادة، ثم صب الدب قدحاً وقدمه إلى الضحاك فتناوله وشربه ثم صاح فيه: «ويلك لقد أكثرتَ من الشرب وأصبحت خائفاً على نفسي منك. وأخاف ألا يكون الأمير متعوّداً الشرب الكثير فيضره، فإني مع تعودي النبيذ أعواماً أراني أشعر بدوار شديد». قال ذلك وتظاهر بالسقوط على الأرض وبأن الدوار غلب عليه وأحس بالميل إلى القيء، فتنحى وخرج من الخباء وتقايأ ثم تقيأ كل ما في جوفه غصباً والأمير يضحك منه ويقول: «إن لا أشعر بالدوار مطلقاً».

وكان الضحاك قد ترك الزمام عند خروجه، فأفلت الدب وخرج من الخباء وأركن إلى الفرار. فأغرق الأمير في ضحكه، ودخل الضحاك دخول المدهوش وصاح: «أين الدب الملعون، يظهر أنه فرّ، فوالله لأدركنه وأذيقه العذاب». قال ذلك وأشار إلى ريحانة إشارة خفية وخرج.

فأدركت ريحانة أن الضحاك قد أنفذ حيلته وسقى الأمير سمّاً، فنهضت متظاهرة بالدوار وقالت للأمير: «أرى مولاتي الدهقانة قد تأذت من الشراب أيضاً». وأمسكتها بيدها وقالت: «أرى أن تذهب إلى فراشها، هل يأمر مولاي بالانصراف؟».

فنهض وقد شعر بالدوار أيضاً، ولكنه تجلد وتظاهر بالقوة ووقف وهو يقول: «فلننصرف جميعاً».

وصفّق فجاءه الغلمان وأسندوه وخرجوا به من الخباء إلى

فسطاطه وذهبت ريحانة بالدهقانة إلى غرفة الرقاد. واشتغل الخدم في نقل آنية النبيذ من الخباء، فلم تمض ساعة حتى خلا الخباء من الأمير وغلمانه.

فلما خلت ريحانة بسيدتها ظهر عليها الاضطراب، فاستغربت جلنار ذلك منها فقالت وهي تتوسد الفراش: «ما لي أراكِ مضطربة يا ريحانة؟».

فأجابتها بالفارسية وهي ترتعد من التأثر وتحاول خفض صوتها: «أظنهم سمّوه يا مولاتي».

فأجفلت جلنار وجلست تقول: «سمّوه؟.. قتلوه؟».

قالت: «نعم، ألم تنظري إلى الدب كيف تظاهر بالسِكْر وخرج من الخباء ثم عاد والقدح في يده؟». قالت: «بلى».

قالت: «أظنه خرج ليضع السمّ في ذلك القدح.. وفي صباح الغد يظهر فعله ونسمع بموت ابن الكرماني».

فاقشعر بدن جلنار وصارت ترتجف من الخوف، فابتدرتها ريحانة قائلة: «لا تستسلمي إلى الضعف.. فإن هذا أوان التعقل والدهاء وقد قُضِيَ الأمر الذي كنا نخافه».

فارتبكت جلنار وأعظمت الجريمة، على أنها كانت وهي في اسوأ حال من الاضطراب تشعر بفرح داخلي عميق لنجاتها من ابن الكرماني وتقرّبها من حبيبها.

فأخذت ريحانة تخفف عنها وتمنيها بقرب الاجتماع بحبيبها حتى سكن روعها وتظاهرت بالرقاد ولكنها لم تستطع نوماً.

أما أبو مسلم فكان ساهراً في قصر الإمارة ينتظر عاقبة ما بيّته لابن الكرماني وللضحاك معاً بوساطة إبراهيم الخازن. فقد رأينا أنه

أوعز إلى الضحاك أن يستعين بإبراهيم الخازن على قتل ابن الكرماني، فسار إليه واتفقا على أن يلبس إبراهيم جلد دب ليتمكن من دسّ السم لعليٍّ في القدح. ولكن أبا مسلم أوصى إبراهيم بأن يقتل الضحاك أيضاً. وكان قد كلّفه كشف حقيقة الضحاك ليلة ذهابه إلى شيبان، فرافق القصّاص وحمل الطنبور وتظاهر بالرمد وأسدل طرف العمامة على عينيه لئلا يفطن إليه أحد. ولما كا شيبان وشبيب يتساران، كان إبراهيم وراء خيمة شيبان يتظاهر بالنعاس، وقد سمع كل ما دار بينهما ونقله إلى أبي مسلم في تلك الليلة. فلما عاد الضحاك ليلتئذ خادعه أبو مسلم برغبته في محالفة شيبان، ريثما يتمكن من قتل ابن الكرماني على يده ثم يقتله. ولما أوصاه باصطحاب إبراهيم، أمر هذا بقتله فوضع له السم في قدحه كما فعل بابن الكرماني. ولكن طول أجله ساقه إلى تفريغ ما في معدته، وهو إنما فعل ذلك لتنطلي حيلته على ابن الكرماني ويدفع التهمة عنه، فنفعه ذلك إذ أخرج السم من جوفه قبل أن يؤثر في معدته. أما إبراهيم فظن أنه قام بمهمته، فطرح عنه جلد الدب وهرول مسرعاً إلى أبي مسلم ليزف إليه النبأ، فوجده ساهراً في انتظاره فلما أخبره بما كان سر أبو مسلم وأثنى عليه ووعده بالجوائز الحسنى.

وأما الضحاك فقد كان متفقاً مع إبراهيم على دسّ السم في قدح ابن الكرماني، وأن يخرجا ليلتقيا في طرف المعسكر ويذهبا معاً إلى أبي مسلم، فلما رأى أن إبراهيم أفلت، ظن أنه فعل ذلك عمداً على أن ينتظره في المكان المتفق عليه فأسرع في أثره. ولكنه شعر في أثناء الطريق بطعم غريب في فيه، وأحس بانحطاط في قواه، فنسب ذلك إلى تأثير الشرب، وخطر له أنه ربما أصابه شيء من السم خطأ منه، فعزم على سؤال إبراهيم. ولما وصل إلى طرف المعسكر لم يجده،

فساء ظنه به ووقف يفكر فيما حدث في هذين اليومين، فأدرك أن أبا مسلم خدعه وسايره حتى نالَ مراده بقتل ابن الكرماني ثم أراد قتله هو ليتخلص منه. لكنه لم يرَ سبباً يدعوه إلى ذلك لظنه أن أبا مسلم لا يعلم أنه من أمراء الخوارج. فرأى أن يذهب إلى أبي مسلم ويلقاه على حذر، فسار إلى قصر الإمارة حتى إذا أقبل على باب القاعة سأل الحارس عن الأمير فقيل له إنه في غرفته، فهمّ أن يستأذن في الدخول عليه، ثم وقف يفكر، وكان الحارس قد عرفه بالأمس ورأى ما كان من احتفاء أبي مسلم به، فجلس الضحاك إليه وأخذ يمازحه ويحدثه حتى اطمأن إليه. فسأله عن الأمير ومَن عنده، فقال: «عنده خازنه اليهودي».

قال: «ألا يزال يهودياً حتى الآن؟».

قال: «يتظاهر بالإسلام والإسلام بريء منه، فإن هؤلاء اليهود فرحوا بالإسلام لأنه نجّاهم من ظلم الأكاسرة والقياصرة وأكسبهم الأموال من العرب لأنهم يعدونهم أبناء عمومتهم».

قال: «وهل إبراهيم مع أبي مسلم الآن أم خرج من عنده؟».

قال: «أظنه لا يزال عنده إذ لم يمض على دخوله زمن طويل».

قال: «فهو مشغول الآن».

قال: «وهل تريد أن تلقاه؟».

قال: « لا، ولكنني كنت قد جئت أثناء النهار لأكلمه في أمر، فبعد أن جلست في هذه القاعة دخل بي إلى غرفة أخرى من باب آخر. وقد تركت هناك كتاباً كان معي، وضعته قرب مجلسي ونسيته حينما نهضت، فهل تظنني أجده في مكانه».

قال: «ينبغي أن يكون هناك، هل أبحث لك عنه؟».

قال: «لا يصح وأنت حارس أن تترك الباب، أما إذا أذنت لي فإني أدخل للبحث عنه ثم أعود لأني أعلم بمكانه منك».

قال: «ادخل واحذر أن تحدث صوتاً يشعر به الأمير».

قال: «اطمئن». وخلع نعليه فتأبطهما ودخل القاعة، فمشى نحو الغرفة التي علِم أن أبا مسلم فيها مع إبراهيم. فلما دنا من بابها سمع أبا مسلم يقول: «هل أرسلتهما حقاً إلى خوارزم؟».

قال إبراهيم: «قد أرسلتهما إلى خوارزم تنفيذاً لأمرك، وأظنهما الآن في عالم الأموات!».

قال: «أخشى أن تكون أخطأت ونسيت الحروري الذي كان يحسب أنه نجح في خداعنا عليه لعنة الله، بقي أن أعهد إليك بأمر يهمني ولك منه نفع كبير وأجر كثير».

وكان الضحاك واقفاً بالباب يتسمع ممسكاً أنفاسه لئلا يُسمع لها صوت، ويوشك لعظم اضطرابه أن يسمع دقات قلبه، وأحس بارتعاش قدميه، فقعد القرفصاء وأصاخ بسمعه فإذا إبراهيم يقول: «بماذا يأمر مولاي؟».

قال أبو مسلم: «بقي عليَّ أن أتخلص من شيبان أمير الخوارج، فإذا قتلناه تبعثر جند العرب وخلصت الدولة لنا».

قال: «هذا هو الصواب، هل تريد أن أرسله إلى خوارزم كما أرسلت ابن الكرماني وشبيباً الملعون؟».

قال: «أخاف ألا تنطلي عليه الحيلة، فليس لنا في داره فتاة مثل الدهقانة تيسر علينا العمل. فأرى أن نستقدم شيبان إلينا بحجة التشاور في أمر المحالفة ونقتله فيخلو لنا الجو».

قال: «ذلك أمر يسير إذا شئت فعلته».

وسادَ السكوت، فخاف الضحاك أن يهم أبو مسلم بالخروج، فأصاخ بسمعه فلم يسمع حركة، فعلم أنه يفكر ثم سمعه يقول: «اذهب الآن، وسأنبئك بماذا ينبغي أن تفعل».

فأدرك الضحاك أنهما خارجان فرجع القهقرى وودع الحارس وشكره، ثم سار مسرعاً حتى خرج من مرو، ومشى إلى معسكر الخوارج وهو يلعن ذلك اليهودي الذي كان سبباً في فشله. فمرّ في طريقه بمعسكر ابن الكرماني، فخطر له خاطر انشرح له صدره لما توهمه فيه من السداد. قال في نفسه: «لأذهبنّ إلى أمراء اليمنية أصحاب الكرماني، وأطلعهم على مكيدة أبي مسلم وكيف اغتال أميرهم وأحرضهم على محالفتنا». ثم بدّل ثيابه وأسرع إلى فسطاط أمير من اليمنية كان يعرفه، فلما وصل إليه اعترضه أحد الحراس فسأله عن الأمير، فقال: «إنه ذهب إلى مرو منذ ساعة».

قال: «ولماذا؟». قال: «لأن أبا مسلم دعا أمراء اليمنية جميعهم إليه».

قال: «وهل ذهبوا جميعاً؟». قال: «نعم».

فبهت الضحاك لذلك الدهاء، وتحقق أن أبا مسلم بعث إليهم ليكونوا في قبضته حتى إذا أصبح الصباح وعلموا بموت ابن الكرماني كان هو في مأمن من عصيانهم. ووقف برهة يفكر فيما ينبغي أن يفعل، فلم يرَ حيلة غير الفرار بالخوارج إلى أن يتسنى له سبيل للانتقام. فأسرع إلى معسكرهم وهو يخاف أن يكون أبو مسلم قد دبّر حيلة لإيقاعهم وقد صار يرى أن هذا الرجل قادر على كل شيء، فقصد إلى شيبان حتى إذا أقبل على فسطاطه دخل وقصّ عليه ما وقع له وقال له: «لم يبقَ لنا أرب في البقاء هنا، فانصرف برجالك إلى مكان تلبث فيه عسى الله أن يحدث أمراً».

فتردد شيبان في أول الأمر، ثم اقتنع فأمر بالرحيل، وطلب من الضحاك أن يصحبه فقال: «دعني أتدبر الأمر، فإني لن أرجع عن هذا الخراساني حتى أنتقم منه شر انتقام». قال ذلك وخرج.

تركنا جلنار وقد استلقت في حجرتها تحاول الرقاد ولا تستطيعه لهول ما شاهدته تلك الليلة من الأمر العظيم، وريحانة إلى جانبها تخفف عنها وتفكر في الورطة التي وقعتا فيها، وتبحث عن حيلة تنجوان بها من ذلك المعسكر قبل أن يصبح الأمراء ويعلموا بموت ابن الكرماني. فتذكرت الضحاك فقالت: «الآن وقت الضحاك، إنه لا يغيب إلا عند الحاجة إليه».

فقالت جلنار: «وأين هو؟ لا أظنه يتركنا الليلة وهو يعلم ما نحن فيه، فلا بد من مجيئه عاجلاً».

فقالت ريحانة: «وإذا لم يأت؟».

قالت: «ألا ترين أن نحتال في الذهاب إلى أبي مسلم في مرو؟».

فأطرقت ريحانة هنيهة ثم قالت: «وما قولك في الرجوع إلى بيت سيدي الدهقان، فنقص عليه ما حدث فإنه إذا علم بفوز أبي مسلم وموت ابن الكرماني.. فلا شك أنه يرضى بأبي مسلم بعلاً لكِ فتُزَفّين إليه مكرّمة معززة».

فشق على جلنار أن تعود إلى بيت أبيها وتبعد عن مقر حبيبها، فقال: «ولماذا ذلك؟ ألسنا على مقربة من مرو؟ وقد كان أبو مسلم يؤجل أمرنا حتى يقتل ابن الكرماني ويفتح مرو، وقد تم له ما أراد، ولم يعد هناك ما يدعو إلى التأخير؟».

قالت: «لا أعلم يا سيدتي. فلو كان هذا قصده وقد علِم

بموت ابن الكرماني لوجب أن يُرسل مَن يحملك إليه الآن».

قالت ذلك وأطرقت، فرفعت جلنار نظرها وتفرست في وجهها لعلها تفهم شيئاً مستتراً وراء تلك العبارة، فرأتها مطرقة وفي وجهها ملامح الارتياب فقالت لها: «وماذا تعنين؟».

قالت: «لا أعني شيئاً، ولكنني أقول ما يجول بخاطري، وأنت تعلمين أني أشد الناس رغبة في حفظ كرامتك. وإن زفاف الفتاة من بيت أبيها لأحفظ لكرامتها، غير أني لا أشك في مقاصد أبي مسلم ولكنني أحسبه مشتغلاً الآن بتدبير شؤون ما بعد الفتح. فذهابك إلى بيت أبيك والانتظار حتى يفرغ أبو مسلم من مهام الدولة لا يقلل شيئاً من حبه لك أو رغبته فيك».

وفيما هما في ذلك سمعتا سعال الضحاك وسط الخباء فأجفلتا، ثم هرولت ريحانة نحو مصدر الصوت وهي تتعثر بأذيالها من المفاجأة والفرح، وظلت جلنار في فراشها وقلبها يكاد يطير من شدة الخفقان، ثم رأت ريحانة عائدة يتبعها رجل غير الضحاك عليه قلنسوة طويلة بدون عمامة، وجبّة سوداء طويلة مثل زي أهل خراسان، وقد أحفى شاربيه وقصّ أطراف حاجبيه وقطبهما وقصّ لحيته ولكنها ما لبثت أن عرفت أنه الضحاك متنكراً، فهشّت له كما تهش لأقرب الناس إليها وابتسمت وهي تقول: «لقد صدق ظني، إنك لا تتركنا على ما نحن عليه. ما الذي أصاب ذلك الرجل؟ أتظنه يموت؟».

قال: «بل أظنه مات لأني رأيت أهل فسطاطه في هرج واضطراب».

قالت: «فما العمل الآن؟».

قال: «أرى أن ترجعي إلى بيت سيدي الدهقان».

فلما سمعت ريحانة قوله التفتت إلى سيدتها ولسان حالها يقول: «ألم أقل لك ذلك؟».

قالت جلنار: «وكيف نذهب؟».

قال: «نذهب بأخف ما عندنا، وأنا أدبر ذلك على أن تكتمي أمري عن كل إنسان».

فاستغربت وقالت: «ماذا تعني؟».

قال: «أعني أني رهن إشارتك ولا أزال عبدك المطيع، ولكنني لا أحب أن يعلم أحد في الدنيا أني على قيد الحياة، ولا تسأليني السبب الآن. أما اسمي الجديد فهو صالح؟».

فقالت: «سأفعل ذلك، فما العمل يا صالح؟».

قال: «سأعد كل شيء حتى نتمكن من الرحيل في الصباح والناس في شاغل عنا».

قالت: «ألا ترى أن نصبر إلى الغد لعل أبا مسلم يبعث بمن يحملنا إليه؟».

قال: «إذا شئت بقينا، ولكنني لا أرى أبا مسلم باعثاً إليك غداً ولا بعد غد!».

فلم تستغرب قوله لأنها سمعت مثله من ريحانة، لكنه لم يعجبها فقالت: «وكيف لا يبعث إليَّ وأنت قلت لي أنه إنما أخّر اجتماعنا حتى يفرغ من الحرب ويُقتل هذا المسكين على يدنا، وقد حدث هذا، فهل من سبب آخر للتأجيل؟».

فقال: «لا، ولكن أبا مسلم اليوم في شاغل عظيم بأمر هؤلاء اليمنية بعد مقتل أميرهم، فإذا لم يتلاف أمرهم خاف عصيانهم أو انحيازهم إلى الخوارج. ومهما يكن الأمر فإن الذهاب إلى بيت أبيك

أحفظ لكرامتك، وليس ثمة ما يمنع أبا مسلم أن يطلبك من مولاي الدهقان فتُزَفّين إليه معززة مكرّمة».

فأُذعنت وأشارت إليه أن يفعل ما يشاء.

فقال: «مري الخدم بأن يطيعوني، ولا تقولي لهم أني الضحاك».

فأشارت إلى ريحانة أن تفعل ما قاله. فخرجت ريحانة وقالت لقيمة الخباء: «لقد بعث مولانا الدهقان الليلة هذا الرجل ليرجع بنا إليه في الصباح فاعملوا بإشارته». فأخذ الضحاك في الاستعداد للرحيل.

- ١٠ -
في مجلس أبي مسلم

كان الدهقان قد زوّج ابنته بابن الكرماني طمعاً في الكسب على يده، لاعتقاده بقوة الكرماني وكثرة رجاله، ولاستخفافه بأبي مسلم لقلة رجاله وصغر سنّه، وأضمر في قلبه أنه إذا انقلبت الآية ورجحت كفة أبي مسلم تقرّب إليه بالأموال والرجال. فكان لا يغفل عن استطلاع أحوال الجنود المعسكرة حول مرو، وكانت الأخبار تأتيه تباعاً كلها تدل على نجاح الخراسانيين وتغلبهم. حتى إذا جاءه الخبر بدخول أبي مسلم مرو حليفاً لابن الكرماني مع بقاء هذا في معسكره تحقق فوز الخراسانيين ولبث يتوقع فرصة يتقرب بها من أبي مسلم وهو يظنه غير عالم بزفاف جلنار إلى ابن الكرماني، فلما بلغه أن أبا مسلم دخل مرو، بعث إليه بالهدايا والأموال، وكتب إليه يهنئه بالنصر، وأنه بذل جهده في جمع كلمة الدهاقين على نصرته. كل ذلك وهو لا يعلم بموت ابن الكرماني، فلما جاءه الخبر بقدوم ابنته خرج لاستقبالها وقبّلها ورحّب بها مستغرباً مجيئها، ولما سألها في ذلك لم

تتمالك عن البكاء، فأجابته ريحانة إنها ستطلعه على السبب في خلوة. فأخرج مَن في حضرته من الناس، فقالت ريحانة: «إن مولاتي الدهقانة تبكي حرقة على سوء حظها».

قال: «ولِمْ؟ ماذا جرى؟».

قالت: «إن خطيبها توفي في هذا الصباح فجأة».

قال: «علي بن الكرماني مات؟». قالت: «نعم يا سيدي».

فأطرق يحك ذقنه ويعمل فكرته وقد ثبت عنده انتصار الخراسانيين وفشل العرب فذهبت بقية آماله فيهم، ونظر إلى جلنار فإذا هي مطرقة تبكي، فظنها تبكي زوجها وهي إنما تبكي شوقاً لحبيبها وضياع آمالها، لأنها كانت تتوقع أن ترى منه اهتماماً بأمرها. فلما رآها الدهقان تبكي، رق لها وقال: «لا تبكي يا جلنار ولا بأس عليك». ثم وجّه خطابه إلى ريحانة وقال: «سمعتك تسمّين ابن الكرماني خطيباً وأنت تعلمين أننا عقدنا له عليها وزففناها إليه».

قالت: «نعم ولكنه لم يدخل على سيدتي بعد». وحكَت له ما كان من اشتراطه على نفسه فتح مرو قبل ذلك، وأنه مات غداة الفتح.

فلما علم بذلك انقشعت غياهب الفشل عن قلبه ورأى في عودة جلنار إليه باباً جديداً للتقرب من أبي مسلم لاعتقاده أن أبا مسلم يرغب في مصاهرته، فنظر إلى جلنار وهو يبتسم تخفيفاً لاضطرابها وقال: «لا بأس عليك، إني سأعوضك من ابن الكرماني مَن هو خيرٌ منه وأقرب إلينا وطناً ولغة وعادة».

فأدركت جلنار أنه يشير إلى أبي مسلم، فسرى عنها، وانتعشت آمالها لأن أباها صارَ عوناً لها في الوصول إلى حبيبها، فأمنت ما

كانت تخشاه من زواجها بأبي مسلم بغير علمه أو رضاه. فلما سمعت كلامه قالت: «بارك الله لي فيك من أب رحيم».

فأشار إليها أن تذهب إلى غرفتها لترتاح من وعثاء السفر، فنهضت وريحانة معها فسأل أبوها: «وأين الضحاك إني لا أراه معكما؟».

قالت ريحانة: «لا ندري ما أصابه، فقد ذهب بالأمس ونحن بعد في معسكر ابن الكرماني ثم لم نرَه بعد ذلك».

قال: «وكأني رأيت معكما رجلاً عليه القلنسوة والجبة، فمن هذا؟».

قالت: «هو رجل من أهل مرو اسمه صالح، جاءنا به ابن الكرماني يوم الفتح وأضافه إلى الخدم بدلاً من الضحاك ولا بأس به».

ومشى الدهقان والدهقانة، وعاد كلّ منهما إلى حجرته وفي نفسه أنه خدع صاحبه. وأخذ الدهقان يفكر في السبيل المؤدي إلى نيل الحظوة في عيني أبي مسلم بعد أن أصبح له الأمر في خراسان، فاعتزم بعد طول التفكير أن يزوّجه ابنته، على أن ينتظر جوابه على تهنئته التي كُتب بها إليه يوم الفتح. ولبث في الانتظار يومين، وفي اليوم الثالث جاءه رسول أبي مسلم ومعه كتاب يثني به عليه ويستقدمه إليه ليقيم عنده. فلما تلا الكتاب أسرع إلى جلنار وأطلعها عليه، فكان سرورها أعظم من سروره ولكنها أحبت أن تستوثق من أمر مسيرها معه فقالت: «وهل عزمت على السفر إلى مرو؟».

قال: «وهل أستطيع غير ذلك؟».

قالت: «ومتى تذهب؟». قال: «ربما ذهبت غداً».

قالت: «ألا تحمل إليه الهدايا والأموال؟». قال: «لا بد من

ذلك، لأن الرجل أصبح ملك خراسان، وأرى دعوته ناجحة لا ريب فيها، فيجب أن نبذل جهدنا في التقرّب منه. وأرجو أن تساعديني على ذلك».

قالت: «أنا فتاتك ورهن إشارتك».

قال: «إذا أطعتني لم يبقَ شك في فوزنا، لأن النصر حالفه، وقد أخبرني رسوله حامل الكتاب بأن الخوارج رحلوا عن مرو، وإن الذين بقوا أحياء من رجال الكرماني انضموا إلى جند أبي مسلم، فهو الآن زعيم القوم وأمير مرو، ولا يلبث أن تذعن له بلاد خراسان وما وراءها. فالتقرب منه غنم لا شك فيه».

فأدركت أنه يشير إلى أمر زواجها منه، فقالت وقد أشرق وجهها سروراً رغم ما تكلفته من السذاجة: «إنني لم أخالفك في أمر علي بن الكرماني وهو بعيد عنا جنساً ولغة، فكيف أخالفك في أمر خراساني هو كما وصفته».

قال: «بورك فيك من ابنة مطيعة حكيمة». وضمّها إلى صدره وقبّلها ثم قال: «سأذهب في الغد وأغتنم أول فرصة لأكلمه في شأنك، ثم أبعث إليك فتأتي بموكب يليق بمقامنا».

فعلمت أنه لا ينوي اصطحابها، فرضيت بما أراده وانتعشت آمالها فأظهرت الارتياح ولكنها كانت تفضل الذهاب معه فقالت: «وما ضرك لو ذهبت معك فأدخل مرو وأتفرج ريثما يتم لك ما تريد».

فأطرق لحظة ثم قال: «لا بأس من ذهابك معي، فأنزلك عند صديق لي من دهاقين مرو أعهده يقيم بقصره بجوار دار الإمارة».

ففرحت جلنار وظهر الفرح في وجهها، فأمر الدهقان خازنه

بأن يعد الأموال ليحملها معه إلى مرو، وأن يعدوا الهدايا من الرقيق والثياب والأشياء الثمينة.

وفي صباح اليوم التالي ركب في كوكبة من الفرسان، وجعل الهدايا في جملة تسير في أثره ومعها هودج جلنار وريحانه، ومشى صالح مع الخدم. وفي الضحى وصل الموكب إلى مرو يتقدمه رسول أبي مسلم. فدخلوا المدينة وساروا حتى أقبلوا على دار الإمارة، فأمر الدهقان أن ينزلوا جلنار في قصر صديقه بقرب الدار فأنزلوها، وترجل هو ورجال حاشيته يمشون بين يديه وعليهم الألبسة الفاخرة وبمناطقهم السيوف المحلاة بالذهب، حتى أقبلوا على باب القصر وعليه الحراس، فاستأذنوا للدهقان في الدخول فأذِن له أن يدخل وحده، وأن يتحول رجال حاشيته إلى دار الأضياف فدخل الدهقان وعليه قلنسوة حولها عمامة موشاة بالذهب وقد ارتدى جبّة من الخز فوقها مطرف من الحرير المزركش يساوي مالاً كثيراً. ونزع سيفه ودفعه إلى بعض الخدم السائرين بين يديه.

دخل القصر ومشى في الصحن الداخلي حتى وصل إلى القاعة التي ينعقد فيها مجلس أبي مسلم ومعه نقباؤه وقواده. وهناك وجد في صدرها أبا مسلم على كرسي، وإلى جانبه خالد بن برمك وسليمان بن كثير وجماعة من النقباء، فرحّب به أبو مسلم وأمر له بالجلوس بين يديه، فجلس وأعاد التحية، فقال له أبو مسلم بالفارسية: «نشكرك على هداياك أيها الدهقان».

قال: «لم أهد شيئاً وإنما قدمت ما يجب».

قال أبو مسلم: «بل أنت تفضلت، ولا ننسى ضيافتك يوم نزلنا عندك».

فانشرح صدر الدهقان لذلك الاطراء وقال: «كل ذلك واجب

قمت به لأن نصرة دعوتكم فرض على كل خراساني أو فارسي».

فنظر أبو مسلم إلى خالد فرآه ينظر إليه، ثم حولا نظرهما إلى الدهقان فإذا به يزداد تصدراً ويده في لحيته يمشطها بأنامله، فقال له أبو مسلم: «هل كنت عالماً بذلك قبل الآن؟».

فاستغرب الدهقان السؤال وأوجس خيفة منه لعلمه أن أبا مسلم قليل الكلام كثير المعاني، فقال: «كيف لم أكن أعرفه؟ ألا تذكر مجلسنا تلك الليلة يوم تليت علينا وصية الإمام وتعاقدنا على نصرة هذه الدعوة لأنها أمانة في عنق كل فارسي؟».

قال: «أتذكر نص الوصية؟».

قال: «أذكر فحواها».

قال: «وما فحواها؟».

فأجفل الدهقان من تدقيقه وازداد خوفاً مما وراء ذلك، ولكنه أسرها في نفسه وقال: «أذكر أنه يوصيك بألا تبقي في خراسان لساناً عربياً، وأن تقتل من شككت فيه».

ونظر أبو مسلم إلى الدهقان متفرساً، فلم يطق الدهقان صبراً على تلك النظرة خوفاً من عواقبها وأطرق، فقال له أبو مسلم: «وهل عملت بهذه الوصية؟ وهل سعيت معنا على العرب أعدائنا؟». قال ذلك بلهجة المرتاب وتجاهل العارف.

فتجلد الدهقان وقال: «كيف لا وأنا لم أدخر وسعاً في بذل الأموال واستنهاض الدهاقين لنصرة هذه الدعوة». وكان الدهقان يظن أبا مسلم غير عالم بزفاف جلنار إلى ابن الكرماني. فقال أبو مسلم: «أمن نصرة العجم على العرب أن تزف ابنتك إلى ابن الكرماني ومعها الهدايا من الرقيق والمال؟».

فوقع الرعب في قلب الدهقان ولم يدر كيف يجيب، ورقصت لحيته وارتعشت أنامله وبدت الحيرة في وجهه، ولكنه تجلد وقال: «إن زفاف ابنتي إلى ذلك العربي إنما كان قبل مجلسنا الذي أشرت إليه».

فقال: «ألا تذكر أن الفتاة كانت في بيتك ليلة ذلك الاجتماع وقد جالستنا؟».

فارتبك الدهقان في أمره وأخذ يتشاغل بإصلاح قلنسوته ومطرفه ويبلع ريقه ويتنحنح وقد امتقع لونه، ثم قال: «إني رأيت من الفتاة ميلاً إلى ابن الكرماني فسايرتها فيما ترضاه لأنها وحيدتي».

قال: «أصحيح ما تقول؟».

قال: «هذا هو الصحيح ورأس الأمير».

فقال: «وإذا كنت كاذباً؟».

فلما سمع الدهقان ذلك ازداد رعدة وصار ينتفض، والتفت إلى مَن حوله من القواد والنقباء لعله يجد بينهم مَن ينصره، فرآهم مطرقين لا يستطيع أحد منهم أن يفوه بكلمة، فلم يرَ بداً من الجواب لأن السكوت إقرار بالكذب. ولم يكن يخطر له أن أبا مسلم مطلّع على سر ابنته فقال: «حاشا لي أن أكذب بين يدي الأمير».

فقال أبو مسلم: «إن العقد لم يتم إلا بعد زيارتنا، وابنتك لم تكن راضية بذلك العربي وإنما أنت رضيته لها استخفافاً منك بدعوتنا وتزلفاً إلى العرب. وقد جادلتك هي في شأنه في الليلة التي كنا فيها عندك فكنت تصر على تزويجها به».

فلم يبقَ أحد من الحضور حتى خالد بن برمك إلا وقد دُهش من اطلاع أبي مسلم على هذه التفاصيل على انشغاله بمهام القيادة

وتدبير شؤون الدعوة، وجعلوا يتلفتون بعضهم إلى بعض والدهقان يكاد يموت خوفاً وقد جمد الدم في عروقه وود لو خسفت به الأرض وابتلعته، ولم يحر جواباً. واستولى السكوت على الجلوس، وهم مطرقون لا يتحركون كأن على رؤوسهم الطير، إلى أن وجّه أبو مسلم خطابه إلى النقباء وسألهم: «ما قولكم في هذا الخراساني الذي سمع وصية الإمام بإبادة العرب فنصرهم وصاهرهم ثم يقول إنه ينصرنا؟».

فلم يجب أحد منهم بكلمة لعلمهم أنه لا يستشيرهم وإنما هو يهدد الدهقان، ثم قال له: «إنك لم تحفظ وصية الإمام، فبدلاً من أن تنصر الخراسانيين نصرتَ العرب وقد نصرتهم وهم أعداؤنا. أما أنا فالوصية منقوشة على صدري أعمل بها».

فأدرك الجميع مراد أبي مسلم حتى الدهقان نفسه، وفهموا أنه يشير إلى قول الإمام: «مَن شككت فيه فاقتله». فنظر الدهقان إلى أبي مسلم نظرة المستغيث. فقال أبو مسلم: «إن طاعة الإمام أولى من طاعة كل إنسان، وقد أوصاني أن أقتل كل من أشك فيه، وقد شككت فيك فلا مفر من قتلك». ثم نظر إلى الباب فدخل أربعة على كل منهم دراعة من الجلد إلى أسفل الركبة عليها رشاش من الدم، وعلى رأسه قلنوسة طويلة ذات شعبتين عليها شيء من آثار الدماء، وحول الدراعة منطقة من جلد علق فيها سيف.

فلما دخلوا علِم الدهقان أنهم الجلادون وسمع أبا مسلم يقول لهم: «خذوا هذا الخائن إلى خوارزم».

فعلم الدهقان أنه يأمر بقتله، فنهض وترامى على قدميّ أبي مسلم وجعل يتضرع ويتوسل وهو يبكي ويقول: «اصفح يا مولاي عن ذنبي أعطك كل ما أملك».

فأجابه أبو مسلم وهو ينظر إلى سقف القاعة: «إن مالك لنا قُتِلت أم بقيت حياً». فلما لم يرَ الدهقان إصغاء من أبي مسلم، تحوّل إلى خالد بن برمك، وترامى على قدميه واستشفعه، فرق خالد له ولم يكن أحد يجرؤ على مخاطبة أبي مسلم في شيء غيره، فهمس في أذنه كلاماً، فقال أبو مسلم: «قد أجّلنا قتله الآن، خذوه إلى السجن وسننظر في أمره».

فتقدم الأربعة وساقوا الدهقان حتى خرجوا من باب سري يؤدي إلى غرفة مظلمة وضعوه فيها.

نزلت جلنار في قصر الدهقان صديق أبيها بجوار دار الإمارة، وقد استأنست بقرب الحبيب. فأنزلها صاحب القصر بين نسائه، فلقيت عندهن كل إكرام واحتفاء، ولا سيما من الدهقانة صاحبة المنزل، لأنها كانت تعرفها وتعرف أمها قبلها، ولكن جلنار لم تكن تستأنس بأحد لاشتغال ذهنها بأبي مسلم وما عسى أن يدور بينه وبين أبيها في شأنها، وكانت تختلس الفرص لتخلو بريحانة وتحادثها فيما يهمها في انتظار عودة أبيها من تلك الزيارة. وعند الظهر كان أهل البيت ينتظرون مجيء الدهقان ليأكلوا معاً، فلما أبطأ ظنوه أكل على مائدة الأمير فتغدوا وجلنار أكثرهم قلقاً على غيابه، لا خوفاً على حياته لأن ذلك لم يخطر لها ببال، بل حباً في معرفة ما دار من الحديث عنها.

وقضت بقية ذلك النهار وهي على مثل الجمر، وريحانة تعدها وتمنيها حتى أمسى المساء. فلاحظت في أهل القصر تغيّراً ورأتهم يجتمعون ويتسارون، وإذا لقوها تظاهروا بالمجاملة والمحاسنة فقلقت وأنبأت ريحانة بما لاحظته، فقالت لها: «وأنا أيضاً لاحظتُ ذلك فيهم».

فقالت جلنار: «لا بد من أمر حدث لأبي».

وما أتمت كلامها حتى جاء خادم يقول لجلنار: «إن أحد خدمكم بالباب».

فنهضت ريحانة وتبعتها جلنار حتى أقبلتا على الباب، فإذا هناك صالح (أو الضحاك) وفي وجهه اضطراب فقالت ريحانة: «ما وراءك؟».

قال: «أدخلاني إلى مكان لا يسمعني فيه أحد سواكما».

فدخلتا به إلى غرفة وأقفلتا الباب فجلس وجلنار يتزايد قلقها وخفقان قلبها حتى بدأ صالح بالكلام فقال لها: «هل سمعت ما حدث اليوم في مجلس أبي مسلم؟». قالت: «لا».

فقصّ عليها ما دار بين أبي مسلم وأبيها كأنه كان حاضراً حتى بلغ إلى حيث أمر أبو مسلم بقتله، فاقشعر بدنها وامتقع لونها، ثم أخبرها بتوسط خالد بالعفو عنه وأنهم أجلوا قتله وحبسوه. فطار صوابها، وقالت: «أَيُحكم على أبي بالقتل؟.. ولماذا؟».

قال: «لأنه زفّك إلى ابن الكرماني ورغب في مصاهرته وهو عربي، وكان مولاي الدهقان يدعي التحزب للفرس».

فأطرقت ثم التفتت إلى ريحانة كأنها تستطلع رأيها، فرأتها أشد حيرة منها فنظرت إلى صالح وقالت: «هذا أوان المروءة وصدق الخدمة». وترقرق الدمع في عينيها.

فوقف صالح وقال: «إني رهين أمرك يا مولاتي والذي أراه». وسكت. فازدادت جلنار قلقاً لتردده فقالت: «قل، ما الذي تراه؟».

قال: «لا أرى أحداً يستطيع التوسط في ذلك سواك».

فصادف قوله قوى في نفسها، فقد طالما تمنت لقاء هذا الذي

وهبته قلبها وظنت أنه بادلها حباً بحب، ولم يتسن لهما أن يجتمعا، فرأت في ذهابها إليه للشفاعة في أبيها ما قد يمهد السبيل إلى ما تطمع فيه من عتاب المحبين، فنهضت وقالت: «سأذهب إليه الآن».

فقال صالح: «حسناً تفعلين، وأنا أستأذن لك عليه من الحاجب فقد عرفته وهو الذي قصّ عليّ الحديث اليوم. انهضي غير مأمورة، وتخمري ريثما أعود إليك بالإذن». وخرج.

فدخلت جلنار حجرة هناك، وأصلحت من شأنها قليلاً والتفت بالمطرف المزركش ولفت رأسها بشال موشّى. فقالت ريحانة: «هل أذهب معك يا مولاتي؟».

قالت: «ربما لا يأذن لنا بالدخول معاً وأنا أحب أن أخاطبه على انفراد».

ثم جاء صالح يقول: «هلم يا مولاتي، قد أذِن الأمير».

فنهضت وقد تسارع خفقان قلبها وتصاعد الدم إلى وجهها فخرجت من باب القصر والليل قد سدل نقابه. ولم تمش خطوات قليلة حتى أطلت على باب القاعة وصالح يمشي بجانبها. فقال لها: «لا يخلو دخولك على هذا الأمير من باعث على الحذر، فكوني على يقين أني آتيك كما تأتي المردة إذا شعرت بضيق، ولكن احذري أن تناديني باسمي القديم».

فأوجست من هذا التحذير خوفاً، ولكنها شغلت بما هاجه فيها لقاء أبي مسلم لأول مرة على انفراد، وفي قلبها من لواعج الحب وعوامل الاعجاب ما فيه، فأوصلها صالح إلى الباب وأشار إلى الحاجب فوقف لها وأدخلها القاعة وقد وسّع لها ستر الباب بيده، فرأت قاعة كبيرة في بعض أركانها شموع منيرة. وفي صدر القاعة رجل متكىء على وسادة وعليه ثياب الإمارة كأنه في مجلس الحكم،

فسبقها الحاجب حتى وقف بين يدي الرجل وقال: «قد أتت الفتاة التي استأذنت في الدخول على الأمير».

فقال أبو مسلم: «أين هي؟». وأشار بيده إلى الحاجب فخرج، ومشت جلنار وهي تخطو الهوينا ورجلاها لا تساعدانها على السرعة لما ساورها من رعب لدخولها وحدها على أبي مسلم. وإذا كان الرجال الأشداء يرتعدون في حضرته، فكيف بفتاة مفتونة قاست الصعاب للحصول على رضاه؟

فلما أقبلت جلنار، اعتدل أبو مسلم في مجلسه وكان يلبس العمامة السوداء والجبة السوداء، وقال بالعربية: «أهلاً بالدهقانة».

فأجابته بالفارسية: «لست دهقانة وإنما أنا أمتك».

فأشار إليها أن تقعد فقعدت على وسادة بين يديه، وقد أرهبتها الخلوة مع رجل تحبه وتعتقد أنه يحبها فغلب عليها الحياء تمازجه رعشة الحب. ثم تذكرت أباها وأنها أتت من أجله، فلبثت تنتظر ما يقوله أبو مسلم. فقال لها بالفارسية: «أراكم لا تحبون من الفرس إلا لغتهم، وأما فيما خلا ذلك فأنتم عرب».

فأدركت أنه يعرض بالسبب الذي حكم على أبيها من أجله، فرفعت بصرها إليه فلم تستطع التفرس في وجهه، وأحست كأن سهاماً تتطاير من عينيه إلى عينيها، وكأن نوراً باهراً يسطع من حدقتيه فيبهر الناظر إليهما. فقالت وهي مطرقة: «وكيف نكون عرباً وقد بذلنا النفس والنفيس في سبيل الفرس؟. على أننا لو أردنا أن نكون عرباً ما استطعنا إلى ذلك سبيلا».

قال: «وأنتِ أيضاً تتعمدين خداعي؟».

فلما سمعت ما في كلامه من الجفاء رأت غير ما غرسه

الضحاك في ذهنها من حبه لها. على أنها حملت ذلك منه على محمل غضبه من أبيها فقالت: «حاش الله أن أخادعك، وما أنت ممن يخدعون لأنك تخترق القلوب بعينيك وتكشف غوامض الأسرار بذكائك، فأنّى لفتاة مثلي أن تجرؤ على خداعك ولكنني أقول لك الحق».

فقطع أبو مسلم كلامها وقال: «الحق أن أباك خدعنا، فقد تقرب منا وأظهر الميل إلى نصرتنا، على حين كان يخابر ابن الكرماني ليصاهره وقد زفّك إليه، هل تنكرين ذلك؟».

فأفحمها، ورأت أن تطرق باب الاستعطاف بالحب فقالت: «لا ريب أن أبي ارتكب خطأ كبيراً بتزويجي من ذلك العربي، ولو علم ما في قلبي لما رضيَ به. ومع ذلك فإن ذلك العربي المسكين لم ينل من آماله غير الفشل».

فقال: "لقد خدعنا أبوك وأثار الشك عندنا في تصرفه، فحلّ لنا قتله عملاً بوصية الإمام صاحب الدعوة».

فصاحت: «العفو يا مولاي، اعف عن أبي وإن كان ذنبه كبيراً. إن المصاهرة التي تتهمونه بالإقدام عليها خداعاً كانت سبباً في أن عجّلت بقتل عدوك. وهب أن أبي فعل ذلك رغبة عن أبي مسلم، فإن في هذا القلب (وأشارت إلى صدرها) من الحب له ما لو تفرق في عشيرة لكان كل منهم عاشقاً». وشعرت عندما نطقت بهذه العبارة، بأنها تسرّعت في إظهار شعورها.. ولكنها لم تستطع صبراً، وقد أرادت أن تستطلع ما في قلبه.

أما هو فلما سمع تصريحها بحبه استغربه وَعدّه تهوّراً فأغضى عنه وقال: «إني أشكرك على حبك أيتها الدهقانة، ولا أنكر أنك خدمت الخراسانيين، غير أن ذلك لا يبرىء أباك».

فاستغربت جوابه «البارد» على خطابها الحار، وقالت: «ألا تزال تذكر ذنب أبي بجانب إخلاصي في حبك؟».

قال: «لا تقولي حبي، بل قولي حب دعوتي ومنفعة خراسان».

فأنكرت تنصّله من الحب وشعرت بأنها في وادٍ وهو في واد، فقالت: «بل في حبك أيها الأمير».

قال: «وما الباعث على ذلك والحب ينتهي إلى الزواج، وأنا لا مأرب لي في النساء وأعد الزواج جنوناً، فقد تزوجت ويكفي للإنسان أن يجن في حياته مرة واحدة. واعلمي يا جلنار أني لو كنت ممن يهيمون بالنساء لما استطعت القيام بالدعوة التي أنا قائم بها». وكانت جلنار تسمع كلامه وقلبها ينفطر غيظاً لخيبة أملها، لكنها تجلدت وقالت وصوتها يرتجف: «ألم تحبني من قبل؟».

قال: «لم أحبك ولم أحب سواك من النساء، ولا أريد أن أحب امرأة».

قالت: «ألم تقل لرسولي أنك أحببتني عندما رأيتني، وأنك تؤجل أمر الزواج إلى أن تضع الحرب أوزارها؟».

قال: «أظنك تعنين ذلك المهذار المنافق، لقد قتلته جزاء خيانته، فلا تصدقي قوله؟».

فتذكرت جلنار ما قاله لها الضحاك من أنه لا يريد أن يعلم أحد ببقائه حياً، فسكتت وهي مقتنعة بصدقه لاختبارها إياه من قبل، ولأنها رأت غيرته عليها وتفانيه في خدمتها، فترجح عندها غدر أبي مسلم، وأنه استخدمها واستخدم الضحاك في تنفيذ مآربه لقتل ابن الكرماني ثم قتل الضحاك، فخافت إذا هي جادلته أن يغضب ويأمر بقتلها، وليس أسهل عليه من القتل. فاستجمعت رشدها وعمدت

إلى الملاينة لإنقاذ أبيها فقالت: «لا تغضب أيها الأمير فإني لم أحبك طمعاً في الزواج منك، ولكنني أحببت مناقبك وسجاياك».

فأدرك أبو مسلم أنها تمكر خوفاً من غضبه، فمكر وقال لها: «وأنا أحببت مناقبك وشكرت غيرتك ونصرتك».

فلما سمعت هذه المجاملة وتحققت أنه لا يحبها شعرت بذهاب حبها، ولكنها لم ترَ بدّاً من استعطافه لتنقذ أباها، فقالت: «هل لي أن أطمع في أن تهب لي ذنب أبي فتعفو عنه؟».

قال: «ذنب أبيك لا يُغفر لأنه خان».

فقالت: «هب أنه خان، فاجعل خيانته مقابل خيانتي ابن الكرماني».

قال: «إنك لم تقتليه في سبيل دعوتي، بل طعماً في الزواج مني».

قالت: «وهل تعد ذلك ذنباً؟ على كل حال، قد ساعدتكم في قتل رجل كان زوجي، أفلا تكافئني على قتله بالعفو عن أبي؟».

قال: «أتعدين ذلك فضيلة وهي خيانة، ثم تتوقعين أن أتزوجك. ومَن يضمن لي أنك لا تقتلينني؟ أما أبوك فلا تتعبي نفسك في شأنه، فلو أردت العفو عنه ما استطعت، وقد سبق السيف العذل».

فنهضت ثم جثت بين يديه وهمّت بتقبيل ركبتيه، وذرفت الدمع وهي تقول: «أستحلفك بالإمام إبراهيم صاحب الدعوة أن تعفو عن أبي، لأني أصبحت بعد جفائك ليس لي سواه». قالت ذلك بصوت متهدج وهي تشرق بدموعها.

فدفعها وأدار وجهه عنها: وقال: «لا سبيل إلى حياة أبيكِ».

فأُجفلت وتراجعت وقالت: «ماذا تعني؟ هل قتلته». قال: «نعم».

فصاحت: «قتلته! لا، لم تقتله. بل أجلت النظر في أمره إلى الغد. بالله ألا صدقتني، ألا أشفقت على شبابي وأبقيت لي أبي.. أنا مسكينة وحيدة». وأغرقت في البكاء حتى كاد يُغمى عليها.

ولم يكن ذلك ليؤثر في قلب أبي مسلم، فأجابها بقوله: «قلت لك أنه قُتِل. وإذا كنت لا تصدقين، فسترين أباك رأي العين». ثم صفق فدخل غلام فقال: «ائتني بالدهقان».

فلما سمعته انتعشت آمالها وتوهمت أنه لا يزال حياً، فتابعت الغلام بنظرها فرأته يدخل دهليزاً في جانب القاعة، ثم عاد وفي يده طبق كبير فوقه غطاء وتقدم به حتى وضعه بين يديها، وكشف الغطاء فرأت رأس أبيها في قاع الطبق وقد تجمد الدم حوله وتلطخت لحيته وشارباه، واشتبك شعر رأسه، وتلوّث بالدم، وعيناه مفتوحتان كأنهما تنظران إليها. فلما وقع نظرها عليه، صاحت: «واأبتاه!». والتفتت إلى أبي مسلم وقد غاب رشدها ولم تعد تفقه ما تقول، ولطمت خديها وصاحت: «قتلته يا ظالم! ويلاه!». وأخذت في البكاء حتى دوّت القاعة بصوت نواحها.

فقال لها أبو مسلم: «اسكتي أو أرسلك إلى خوارزم».

فأدركت أنه يهددها بالقتل، ولكنها لم تكن تبالي الموت لفرط حزنها فقالت: «أرسِلني إلى حيث شئت، لم يبقَ للحياة عندي قيمة بعد خيانة حبيبي وقتل أبي». وعادت إلى البكاء بصوت عالٍ.

فصاح أبو مسلم بالحاجب فجاءه فقال: «خذ هذه الفتاة إلى سجن النساء، ولولا خوفي أن يُقال قتل امرأة لقتلتها».

- ١١ -
الفرار

مشت جلنار مع الحاجب وهي تبكي وتصيح: «واأبتاه». حتى إذا دنت من باب القاعة سمعت الحاجب يكلمها همساً ويقول: «لا تخافي يا سيدتي، لا بأس عليك».

فعرفت صوت صالح، فنظرت إلى ثيابه فإذا هي ثياب الحاجب. فاستغربت قيامه بتلك الحيلة، ولكنها كانت في شاغل من الحزن، ورأس أبيها الملطخ بالدم ما يزال ماثلاً أمام عينيها. فلما خرج بها من الباب، رأت في الدهليز شبحاً نائماً وبقربه ثياب. فالتقط صالح الثياب بخفة، ودفعها إلى جلنار وهو يقول: «البسي»، فإذا هي جبته وقلنسوته. فلبستهما مسرعة، وعبَرا الدهليز حتى بلغا الباب الخارجي فخرجا، ولم يعترضهما الحراس لاعتقادهم أنهما الحاجب وأحد الخدم. فلما خرجا من دار الإمارة، مشى بها صالح إلى حجرة في خان وقد قطعا الطريق ساكتين لا ينطقان.

وأخذ صالح في تخفيف الأمر على جلنار، فقال لها: «ألم ألمح لك غير مرة أنه خائن غادر..؟ قد سمعته ينكر ما قاله لي عن حبه لك وافتتانه بجمالك، ولكن أنّى لي أن أكذّبه وهو صاحب السيف ولا شفقة عنده ولا عهد له. ولم أكن أعلم أنه فعل ذلك خداعاً حتى يستخدمنا في قتل ذلك الرجل المسكين، وقد أراد قتلي معه فأوصى الرجل الذي أرسله معي لقتل ابن الكرماني بأن يدس السم في قدحي أيضاً، ولولا القدر والقيء لكنت الآن في عالم الأموات، وهو يظنني ميتاً وقد قال لك ذلك الليلة. على أني لم أكن أتوقع أن ينكر حبك، وأنه يبغي أذاك أو أذى مولاي الدهقان، وإلا لمنعتك من الذهاب إليه. وقد احتطت وهيأت ما يلزم للفرار بك عند الحاجة، فأغريت

الحاجب حتى أسكرته، ولبست ثيابه وتزيّيت بزيّه لأتمكن من إنقاذك، وقد وفّقت إلى ذلك بحول الله».

وكانت جلنار تسمع كلامه وكأنها في حلم، لما مرّ بها تلك الليلة من الأهوال وذهاب آمالها أدراج الرياح، فاستغرقت في التأمل وصالح جالس بين يديها، ثم قال لها: «أتأذنين لي في أن أذهب لاستقدام ريحانة؟».

فانتبهت وقالت: «لا بد من ذلك، اذهب حفظك الله».

فقال لها: «أعطيني جبتي وقلنسوتي».

فلما خلعتهما، لبسهما وهو يقول: «امكثي في هذه الحجرة، ولا تخرجي منها حتى أعود». وخرج وأغلق الباب وراءه.

فجلست وقد خلت بنفسها في تلك الحجرة الحقيرة، فتلفتت فلم تجد حولها إلا جدراناً عارية عليها رفوف من الخشب قد سمرت فيها. وعلى الأرض حصير بال فوقه فراش قذر، والمكان موحش مظلم. وذكرت قصر أبيها وما كانت فيه من النعيم وما بنته من قصور الآمال، وكيف تهدمت تلك القصور في ساعة، فقتل والدها وخانها حبيبها وخرجت هاربة تائهة لا تعرف مقرها، وفكرت في أسباب هذا الشقاء فلم تجد ملوماً غير أبي مسلم، وتصورت ما كان له من الحب في قلبها وكيف قابلها بالجفاء وهددها بالقتل بعد أن فتك بأبيها. فانقلب حبها بغضاً شديداً وأصبحت لا تستطيع تصوّره. وهذه سنّة الطبيعة في البشر، فإن المحب إذا رأى من حبيبه غدراً أو خيانة انقلب حبه بغضاً شديداً، وما نبرىء أبا مسلم من الشدة والقسوة، ولعل عذره أنه كان يكره النساء ويعد الزواج جنوناً، بل هو لا يعرف عواطف المحبين لأنه لم يكن يحب ولا يشعر بالحب. وذلك نادر في الناس لأن الحب يدمث الأخلاق ويلطف الطباع وهو

أبو الشفقة وشقيق الحنان، ولولاه لأكل الناس بعضهم بعضاً، وقد كان أبو مسلم لا يبالي قتل أبيه أو أخيه إذا رآه حاجزاً في سبيل مطامعه. فلما علم بتلاعب الدهقان، بادر إلى قتله ليأمن شره، ولو كان في صدر أبي مسلم ذرة من حب لاستجاب لاستغاثة جلنار، ولم يكافئها على حبها بعرض رأس أبيها عليها.

قضت جلنار في مثل هذه الهواجس حيناً حتى نسيت نفسها، ثم فطنت إلى أنها وحيدة في تلك الحجرة لا تسمع إلا صهيل الخيل في الخان وقد ملأته رائحة الدواب. وتذكرت بيت أبيها وموته، فغلب عليها الحزن فعادت إلى البكاء ولم ترَ ما يفرج كربها سواه. ولكنها كانت تحاذر أن يُسمع صوتها، فيأتي إليها أحد وهي وحدها. والمصيبة تبدو ساعة وقوعها هيّنة في عيني صاحبها، ثم تعظم عنده حتى تبدو على حقيقتها، فإذا طال صبره عليها تصاغرت حتى يزول وقتها. وكذلك جلنار لم تدرك عظم مصيبتها لأول وهلة، فلما خلت بنفسها وأطلقت العنان لخيالها أخذت مصيبتها تنجلي لها وتتعاظم عندها، وكانت حتى هذه الساعة تشعر بشيء كالانعطاف نحو أبي مسلم هو بقية الحب الصادق له، على أن ذلك الشعور لم يكن يمكث إلا كلمح البصر ثم يزول ويخلفه الغضب وحب الانتقام.

وغلب عليها النعاس، فغمضت عيناها لحظات قليلة رأت في أثنائها فيما يرى النائم أبا مسلم كما رأته للمرة الأولى في بيت أبيها، وأنه جاملها ولاطفها فتشاكيا وتعاتبا. وتذكرت وهو يلاطفها ما كان من جفائه وخيانة عهدها بقتل أبيها، فتوهّمت أن الجفاء كان في الحلم وأنها عادت إلى اليقظة فرأت حبيبها على عهده. ثم ما لبثت أن استيقظت فرأت حلمها يقظة ويقظتها حلماً. ولكن شبح أبي مسلم كان لا يزال مرسوماً أمامها، فجعلت تخاطبه وتعاتبه قائلة: «أهذا

شرط المحبة يا قاسي القلب؟ تقتل أبي وتخون عهدي ثم تهددني بالقتل وتزج بي في السجن؟».

وفيما هي كذلك سمعت خشخشة ورأت شيئاً مرّ من بين يديها مرور السهم، فأجفلت ونظرت حولها، فإذا هو جرذ دخل الحجرة من ثقب في الحائط تحت الباب وانصرف إلى ثقب تحت بعض الجدران، فقلقت وخافت الجلوس على الحصير، فوقفت وكان لوقوفها فجأة ضجة أفزعت جرذاً كان كامناً وراء الفراش فنفر، وكان لعدوه على الحصير خشخشة شغلت جلنار عن هواجسها. وأصبح همها تجنب الجرذان والحشرات، مخافة أن تمس يدها أو رجلها. وحدثتها نفسها بأن تخرج من الحجرة ولكنها لم تجرؤ لأنها لا تعرف أحداً في الخان، فاستبطأت عودة الضحاك وخافت أن يكون لإبطائه سبب ينذر بالشر، فضاقت الدنيا في عينيها. ثم سمعت سعاله في فناء الدار، فخفق قلبها بسرعة وتهيأت لملاقاته، وأصغت لتسمع وقع قدميه على السلم ثم في طريقه إلى الحجرة فلم تسمع شيئاً، فاستغربت وتوهمت أنها سمعت هتاف بعض الأرواح من الجان، فاقشعر بدنها وجمد الدم في عروقها. وظلت واقفة في مكانها لا تجرؤ على المشي ولا على القعود، وأمسكت تنفسها مبالغة في الإصغاء. فمضت دقائق وهي لا تسمع غير وقع حوافر الدواب وأصوات شخيرها، ثم سمعت صوتاً لم تشك في أنه صوت صالح يقول: «أعد كل شيء ريثما أعود». ثم سمعت خفق نعاله على السلم فاطمأن خاطرها، وأسرعت نحو الباب وفتحته فرأت صالحاً وحده والدهشة ظاهرة على وجهه. فقالت: «أين ريحانة؟».

قال: «هي هنا، هيا بنا للخروج من المدينة قبل إقفال أبوابها، والخيول معدة في فناء الخان». قال ذلك وأخذ يبحث عن جبة

الحاجب وقلنسوته وكان قد تركهما هناك عند ذهابه، ولبسهما بعد أن خلع قلنسوته وجبته بأسرع من لمح البصر، ثم مشى بين يديّ جلنار.

فتبعته على السلم وهي تتعثر بأذيالها، ولما وصلا إلى فناء الخان رأت جلنار ثلاثة جياد مسرجة وريحانة واقفة بجانب واحد منها، فقال صالح: «اركبي يا مولاتي هذا الجواد». وأشار إلى ريحانة فركبت جواداً، وركب هو الجواد الباقي، وأشار إلى صاحب الخان فأمر رجلاً بأن يسير في ركابهم ليعود بالجياد. ثم ساق جواده أولاً، وقال لجلنار: «تثبتي على جوادك يا مولاتي واتبعينا». وأوصى الرجل بأن يبقى إلى جانبها ليساعدها عند الحاجة.

مشى الركب على هذه الصورة وكلهم سكوت، وجلنار تصبّر نفسها عن استطلاع السبب الذي أوجب هذه العجلة. وبعد قليل وصلوا إلى باب المدينة فوجدوه موصداً كالعادة عند الغروب. فصاح صالح بالبواب صيحة ذي سلطان: «ما بال بابك لا يزال مقفلاً، كنت نائماً عندما جاءك الأمر بفتحه منذ ساعة؟».

فرأى البواب رجلاً يخاطبه كمن له سلطان وعليه ثياب الحجاب، فصدقه وخاف أن يبلغ أمره لأبي مسلم، لأنه كان عند العشاء غائباً إذ ذهب لتناول الطعام في منزله، ولم يدر في خُلده أن الأمير بعث مَن يأمر بفتح الباب. فظن الأمر جاءه أثناء غيابه فهَمّ بالاعتذار فقطع صالح كلامه قائلاً: «لا بأس الآن، أسرع وافتح الباب فإن مهمتنا عاجلة ولا وقت لدينا لسماع الأعذار».

فأسرع الرجل وفتح الباب، وما إن أصبحوا خارج المدينة حتى ساقوا خيولهم وصالح دليلهم، وكلما قطع مسافة تفقّد جلنار وريحانة فقد كان الظلام مخيماً، ولكنه كان خبيراً بتلك المنطقة، يعرف الطرق السهلة والصعبة والجهات المأهولة وغير المأهولة. فلما بعدوا عن

مرو، أمسك عنان جواده حتى لحق به جواد جلنار، وسألها: «هل أنتِ متعبة؟». فقالت: «نعم، تعبت ولم أفهم سبب هذه العجلة».

قال: «سأخبرك عند وصولنا إلى القصر».

قالت: «وأي قصر؟».

قال: «قصر مولاي الدهقان فإننا على مقربة منه».

فاطمأن قلبها لقربها من بيت أبيها، وبعد قليل أطلوا على القصر، فأسرع إلى الباب فطرقه، وصاح بالبوّاب: «افتح للدهقانة»، فدُهش البوّاب ولم يصدق حتى سمع صوتها تناديه. ففتح لهم، فدخلوا على جيادهم وترجلوا في الحديقة، ومدّ صالح يده وأعطى الغلام كيساً وأمره بالرجوع، فركب أحد الجياد وساق الجوادين الآخرين وراءه ورجع إلى مرو.

وكان أهل القصر نياماً، فأمرت الدهقانة البوّاب ألاّ يوقظ أحداً منهم حتى الصباح. ودخلت وصالح وريحانة معها إلى قاعة أبيها، وهي على مثل الجمر لاستطلاع الخبر. فلما دخلوا قالت: «قل ما وراءك يا صالح، فقد أقلقت بالي».

قال: «إن الذي ستسمعينه أخطر، فلا ينبغي لنا أن نبيت هنا، فاسمحي لي أن آمر بإعداد الخيول من مرابط أبيك لنبرح القصر مسرعين».

قالت: «افعل». فأيقظ السيّاس، وأمرهم أن يعدوا ثلاثة جياد سهلة القياد. وعاد إلى القاعة وجلنار وريحانة في انتظاره على أحر من الجمر، فلما دخل جلس جاثياً وقال: «إني لما رجعت لاستقدام ريحانة مررتُ بدار الإمارة، فرأيتُ الناس في هرج ومرج، وعلمت أن أبا مسلم علِم بفرارك فأمر بالبحث عنك في غرف الدار وما يجاورها.

فإذا لم يجدوك بعثوا مَن يأمر بوّابي المدينة بمنع الناس من المرور إلا مَن عرفوه أو أتاهم بجواز، فهرولت مسرعاً إلى قصر صاحبكم الدهقان، وناديت ريحانة وأتيت بها حتى وصلت إلى الخان. ثم أمرت صاحب الخان بإسراج الجياد، وذهبت لاستقدامكم فركبنا وجئنا إلى هنا».

فأُعجبت بدهائه وغيرته، وقالت: «وما الباعث على سرعة خروجنا من هذا القصر؟».

قال: «السبب يا سيدتي أن أبا مسلم سيبعث في صباح الغد مَن يصادر هذا القصر وما فيه، وقد سمعته يقول ذلك عندما هدد المرحوم أباك بالقتل، فلا بد له بعد أن يعلم بفرارك من مرو أن يبحث عنك هنا. وهل في وسعك الوقوف في وجهه وهو صاحب السلطان وليس في قلبه شفقة ولا حنان؟».

فعظمت مصيبتها بهذا الخبر، لأنها كانت تنوي ليأسها أن تأوي إلى بيت أبيها فتقيم به وتعيش راضية، وتتناسى مقتل أبيها بالزواج من أحد الدهاقين. فلما سمعت كلام صالح غصت بريقها، ولم تتمالك عن البكاء وقالت: «ألا يكفي هذا الظالم قتل أبي وخيانة عهدي حتى يضع يده على أموالنا وضياعنا؟».

قالت ذلك وأجهشت بالبكاء، وشاركتها ريحانة، فقال صالح: «إن البكاء لا ينفعنا يا مولاتي، بل هو يزيد في وقع المصيبة، وليس حطام الدنيا مما يطمع فيه بعد ذهاب صاحبه. دعي أبا مسلم يفعل ما يريد، وسوف ينال جزاءه بإذن الله. سوف ننتقم منه انتقاماً ينسيك كل هذا العذاب».

فارتاحت نفسها إلى ذكر الانتقام، وليس أشفى منه لقلب الموتور، فقالت: «أتنتقم لي منه؟».

قال: «أنتقم لك ولي. ألَم يأمر بقتلي، ولولا المقادير لذهبتُ مع

ابن الكرماني في ساعة واحدة؟ ولكن الله أبقاني لأنتقم لك».

فقالت: «إن الأقدار دبّرت ذلك رفقاً بي، لأني لولاك ما عرفت مصيري. فالآن كيف العمل؟».

قال: «ينبغي لنا قبل كل شيء أن نحمل ما في هذا القصر من خفيف الحمل وغالي الثمن. فاعهدي إليَّ في ذلك وعليَّ تدبيره».

فالتفتت جلنار إلى ريحانة وقالت: «ريحانة تعرف كل شيء».

فقال لها: «اذهبي وأتيني بالنقود والحلي».

فنهضت ريحانة، فقالت لها جلنار: «لا تتركي شيئاً من الحلي ولا النقود ولا تنسي ثيابي. واختاري منها أحسنها وأمري الخازن أن يعطيك مفتاح خزانة أبي لعله أبقى فيها شيئاً لم يحمله إلى ذلك الخائن».

فقالت ريحانة: «إن هذه الأموال تحتاج إلى دابة أو دابتين لحملها».

قالت: «مري السياس أن يعدوا بغلين مع الدواب التي يعدونها».

فخرجت ريحانة وظَل صالح مع جلنار، فقال لها: «أريد منك يا مولاتي أن تتخلقي بأخلاق الرجال وتخلعي عنك ضعف النساء، فإننا مقبلون على عمل عظيم يقتضي الصبر والدهاء، فإذا كنت لا تصبرين على التعب أو لا ترين الانتقام فقولي الآن ولا تحمّلي نفسك مشقة الأسفار».

فقالت: «وكيف لا أرغب في الانتقام من رجل سلبني أهلي ومالي وأخرجني من بيت أبي طريدة شريدة، وخان عهدي وهددني بالقتل؟ فإذا كنت أنت تريد الانتقام لأنه أراد قتلك فكيف بي أنا؟ ولا تحسب خيانة العهد أخفّ وقعاً على نفسي من اليُتم. ولا لوم عليَّ إذا

أردت قتله وأنا فتاة، فهو الذي علمني قتل الرجال، وأنت تعلم كم ترددت يوم اقترح علينا قتل ابن الكرماني، وكم أعظمت تلك الجريمة ثم ارتكبتها التماساً لقربه وتضحية لحبه، فكافأني بالخيانة والغدر، فلا غرو إذا انقلبت عاقبة سعيه عليه».

قال: «إذا كنت مصممة على هذا فأنا طوع مشيئتك. وأما الآن فلا بد لنا من وضع الخطة للبدء في العمل، لأننا لا نقدر على هذا الرجل بالسيف وهو صاحب القوة، ولا نقدر عليه بالدهاء وهو أدهى الناس».

فأحست جلنار بقصر باعها في هذا الشأن وبانَ الارتباك في وجهها، فابتسم صالح وقال: «لا تقنطي يا مولاتي، ولا تظني أني أسألك لعجزي عن الوسيلة، ولكنني أستطلع رأيك».

قالت: «كيف أعرف الوسائل وأنا لم أخرج من بيت أبي قبل ذلك، فدبّر أنت ما تراه وأنا معك».

قال: «ذلك ما كنت أرجوه من تعقلك وحزمك. فاعلمي يا مولاتي أننا لا نقدر على الكيد لأبي مسلم إلا في الشام عند الأمويين، فهم أعداؤه الألداء وهم الذين ينتقمون لنا منه».

قالت: «وكيف ينتقمون لنا؟ هل يجردون جيشاً لقتاله دفاعاً عنا، وهَب أنهم يفعلون فهل تراهم يفلحون والرجل محصن في مرو؟».

قال: «لا أعني أن يجردوا جيشاً لحربه، لأنهم كما قلت لا يفعلون ذلك من أجلنا، وإذا فعلوه لا يفلحون. ولكنني أهديهم إلى جذر الشجرة ليقطعوه فتسقط الشجرة».

فلم تفهم جلنار مراده فقالت: «وأي شجرة تعني؟».

قال: «أعني صاحب هذه الدعوة الذي قام أبو مسلم وأصحابه يدعون الناس إليها باسمه».

قالت: «أظنك تعني إبراهيم الإمام؟».

قال: «إياه أعني».

قالت: «وكيف تتوصل إلى ذلك الجذر وأين هو؟».

قال: «هو في الشام في مكان لا يعرفه إلا القليلون».

قالت: «وهل تعرفه؟ وأين هو؟».

قال: «إنه في الحميمة في أرض البلقاء بالشام».

قالت: «وما الذي جاء به إلى هناك؟».

فقال: «لا يتسع الوقت لسرد حكايته بالتطويل فأختصرها لك، وهي أنه لما مات النبي لم يرضَ بالخلافة لأحد فاختلف أصحابه عليها. وكانوا فئتين: المهاجرين الذين هاجروا معه من مكة إلى المدينة فراراً من ظلم أهلها، والأنصار الذي نصروه لما جاء المدينة. وبعد خلاف شديد أجمعوا على أن المهاجرين أَوْلى بالخلافة فتولاّها واحد منهم ثم الثاني والثالث، شورى بينهم، ولم يكونوا يعرفون توريث الملك كما يفعل الفرس. ولكن أهل النبي الأقربين كانوا يرون التوريث ويعدون خروج الخلافة من أيديهم حيفاً وظلماً. وأقرب الأقربين من النبي عمه العباس وابن عمه عليّ بن أبي طالب. فبعد الخلفاء الثلاثة تولاها عليّ ابن عمه لكنها لم تبقَ في ولده، فأخذها منهم بنو أمية بالدهاء والعصبية، وتوارثوها نحو مائة سنة، حتى مروان بن محمد الذي يحاربه أبو مسلم الآن. وكان أولاد عليّ وأولاد العباس في هذه الفترة يسعون إلى استرجاع الخلافة، وهم أهل البيت وكل منهم يطلبها لنفسه. وآل عليّ فئتان: إحداهما نسل ولده من

فاطمة بنت النبي، والأخرى نسل ابنه من أخرى واسمه محمد بن الحنفية. وكان كل من هؤلاء يطلبها لنفسه أيضاً. فاتفق أن هاشم بن محمد بن الحنفية جاء دمشق وافداً على سليمان بن عبد الملك الأموي، فرأى سليمان منه فصاحة وقوة فخافَه وأوعز بدس السم له في اللبن، فلما حس هاشم قُرب أجله وهو راجع إلى المدينة خشِيَ أن يموت قبل أن يعهد في أمر الخلافة لأحد من أهله، ولم يكن أحد منهم معه، فعرج على بلد في البلقاء يُقال لها الحميمة كان بنو العباس يقيمون بها ويدعون الناس إلى بيعتهم سراً. وكان صاحب دعوتهم يومئذ محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس، فنزل عنده هاشم وأوصى إليه. وكان معه جماعة من شيعته أنزلهم عنده وأوصاه بهم، ولما مات هاشم أخذ محمد في بث الدعاة، ثم مات هو أيضاً وخلف أولاداً كثيرين منهم الإمام إبراهيم، فقام بعد أبيه بالأمر واستكثر من بث الدعاة إلى الأطراف ولا سيما خراسان، لأن الشيعة كانوا أشد وثوقاً بأهل خراسان».

فسألته جلنار قائلة: «ولماذا لم يسعوا في غير هذه البلاد؟».

قال: «لأن هوى أهل الشام ومصر مع بني أمية، وفيهما أهل الدولة. أما الحجاز فأهله قليلون لا يستطيعون القيام بالدعوة. وأما أهل البصرة والكوفة فكان أهل البيت لا يأمنون جانبهم لأنهم خانوهم غير مرة. وهذا فضلاً عن أن الخراسانيين ناقمون على بني أمية لاحتقارهم إياهم ولعسفهم فيهم كما تعلمين، فرأوا منهم أذناً صاغية. وكان أهل خراسان من قبل يبايعون لآل عليّ ضد بني أمية، فوفّق إبراهيم الإمام إلى أبي مسلم هذا وبعثه قائداً لدعاته ونقبائه. فتمكن بدهائه وبأسه وقسوته من فتح مرو كما رأيت، وهو يتظاهر بالمبايعة لأهل البيت على التعميم، فالناس يبايعون الآن لإبراهيم الإمام باسم أهل بيت النبي على أن يتناوبها العباسيون والعلويون.

ولكنني أرى العباسيين يعتزمون أن يستأثروا بالأمر لأنفسهم، فإبراهيم الإمام هو مركز الدائرة التي تدور عليها هذه الدعوة وهو مقيم بالحميمة، ولا يعلم به مروان بن محمد صاحب دولة أمية. فالذي أراه أن نسعى في كشف هذا السر لمروان فيبعث مَن يقبض عليه، ومتى حبسه أو قتله ذهبت مساعي أبي مسلم هدراً فيشتد أمر بني أمية، وهذا أشد انتقام نستطيعه».

فارتاحت جلنار إلى رأيه، وقالت: «هذا هو الصواب».

قال: «لا بد لنا من مغادرة هذا المكان سريعاً بما خف حمله وغلا ثمنه، ثم نسافر إلى العراق فالشام ونسعى في الأمر».

فقالت: «لمن نترك هذا القصر وهذه الحدائق؟».

قال: «نتركها لذلك الظالم صاحب السلطان الآن. وهو يطلب حياتنا، فإذا نجونا بها غلبناه، ولا يغنيه البنيان ولا الأشجار شيئاً عما سندبره لهلاكه بإذن الله».

وفيما هما في الحديث جاءت ريحانة مسرعة تقول: «قد أعددت ما يلزم وجمعت الحلي والنقود والثياب، وهي كثيرة تحتاج إلى عدة بغال لحملها، وأوصيت السائس أن يعد الجياد والبغال».

فقال صالح لجلنار: «هلم بنا يا مولاتي».

فنهضت وخرجت من القاعة وأطلت على الحديقة، فسمعت صهيل الجياد ورأت البغال وعليها الأحمال، فذكرت أنها خارجة من البيت الذي وُلدت فيه ورُبّيت بين أشجاره وجدرانه في عز ونعيم وحولها الجواري والخدم، ورأت كيف تخرج منه هاربة إلى ديار غربة لم تطأها قدماها من قبل، سعياً إلى أمر خطير يقصر عنه كبار الرجال، فغلب عليها ضعف النساء فدمعت عيناها. وكان صالح يراقبها

ويخاف ضعفها، فلما لحظ ذلك فيها ابتدرها قائلاً: «لا بد لنا من الإسراع قبل أن يدركنا ذلك الظالم برجاله ويقبض علينا جميعاً فينال منا مرامه وتذهب مساعينا أدراج الرياح، فاختاري من خدَمك اثنين أو ثلاثة تثقين بهم يكونون معنا لخدمتك».

فلما سمعت قوله، قنعت بالنجاة والتفتت إلى ريحانة وقالت: «مَن تَرين أن نصطحب من الخدم الأمناء؟».

قالت: «نصطحب سعيداً الصقلبي، فإنه أمين ذكي في خدمتك خاصة، ونأخذ معنا أبا العينين، لأن أصله من العراق ويعرف عادات البلاد وطرقها فيكون لنا عوناً ودليلاً، وإذا شئت خادماً ثالثاً فسليمان الحلبي لا بأس به لأن أصله من الشام».

فاستحسنت جلنار رأيها وقالت لها: «ابعثي إليهم الساعة».

فمضت ريحانة في مهمتها هذه، ووقفت جلنار في انتظارها تفكر في أمرها وفي مصير القصر وأهله، قائلة لنفسها: «إن أهل هذا القصر سعداء لأنهم لم يعلموا بما أصاب مولاهم ولا بما يهددهم من الخطر في الغد!». ثم نظرت إلى صالح وقالت له: «أنترك أهل هذا القصر مهدَدين في خطر القتل والأسر ولا نحذرهم؟».

قال: «لا بد من ذلك، ولكن بعد خروجنا ونجاتنا بما معنا».

ثم جاءت ريحانة ومعها الخدم الثلاثة. وكان سعيد الصقلبي من أسرى الأندلس لما فتحها موسى بن نصير سنة ٩٢ هـ. وقد أُخذ يومئذ وهو في الخامسة من عمره، فكان من نصيب أحد الجند، وباعه هذا إلى أحد النخاسين الذين يتجرون بالرقيق الأبيض، فألحقه بمن عنده من الخصيان وسمّاه سعيداً، ثم اشتراه منه دهقان مرو، وعاش في قصره زمناً طويلاً يتكلم بالعربية والفارسية، ناسياً لغة بلده، وسمّوه صقلبياً لبياضه. وكان طويل القامة والساقين، قليل شعر الوجه،

صغير العينين، صوته كصوت النساء. وأما أبو العينين فلُقّب بذلك لكبر عينيه وجحوظهما، وأصله من أنباط العراق، دخل في خدمة الدهقان من صغره، وانقطع إليه. وأما سليمان الحلبي فأصله رومي، وقد وقع أسيراً في إحدى المعارك بين الروم والعرب، وبيع على العادة الجارية في تلك الأيام، وظل يتنقل من سيد إلى سيد حتى دخل في حوزة الدهقان. فأعجب هذا بحسن خلقه، ورأى فيه مروءة فأعتقه وخيَّره بين البقاء عنده أو الذهاب إلى بلده، فآثر المكوث عنده لأنه ألِفَ المكان ولم يعد يعرف مصير أهله.

وأخذ الثلاثة يستعدون للرحيل وهم لا يعرفون الغرض منه. وكان الفجر قد دنا فأشار صالح بالركوب، فركبوا وهو في مقدمتهم، بعد أن ذكر لبوّاب القصر وبقية الخدم أنه عائد إليهم بعد قليل، فصدقوا ذلك لأنهم لم يعلموا بمقتل دهقانهم، ولا بما ينويه أبو مسلم من الفتك بهم.

وبدأ الركب سيره بعد الفجر بقليل، فلما بعدوا من المحلة أوقفهم صالح وأخبرهم أنهم ذاهبون في خدمة الدهقانة جلنار إلى الحج، وإن ذهابها لا ينبغي أن يعلم به أحد، فإذا سئلوا عن المكان الذي جاؤوا منه فليذكروا أنهم من مدينة بلخ، خرجوا يريدون اللحاق بقافلة سبقتهم منذ يومين قاصدة بيت الله الحرام. وأوصاهم بألا يذكروا اسم الدهقانة ولا الدهقان لأسباب سيطلعهم عليها بعد قليل. ثم تقدم إلى الدهقانة، وقال لها: «سأرجع إلى القصر لأخبر مَن فيه بالواقع، فابعثي معي رجلاً من أتباعك يؤيد قولي. وامكثوا هنا حتى نعود».

فأمرت سعيداً الصقلبي أن يرافقه، فسار معه طوعاً لأمرها وهو لا يفهم القصد من ذلك. ولكن صالحاً أسرَّ إليه حقيقة الأمر

وأوصاه بأن يساعده في أداء تلك المهمة، فلما بلغا القصر، رأيا أهله في مرج وقد استيقظوا من رقادهم وعلموا بمسير مولاتهم، فدعا صالح قيِّم الدار وأخبره على انفراد بمقتل الدهقان وأن أبا مسلم سيرسل مَن يستولي على القصر وما فيه وطلب إليه أن يتدبر الأمر على أساس أن الدهقان أعتق عبيده وجواريه جميعاً وأن القصر صارَ ملكاً حلالاً لهم.

وسأله القيِّم عن الدهقانة، فأجابه بقوله: «إنها انتقلت إلى بعض أهلها في نيسابور، وقد أرسلتني لأبشرّكم بالعتق والحرية، وبأن لكم كل ما في القصر، وهذا سعيد يؤيد قولي».

وأمن سعيد على قوله مؤكداً أن الدهقانة أوصته بهم خيراً، وأنه بعد أن يعاونهم على تدبير أمرهم سيوافيها إلى نيسابور بعد بضعة أيام.

وعاد صالح وسعيد إلى الدهقانة ومَن معها، وجدّوا في السير حتى انتصف النهار وقد بعدوا عن مرو، فحطوا رحالهم للاستراحة، ونصبوا خيامهم بجانب عين ماء في ظل الأشجار. ثم دخل صالح على جلنار في خيمتها وعندها ريحانة وقال لها: «ينبغي أن نطلع خاصة خدمكِ على الأمر، ونكتمه عن الآخرين من السيّاس وأمثالهم».

فقالت: «افعل ما تراه، فإني ما زلت أحسبني في حلم من هول ما رأيته بالأمس، كما أني لم أذق طعم النوم».

قال: «نحن هنا في مأمن، فنامي واستريحي لأن سفرنا طويل. وسأدبر أنا الأمر الآخر».

قالت: «وأي أمر تعني؟». قال: «أتظنين صالحاً يغفل عن فرصة تسنح له فلا يغتنمها؟ سأدبر حيلة ألقي بها الشقاق بين أبي مسلم ونقبائه!».

قالت: «وكيف ذلك؟ وأي النقباء تعني؟».

قال: «أتعرفين سليمان بن كثير؟».

قالت: «أنت أخبرتني بأنه كبير النقباء وأنه قديم في تلك الدعوة».

قال: «هو أقدم من أبي مسلم فيها، ولكنه كان يدعو أهل خراسان إلى بيعة أبناء عليّ بن أبي طالب، فلما توفي صاحب الدعوة العلوية، وآلت بعد ذلك إلى الإمام إبراهيم، اختار أبا مسلم رئيساً للنقباء وفي مقدمتهم سليمان بن كثير، وهذا كما تعلمين شيخ وقور، فشق عليه أن يكون مرؤوساً لشاب ناشىء كأبي مسلم ولم يقبل أن يكون تحت قيادته إلا مرغماً. على أن أبا مسلم ما لبث أن حول الدعوة فجعلها لآل النبي عامة من العباسيين والعلويين. والذي أراه أنه فعل ذلك تمهيداً لنقل الدعوة إلى آل العباس وحدهم. وإني أعلم أن سليمان بن كثير لا يريد ذلك بل يؤثر بقاء الدعوة لآل علي، ولهذا أرى أن أكتب إلى سليمان أستحثه على البيعة لآل علي، وأبين له غرض أبي مسلم لأهيج الضغائن بين الرجلين، وهما دعامة الدعوة فإذا اختلفا اختل نظامها».

فأُعجبت جلنار بدهائه، وتجددت قواها وآمالها وقالت: «بورك فيك افعل ما تراه».

فنهض وقال لريحانة: «أنت أيضاً في حاجة إلى النوم، فاذهبي إلى فراشك وأنا ذاهب إلى شأني». قال ذلك ومضى إلى حيث انتحى ناحية، وكتب كتاباً هذا نصه:

«من دهقان يخاف أن يذكر اسمه إلى سليمان بن كثير».

«أما بعد فإنك جئتنا منذ بضع سنين تدعونا إلى بيعة أهل النبي،

لأنهم أقرب للتقوى والعدل، فأطعنا وبايعناك لننجو من ظلم بني أمية لأنهم يرهقوننا بخراجهم ويسيئون إلينا، وكنا نرجو أن تكون نجاتنا على يدك وأنت شيخ عاقل حكيم. ثم ما لبثنا أن رأيناك وجميع النقباء في قبضة غلام لا يُعرف له أصل، وقد استبد بكم وتطاول عليكم، وحسبنا أول الأمر ألا ضير من رياسته عليكم، وأنه اختير لها لميزة فيه، ولكننا وجدناه لا يمتاز إلا بسفك الدماء والقسوة وحب الأثرة، وأنه يستخدمكم لمطامعه ولا يبالي أن يقتل أياً كان التماساً للسلطان، فيستخدم الناس لغرضه ثم يقتلهم، كما فعل بالكرماني، وكما فعل بدهقان مرو الذي قتله شر قتلة. وهو يزعم أنه يقتل على الشبهة بأمر الإمام، وقد عرفنا الأئمة يحاسبون أنفسهم على حشرة يقتلونها، فكيف يقتل الناس؟ بل كيف يقتل كبار المسلمين الذي هم عُمُد الدعوة وخراسان في قبضتهم. ومن أجل ذلك أصبح دهاقين خراسان وأنا منهم في خوف على حياتهم من ظلم ذلك الغلام. على أن ظلمه لن يلبث أن يشمل النقباء أنفسهم وأنت في مقدمتهم، فلا بد من أن يأتي يومك، وهو لا يحتاج في تبرير قتلك إلى أكثر من الشبهة. والذنب في ذلك ذنبك أنت، لأنك سبب هذا البلاء، وقد كنت على رأس النقباء تدعو الناس إلى بيعة خليفة يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولا يقتل المسلمين ولا يظلمهم، فجعلت نفسك عبداً لغلام يزعم أن إمامه أمره بقتل الناس على الشبهة. وما أراه إلا متلاعباً بكم جميعاً، فهذا هو قد حوّل البيعة من أبناء عليّ إلى أهل البيت عامة، تمهيداً لإخراجها من العلويين وجعلها في بني العباس وحدهم، وذلك ليستقل بها صاحبه ومولاه الإمام إبراهيم، وتذهب مساعي العلويين ونقبائهم هباء منثوراً. فإذا كنتم لا تزالون وفيكم بقية عقل وحمية، فاستدركوا الأمر قبل استفحاله، وارجعوا البيعة لأصحابها الأتقياء. واعلموا أنكم إذا فعلتم ذلك كان دهاقين خراسان

وكل أهل فارس من أنصاركم.

«فبادر يا ابن كثير إلى استدراك ما فات وارجع البيعة لأصحابها، وأنقذ المسلمين من أناس يقتلون على الشبهة، ولا يستثنون. فإن لم تفعل فستكون أول مَن تقع النقمة على رأسه. وهذا إنذار لك ولكل النقباء الذين استسلموا لذلك الغلام، والسلام».

ولما فرغ من كتابة الكتاب، لفّه وجعله في أنبوب من القصب الفارسي، وحمل الأنبوب بعد أن سده وخرج إلى خيمة الخدم، فلقي سعيداً في الطريق عائداً من خيمة جلناز، فناداه وسأله عن الدهقانة، فلما علم منه أنها ما زالت مستغرقة في النوم، قال له: «عندي كتاب أريد أن أبعث به إلى مرو، فهل عندك خادم تثق به في أمانته لنرسله في هذه المهمة على أن يكتم أمرها؟».

فقال: «عندنا سائس أبكم سريع الفهم».

قال: «إن البكم نافع في هذه المهمة، ولكن الأبكم يكون أصم أيضاً. فكيف نفهّمه مرادنا؟».

قال: «إن هذا الأبكم غير أصم، فهو يسمع ولكنه لا يقدر على الكلام».

قال: «وهل امتحنت أمانته؟». قال: «نعم». ثم أشار إلى أحد السياس، فجاء إليهما مهرولاً، وهو قصير القامة أسمر اللون ممتلىء الجسم، ودلائل الصحة بادية في استدارة وجهه وغلظ عنقه واتساع صدره، وكان جذعه عارياً إلى الحقوين فبانَ الشعر كثيفاً على صدره وكتفيه. ولم يكن عليه من الكساء إلا سراويل قصيرة تغطي فخذيه إلى أعلى الركبة، فوقف وأشار برأسه إشارة التحية، فقال له صالح: «أتعرف مرو؟». فأشار برأسه أن: «نعم».

قال: «أتعرف أميراً اسمه سليمان بن كثير؟». فأشار بيديه وأصابعه أنه عرفه عندما نزل أبو مسلم على الدهقان.

وتحقق صالح من إشارات أخرى أنه يعرف الأمير، فناوله الأنبوب وقال له: «خذ هذا وامض مسرعاً إلى مرو، فاذهب تواً إلى دار الإمارة حيث تجد الأمير هناك فادفعه إليه ولا تجبه بأي شيء. ثم ارجع إلينا فتجدنا في انتظارك هنا أو في المحطة التالية».

فتناول السائس الأنبوب، وهَمّ بالانصراف، فاستوقفه صالح وقال: «اختر لنفسك دابة تركبها». فضحك السائس وأشار إلى قدميه الغليظتين، وقبض يده بشدة معبراً بذلك عن قوتهما وعن اعتماده عليهما أكثر من أي دابة. فربت صالح كتفه تحبباً وثناء. وقال له: «بورك فيك». فأشار الرجل برأسه إشارة الوداع، ومضى آخذاً طريقه إلى مرو، وكأنه نعامة تعدو هرباً من مطاردة صياد، وظل صالح وسعيد ينظران إليه ويعجبان من سرعته حتى توارى عن أبصارهما. فمضى صالح إلى خيمته حيث استلقى، وأخذ يفكر فيما ينبغي له أن يعمل بعد ذاك.

رأى صالح أن المكان الذي نزلوا به لا يبعد كثيراً من مرو، وخيّل إليه أن أبا مسلم علِم بمكانهم، فأرسل مَن يقتفي أثرهم ويقبض عليهم، ثم إلحاقهم بمَن سبقوهم من ضحاياه العديدين. فاعتزم الرحيل من ذلك المكان، اتقاء لذلك الخطر المحقق إذا هم وقعوا في قبضة أبي مسلم، ولكنه رأى تعذر متابعة السير في تلك الساعة، لما تشكوه جلنار من التعب والاجهاد وشدة حاجتها إلى النوم، فعزم على السفر حالما تستيقظ ولو في منتصف الليل. وبينما هو غارق في تلك الهواجس، إذ سمع أجراساً ترن عن بُعد، فاختلج قلبه ونهض مذعوراً، لعلمه أنها أجراس قافلة مارة من هناك. وأصاخ

بسمعه ليتبين وجهة القافلة، فأدرك أنها قادمة من الشمال. ورجّح عنده أنها من القوافل التي تتردد بين العراق وخراسان، فخرج من خيمته لعله يراها عن بُعد، ولكنه لم يستطع لاحتجابها خلف التلال، فأسرع إلى ثيابه وتنكر بلباس حاجب أبي مسلم وقُلنسوته، ثم ذهب إلى سعيد وأبي العينين وسليمان، وأخبرهم بخبر القافلة وأنه عازم على تنسّم الأخبار منها، وأوصاهم بأن يكونوا على حذر فلا تبدر منهم كلمة أو إشاة تدل على حالهم. ثم امتطى جواداً مضى به إلى مصدر صوت الأجراس. فلما لاحت له القافلة، وجدها تتألف من بعض الجِمال، وفي مقدمتها حمار يمتطيه دليل شيخ، وإلى جانبي القافلة فرسان مدججون بالسلاح لحراستها، فعلم أنهم قاصدون أبا مسلم بأموال ومؤونة. فوقف معترضاً طريقهم، وأشار بيده إلى أقرب الفرسان إليه مستقدماً، فلما جاءه الفارس، صاح به في لهجة الآمر قائلاً: «لماذا هذا التباطؤ في المسير؟».

فلما سمعه الفارس يخاطبه بهذه اللهجة، ورأى عليه ثياب حجاب أبي مسلم، ظنه قادماً من لدنه لاستعجالهم فقال: «أتعدون مسيرنا بطيئاً وقد جئنا من الكوفة إلى مرو في عشرين يوماً حاملين هذه الأثقال؟».

فقال صالح: «بارك الله فيكم، إن الأمير متلهف على وصولكم، خشية أن يقابلكم في الطريق نصر بن سيار، ومَن فروا معه في هذه الأودية بعد فتح مرو».

فقال الفارس: «وهل فتحتم مرو؟». قال: «فتحناها منذ بضعة أيام، وأعلام الحق تخفق الآن فوق دار الإمارة، ولو عجلتم قليلاً لاشتركتم في الغنيمة. كيف فارقتم شيعتنا في الكوفة؟».

قال: «تركناهم في خير، وستشتد قلوبهم بخبر الفتح، ولا

سيما أبو سلمة».

قال: «وكيف أبو سلمة؟».

قال: «هو عمدتنا وذخرنا، وهذه الأموال كلها من عنده، فإنه لا يدخر وسعاً في سبيل الدعوة».

فتذكر صالح أن أبا سلمة هذا من كبار الأغنياء، وأنه بذل ماله في نصرة الشيعة، وكان قبل ظهور أبي مسلم ينصر شيعة عليّ أسوة بسليمان بن كثير، فلما تحولت الدعوة إلى العباسيين ورأسها أبو مسلم، أذعن كما أذعن ابن كثير، وصار يبذل أمواله في نصرتهم. ومرت القافلة وهما واقفان يتكلمان، وصالح ينظر إلى الأحمال الكثيرة وفيها صناديق الأموال. فقال للفارس: «واصلوا السير مسرعين إلى مرو، ولا تقفوا في هذه المحطة لتصلوا عند العشاء. أما أنا فسأجعل طريقي إلى الكوفة لنبشر شيعتنا بالفتح».

ثم سار الفارس في سبيله، وتظاهر صالح بأنه يسير نحو الكوفة، حتى إذا توارت القافلة عن بصره، رجع مقتفياً أثرها بحيث يرى أطرافها ولا يراه أحد من أهلها، فرآها لم تقف عند وصولها إلى المحطة إلا قليلاً ثم أقلعت، فسُرّ بذلك، ومضى إلى خيمته وبدّل ثيابه، وهو يفكر في أبي سلمة الخلال والسبيل إلى تحويله عن نصرة أبي مسلم، وفيما هو في ذلك جاء إليه سعيد الصقلبي مسرعاً مضطرباً وقال له: «أدرك مولاتي الدهقانة، فإنها أفاقت من نومها تبكي وتنتحب، ولا نعلم ما بها».

فعلم أنها تبكي يتمها وغربتها وقد أخذت تعي مصابها وتتبين هوله، فأسرع إلى خيمتها، فلقي ريحانة بالباب تشير إليه أن يسرع. فدخل الخيمة فرأى جلنار جالسة وشعرها مرسل على كتفيها، وقد احمرت عيناها وتكسرت أهدابها من البكاء، فلما رأته قالت له: «آه يا

صالح، بل يا ضحاك لأني هكذا كنت أناديك أيام نعيمي».

فقال: «هوّني عليك يا مولاتي، هل حدث شيء جديد؟».

قالت وهي تمسك نفسها عن البكاء: «آه يا صالح، كنت نائمة فرأيت كأن ذلك القاسي جاءني وفي يده خنجر، وهَمَّ بقتلي، فصحت به: (ويلك يا ظالم، أهذا جزاء المحبة؟) وعنّفته وعاتبته عتاباً شديداً وهو واقف لا يتكلم. وكنت مع شدة غيظي وحنقي أشعر بشيء في قلبي يجذبني نحوه، وكأن بين ناظريه وقلبي رباط لا أدري كنهه، فقلت له: (لا يغرنك ضعف هذا القلب فإني سأغلبه وأغلبك وأنتقم لأبي شر انتقام)..».

فقطع صالح كلامها متماجناً وقال: «احذري أن تذكري اسمي أو تقولي له إني خادمك في الانتقام لئلا يرسلني إلى خوارزم». قال ذلك وضحك.

فلم يسع جلنار إلا الضحك رغم ما بها، ثم أمسكت نفسها ونظرت إليه شزراً، فابتدرها قائلاً: «لا ذنب لي فإنك ناديتني باسمي القديم وتمنيت أن أرجع إليه فرجعت، والضحك على كل حال خير من البكاء. ولم أكن أعهدك تهتمين بأضغاث الأحلام وتستسلمين للضعف النسائي. وقد طلبت إليك منذ أول خطوة خطوناها أن تخلعي هذا الضعف».

قالت: «لا أزال متعبة، لا أستطيع تفكيراً أو عملاً».

قال: «لا أكلفك عملاً، فقد شرعت في العمل فكتبت كتاباً إلى سليمان بن كثير (وذكر فحواه)، وإنما أطلب إليك الصبر».

فشعرت جلنار بثقل أزيح عن صدرها وقالت: «صدقت لا حيلة لي غير الصبر». ثم مسحت عينيها والتفتت إلى ريحانة فرأتها

تذرف الدموع بلا بكاء ولا شهيق. فلما رأت مولاتها تنظر إليها تبسمت والدمع ملء عينيها وقالت: «تجلدي يا مولاتي، إن الفرج قريب بإذن الله».

ورأى صالح أن يغيّر مجرى الحديث فقال لجلنار: «أخبريني يا مولاتي، هل تعرفين أبا سلمة الخلال؟».

فظلت جلنار صامتة مطرقة كأنها تستوحي ذاكرتها، ويخيّل إليها أنها سمعت بهذا الإسم قبل الآن، فبادرت ريحانة إلى الجواب قائلة: «أظن مولاتي لا تذكره، ولكنني أعرف هذا الإسم جيداً فإنه لرجل فارسي من أثرياء العراق وفارس، وكان بينه وبين مولاي رحمه الله علاقات قديمة، وكثيراً ما كان يزوره وينزل في داره أياماً. وكانت مولاتي لا تزال صغيرة».

فابتسم صالح وبدا السرور في وجهه وقال: «إن الرجل من أكبر دعائم هذه الدعوة، فهو يؤيدها بماله كما يؤيدها أبو مسلم بسيفه ودهائه. وكان ابن كثير يدعو للعلويين ثم أطاع أبا مسلم في الدعوة الجديدة مرغماً. فإذا استطعنا تحويلهما عن الدعوة ضمنا فشلها وفشل أبي مسلم، ولا سيما إذا استطعنا القبض على إبراهيم الإمام نزيل الحميمة».

فقالت جلنار: «تذكرت أبا سلمة هذا، وأذكر أنه جاءنا مرة ومعه الهدايا والأحمال وفيها الحلي والجواهر وكان أبي رحمه الله يحبه».

فقالت ريحانة: «وأنا أعرف امرأة من نسائه أصلها من مرو، بينها وبين أم مولاتي الدهقانة رحمها الله قرابة».

فقال صالح: «لقد هان الأمر الآن، فأرى أن نحمل مولاتنا إلى الكوفة، فتقيم آمنة بمكان نختاره، ثم أذهب أنا لقضاء المهمة الأولى في الشام، وآتيكم إلى الكوفة، وسأصطحب الحلبي فقط لأنه يعرف

الشام، والآن لا بدّ لنا من الإسراع في الرحيل لئلا يكشف أبو مسلم مكاننا فيذهب سعينا عبثاً».

- ١٢ -

مروان بن محمد

كان الأمويون، قد اتخذوا دمشق عاصمة للخلافة بعد أن آلت إليهم واغتصبوها من أهل البيت الذين كانوا يتخذون المدينة عاصمة لهم.

وكانت دمشق من المدن العظمى التي لها شأن كبير في التاريخ القديم، فلما جعلها الأمويون عاصمة خلافتهم حدثتهم أنفسهم بأن ينقلوا إليها منبر النبي من المدينة، ليضيفوا إلى عصبيتهم أعظم أثر إسلامي يفاخرهم به أعداؤهم المقيمون بالحجاز. ولكن هذا لم يتيسر لهم فاكتفوا بالعصبية العربية، وظلوا يحكمون المسلمين نحو مائة سنة، وامتد سلطانهم إلى معظم أنحاء العالم المعمور في ذلك الحين، وبلغ العرب على عهدهم أسمى درجات العز. والدولة الأموية أقوى دول العرب وأشدها بطشاً، وهي وحدها (بعد الراشدين) الدولة العربية الخالية من شوائب العجمة، لأن أمراءها عرب، وعمالها عرب، على أنها بالغت في تعصبها للعرب، واستبدت بالفرس وغيرهم ممن دانوا لسلطانها حتى نقموا عليها وأعانوا أهل البيت على حربها لإخراج الأمر من يدها.

وكان على عرش الخلافة أيام قصتنا هذه، مروان بن محمد، وهو من خير الخلفاء وأكثرهم حمية وحزماً وغيرة على الاصلاح، ولكنه جاء وقد تمكن الفساد من جسم الدولة الأموية، وتسرّب الخلل إلى كيانها حتى انقسمت على نفسها، فقام من بني أمية غير واحد يطلب الخلافة لنفسه، واستطاع مروان ببسالته وتعقله التغلب عليهم.

وكان الخلفاء الذين تقدموه قد انغمسوا في الترف واللهو، فلما تولى مروان الخلافة ورأى ما هي عليه من الوهن، حزم أمره وحرّم الخمر واللهو في مجالسه، وعكف على تدبير شؤون الدولة. ولكن هذا كله لم يجده شيئاً، لأن الدعوة العباسية كانت قد استفحلت في أيامه ورسخت أقدامها في خراسان، وانتشر دعاتها في أنحاء فارس والعراق. فارتبك وبذل جهده في دفع أعدائه.

وكانت ثقته عظيمة بنصر بن سيّار، لأنه شيخ جليل حنكته الأيام، وفي طبعه ميل إلى الإصلاح. فألقى إليه مقاليد خراسان وأوصاه بحمايتها وحفظها من الشيعة. ولم يدر بخلده الخوف عليها لعلمه بقلة الشيعة وتستّرهم، حتى جاءه النذير بسقوط مرو، وفرار نصر بن سيار منها بأهله وأولاده، فسقط في يده وأيقن بخروج خراسان وما وراءها من سلطانه، وأصبح يخشى ضياع الملك كله.

وكان مروان قد أدرك الثالثة والستين من عمره، وأمه كردية، وذلك نادر بين الخلفاء الأمويين لمحافظتهم على العصبية العربية، خلافاً لما صارت إليه الحال في أيام بني العباس فيما بعد. فإن معظم حلفائهم من الهجناء، أي من آباء عرب وأمهات غير عربيات. وكان مروان قوي الجسم ربع القامة، أبيض اللون، شديد السَّهلة، ضخم الهامة، كثّ اللحية أبيضها. فأخذ يجمع رجاله وقواده ويشاورهم فيما صارت إليه الدولة من الاضطراب، وقد أخذ في إعداد الجنود وهَمّ بأن ينهض بنفسه لأنه رأى من الحزم ألا يثق بأحد من رجاله في مثل تلك الحال. فكان يقضي نهاره مشاوراً ومعظم ليله مفكّراً، وربما قضى الليل كله ساهراً يخطر في غرفته.

فاتفق في إحدى الليالي وهو ساهر يفكر فيما جاءه من أنباء تفاقم أمر الشيعة أن جاءه الحاجب مهرولاً، فظنه قادماً يصحب

رسولاً أو يحمل رسالة، وكان من عادتهم ألا يردوا عن باب الخليفة صاحب خبر ولو جاء في نصف الليل أو بعده. فصاح فيه مروان: «ما وراءك؟».

قال: «إن بالباب رجلاً غريب الأطوار يسأل المثول بين يدي أمير المؤمنين».

قال: «لعله صاحب خبر أو رسول. مَن هو؟».

قال: «لا أدري، ولما أردت تأجيل أمره إلى الغد قال إن ما جاء في شأنه لا يجوز تأجيله لحظة واحدة». قال: «ادخله».

وكان مروان جالساً على سريره فنهض والتفّ بالعباءة وأخذ يمشي وظله يتنقل شمالاً أو يميناً حسب موقعه من الضوء القائم في جانب الغرفة. ولم تمض لحظات قليلة حتى عاد الحاجب ومعه رجل طويل القامة، حاسر الرأس، تجعد شعر رأسه ولحيته وتلبد من الوسخ والإهمال، وعليه قميص يكسوه إلى الركبة، وهو حافي القدمين، عاري الساقين والزندين، والقذارة ظاهرة على يديه وأنامله وفي وجهه ولحيته وعلى قميصه وعلى كل شيء فيه، مع بلَه ظاهر في نظرته وحركاته.

فلما رآه مروان ابتدره بالسؤال عما يريد، فأجاب بقوله: «ألا تدعوني إلى الجلوس؟ كأنك تخاف على الطنافس من جلدي، أم غرّك ما رأيته من زهدي؟ إن أولياء الله لا يلبسون الحرير والديباج ولا يهتمون بالطيب».

فلما سمع مروان كلامه هابه. ولم يكن يعتقد بالولاية لأنه كان قد أخذ عن الجعد بن أدهم مذهبه في خلق القرآن والقدر، ولكن شدة افتقار المرء إلى الشيء ورغبته في نيله تسهلان عليه تصديق المستحيل. ومروان في حاجة إلى مَن يُشير عليه أو يرشده إلى

الصواب، فتحمل جرأة الرجل ورحب به وأمره بالجلوس. فجلس على طنفسة، وجلس مروان على وسادة تجاهه وأصاخ بسمعه، فأخذ الرجل يتمتم بكلام غير مفهوم، ثم مسح وجهه بيديه واعتدل في مجلسه وقال: «اعلم يا مروان أني جئتك برسالة من عالم الغيب أتتني في الحلم، وقد أوصاني صاحب الرؤيا أن أبادر بإبلاغها إليك وأوصيك بوصية، فهل أنت على استعداد لسماع ما أقول؟». قال: «نعم قل». فقال الرجل: «بدأت رؤياي بصوت أيقظني وإذا برجل ينادي (الحميمة.. الحميمة.. الحميمة). فقلت: (وما الحميمة؟). قال: (في الحميمة أصل الشر ورأس العداوة). فقلت: (وأي عداوة؟). فزجرني وقال: «(اذهب إلى إمامكم مروان بن محمد، وقل له إن عدوه الأكبر إبراهيم في الحميمة، وهو أصل متاعبه، فإذا قبض عليه وقتله فقد قطع رأس الحية). وأحببت أن أستزيد صاحب الصوت، ولكني استيقظت، فلم يسعني إلا المبادرة إليك. وها قد بلغت رسالتي، وسأعود إلى مغارتي». قال ذلك وهَمّ بالنهوض، فأقعده مروان وسأله رأيه في هذه الرؤيا فقال: «نحن لا نفسر الرؤيا، وإنما ننقلها كما أتتنا، فعليك الآن أن تسأل عن الحميمة، فإذا كانت قرية فابعث مَن يبحث فيها عن رجل اسمه إبراهيم».

وكان مروان قد أدرك أن إبراهيم المقصود هو إبراهيم الإمام صاحب الدعوة العباسية، ولم يكن يعرف مقره، فصدق رؤيا الرجل لأنها وافقت هواه. والإنسان وإن أنكر السِحر وكذّب أقوال السَحَرة إذا رأى في أقوال أحدهم قولاً يوافق ما في نفسه مالَ إلى تصديقه. ثم تذكر مروان أنه يعرف بلدة بالبلقاء اسمها الحميمة، فعزم على إرسال الجند إليها للبحث فيها عن إبراهيم الإمام والقبض عليه. ولاحظ أن الشيخ ما زال متحفزاً للخروج فقال له: « امكث يا شيخ عندنا على

الرحب والسعة».

فقال وهو ينفض يديه: «أعوذ بالله! أتريد يا مروان أن تحجب عني وجه الخالق وتفصل بيني وبين أهل الغيب؟».

فقال مروان: «أخبرني إذن ما اسمك وأين مقامك حتى أبعث إليك عند الحاجة».

قال: «لا أقدر على ذلك الآن، ولا حاجة لك إلي، فإني إنما أبلغك ما أراه في الرؤيا أو أسمعه من الهاتف، ولا جواب عندي على ما قد تسأله. فإذا شئت أن تنتفع بي، فدعني أنصرف إلى مغارتي. وإذا أتتني رؤيا أخرى، أو وجدت مكاناً للقول فإني آتيك على عجل. وكل ما أطلبه أن تأمر حاجبك ألا يمنع بابك عني، وألا تطلع أحداً على أمري».

فرأى مروان في كلام الرجل قوة، وكان يود استبقاءه. فلما سمع قوله لم يشأ أن يخالفه، فقال له: «اصبر إذن لنأمر لك بالجائزة».

فقال: «إننا لا نأكل طعامكم، ولا نشرب شرابكم، ولا نمس أموالكم. فهكذا أُمِرنا، فأطلق سراحي يا مروان أو اقتلني فإني بين يديك، ولا أرى سبباً لتأخيري سوى أنك تريد نفسي، فخذها».

فاستغرب مروان غضبه بلا سبب وقال في نفسه: «لعلها أخلاق أمثاله من أهل الصلاح». ثم أخذ يلاطفه ليخفف من غضبه ويسترضيه فقال له: «افعل ما بدا لك، وإذا شئت فإني أرسل معك مَن يوصلك إلى حيث تقصد».

فقال والغضب بادٍ في وجهه وفي صوته: «أريد منك يا ابن الكردية أن تطلق سراحي قبل أن تزهق روحي».

فحمل مروان قوله هذا أيضاً على أنه من عادة النسّاك لاعتزالهم

الناس وانقطاعهم للعبادة آناء الليل وأطراف النهار في مغارات لا يرون فيها أنيساً ولا يعاشرون غير الحشرات، فقال له: «سر في حراسة الله، واعلم أن بابنا لا يغلق دونك ليلاً ولا نهاراً». ثم أمر الحاجب أن يخلي سبيله وأوصاه بألا يذكر خبره لأحد. فخرج مهرولاً بخطى واسعة، وعاد مروان إلى حجرته وقد شغل بما سمعه من الناسك. وما لبث أن بعث في طلب بعض خاصته وأهل ثقته، فلما جاؤوه قال لهم: «لقد رأيت رؤيا دلّتني على مكان الإمام إبراهيم». فقالوا: «وأين هو مقيم؟». قال: «في الحميمة بالبلقاء بين بعض الشيعة هناك». ثم استشارهم في أن يبعث إلى هناك بمن يقبضون عليه، فوافقوا على هذا الرأي.

وكتب مروان إلى عامله في البلقاء بأن يتوجه إلى الحميمة، ويبحث فيها عن رجل من العباسيين اسمه إبراهيم، وذكر له أوصافه. ثم يقبض عليه ويأتي به إليه.

كان الناسك، أو صالح، أو الضحاك، قد أوصل جلنار ومَن معها إلى الكوفة، وسأل عن منزل أبي سلمة الخلال فعلم أن له معسكراً خاصاً في محلة «حمام أعين» خارج الكوفة يقيم به ومعه حاشيته ورجال بطانته، كأنه في دولة قائمة بنفسها، وأهل الكوفة يرعون حرمته ويخشونه ولا سيما بعد قيامه بالدعوة العلوية، وبذله الأموال الطائلة في سبيلها، ثم استمراره في البذل لنصرة الدعوة بعد أن صارت للعباسيين وقام بها أبو مسلم.

وكان أبو سلمة يتوقع فشل أبي مسلم في الدعوة لإبراهيم الإمام، ليعود هو إلى الدعوة العلوية، وقد مهدت لها الأسباب. على أن تظاهره بالدعوة لبني العباس خوفاً من بطش أبي مسلم به، لم يكن يمنعه من بغض كبار قوادها وبعض الشيعة من أهل الكوفة، وكان

هؤلاء يتملقونه ليستدروا أمواله ويستعينوا بها على نجاح الدعوة.

فلما وصل صالح بمن معه إلى الكوفة. وعلِم أن أبا سلمة معسكر في «حمام أعين» قصد بهم محلته. فحطوا رحالهم ونصبوا خيامهم خارجها للاستراحة، وذهب هو وريحانة حتى أتيا المعسكر فطلبا مقابلة أبي سلمة فأدخلوها إلى فسطاط كبير مبطن بالحرير الأحمر، وببابه الحراس، ودلائل الثروة ظاهرة على رياشه وأساطينه. وكان صالح بلباس أهل خراسان، فرحّب به أبو سلمة وسأله عن غرضه، فقال: «إذا أذن مولاي فإن معي جارية أرجو أن يسمح لها بالدخول».

فأذن أبو سلمة في دخول ريحانة، فدخلت وقد غطت وجهها بالخمار على عادة النساء، ووقفت متأدبة فدعاها إلى الجلوس فقالت: «ألا يذكر مولاي أنه رأى هذا الوجه؟». وكشفت عن وجهها.

فلما وقع نظره عليها تذكرها وقال: «ريحانة؟». قالت: «نعم يا مولاي».

قال: «وأين مولاك الدهقان؟ هل تركته؟».

فقالت بصوت مختنق: «لا يا سيدي بل هو الذي تركنا». ولم تستطع أن تمسك عن البكاء.

فلم يستغرب أبو سلمة بكاءها لظنه أن مولاها طردها، فقال لها: «وكيف تركك؟». فلم تجبه واستمرت في البكاء. وتصدى صالح للإجابة فقال: «إذا أراد مولاي أن نقص عليه الخبر، فليأمر بأن تذهب جاريته إلى دار النساء، ويأذن أيضاً في ذهاب الدهقانة جلنار ابنة صديقه دهقان مرو معها، لأنها مقيمة خارج هذا المعسكر!».

فدُهش أبو سلمة وقال: «جلنار أيضاً هنا؟ وأين أبوها؟».

قال: «إذا أمرت بدخولها دار النساء قصصت عليك خبرها».

قال: «لتدخل حالاً، فإن شيرين زوجتي ستُسر برؤيتها».

ثم نهض وأخذ صالحاً معه إلى دار مجاورة خاصة بحريمه، فأدخل ريحانة وقال لصالح: «أرسل بعض الخدم ليأتوا بجلنار». فشكره وذهب هو إلى جلنار فجاء بها إلى الدار، فاستقبلتها الجواري وذهبن بها إلى خالتها، فلما رأتها شيرين ألقت نفسها عليها وجعلت تقبّلها وترحّب بها لأنها كانت تحبها كأولادها، فهاجت تلك القبلات ذكرياتها عن موت أبيها وفرارها، فغلب عليها البكاء ولم تقوَ على مغالبته. وجاءت ريحانة فأخذت تخفف عنها بعبارات استدلت شيرين منها على وقوع الفتاة في مصيبة، فأجلستها بجانبها وجعلت تمسح دموعها وتقبّلها.

ودخل أبو سلمة دار النساء فرأى جلنار على تلك الحال، وقد توردت وجنتاها واحمرت عيناها وتكسرت أهدابهما، فنادى ريحانة، فأتته أيضاً وهي تبكي، فسألها عن سبب هذا البكاء فقالت: «ستسمع ذلك من صالح، ولولاه لكنا في عداد الأموات».

فرجع أبو سلمة إلى صالح وعلامات التأثر بادية في وجهه، فأدرك صالح أن قد آن الوقت لاطلاعه على الأمر، فقال: «إنها تبكي أباها الدهقان».

قال: «وما الذي أصابه؟». قال: «قتلوه».

قال: «ومَن قتله؟». قال وهو يتظاهر بالتهيّب: «قتله.. قتله.. قائد رجال دعوتكم!».

قال: «أبو مسلم؟». قال: «نعم يا سيدي».

فهز أبو سلمة رأسه أسفاً وقال: «لا حول ولا قوة إلا بالله. ولماذا قتله؟».

قال: «قتله لأنه بذل كل ما في وسعه لنصرته!».

فضحك أبو سلمة ضحكة يمازجها غضب شديد وقال: «كيف يقتله لهذا السبب؟ قل الحق».

قال: «هذا هو الحق وحياة رأسك، إنه كان يعطيه الأموال بالبدار، وقد أوعز إلى سائر دهاقين خراسان أن يناصروه بالمال والرجال!».

فقال أبو سلمة: «هذا غير معقول». فاعتدل صالح في مجلسه، وقال: «وهل يستغرب ذلك من رجل يقتل على الشبهة؟ ألم تسمع بوصية الإمام إبراهيم؟».

فأمسك أبو سلمة لحيته بيده، وقال: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون». وبدا كأن في خاطره شيئاً يخاف إظهاره. فتظاهر صالح بالبكاء والحزن، وقال بصوت ضعيف: «إن كل ذنب الدهقان أنه تفانى في نصرة الدعوة لإمام يوصي بالقتل على الشبهة، وكان عهدنا بالأئمة أنهم لا يقدمون على قتل نملة بغير حق!».

فلم يتمالك أبو سلمة أن قال: «أولئك أئمة الهدى أبناء بنت النبي، وأبناء الإمام عليّ كرّم الله وجهه». وأطرق.

فاغتنم صالح الفرصة وقال: «فلماذا حولتم الدعوة إذن إلى هؤلاء وأنتم أصحاب الأمر؟ أم الدعوة لا تزال لأبناء الإمام عليّ وإنما تظهرون البيعة لإبراهيم لغرض لا نعلمه؟».

فسكت أبو سلمة ولم يجبه، فعاد صالح يقول: «يلوح لي أن أولئك الناس داهنوك وخدعوك طمعاً في أموالك. وأنا أعلم يقيناً

أنك غير راضٍ بإمامهم هذا. ولكنك لا ترى أن تُفسد عليهم أمرهم بالجهر بما فيّ نفسك عليهم».

فلم يعد أبو سلمة يستطيع كبت ما في نفسه وقال: «كلا، ولكنني أعلم أنني لو قلت ما في نفسي لم أجد مَن ينصرني. ولا أدري كيف تغيّروا جميعاً وقبلوا الدعوة لإمام يوصي بمثل تلك الوصية؟».

ففرح صالح بهذا التصريح وقال: «وماذا عسى أن يكون من أمر هذا الإمام وهو كأحد الناس، وأنتم الذين أنزلتموه هذه المنزلة، وجمعتم له قلوب أهل فارس وخراسان؟».

وكان أبو سلمة جالساً يسمع كلام صالح، فلما سمع قوله هذا، هبّ من مجلسه فجأة، وجعل يخطر في الغرفة ذهاباً وإياباً ومطرفه يجر وراءه، وصالح يراقب حركاته، ثم وقف أبو سلمة أمام صالح وقال: «قد جمعنا له قلوب أهل خراسان وفارس، ومكناه من سيوفهم وأيديهم وألسنتهم، فأصبح صاحب الأمر والنهي ولا حيلة لنا الآن».

فقال صالح: «الحيلة سهلة يا مولاي».

فضحك مستهزئاً وقال: «كيف تستسهل ما لا سبيل إليه، إن مئات الألوف من الفرس وغيرهم يدعون له الآن، فكيف نستطيع تغيير قلوبهم؟».

قال: «ما قولك في قطع الشجرة من جذرها وأخذ الرجل بشريعته؟».

فلما سمع أبو سلمة قوله، أطرق وسبابته بين شفتيه ينقر بها قواطعه ويده الأخرى في منطقته، ثم رفع بصره إليه وقال: «ومَن يجرؤ على ذلك؟».

قال: «تدبير ذلك عليّ. أنا أقتله دون أن يشعر بذلك أحد. ولا شك في أن قتله يسهل إعادة الدعوة إلى أهلها ومقاومة أبي مسلم، فإن هذا لا يستطيع عملاً دون معونتك، وإذا علم الناس بمقتل صاحب الوصية فلا شك عندي أنهم يسرون، وأولهم هذه المسكينة التي قتل أبو مسلم أباها ونهب قصره وجعلها شريدة طريدة، ولو أنه علم بوجودها هنا لأرسل من يقتلها، ويقتلك معها إذا وقفت في سبيله، بل إن هذه هي عادته مع كل مَن ناصره متى وجد نفسه غير محتاج إلى نصرتهم. فليحذره كل منكم».

فتجاهل أبو سلمة وقال: «وهل أنت واثق من قدرتك على ما ذكرت؟».

قال: «لك عليّ أن أقوم بذلك في بضعة أيام. إن صاحبكم في الحميمة، وأنا أعرف الطريق إليه».

واستبشر أبو سلمة بما سمعه من صالح إذ صادف هوى في نفسه، وتوسم فيه قوة ودهاء، فأظهر له الارتياح، وعزم على استخدامه وهو لا يعلم أن صالحاً إنما فعل ذلك خدمة للخوارج وانتقاماً لنفسه من أبي مسلم.

فلما بلغ بهما الحديث إلى هذا الحد، أشار أبو سلمة إلى صالح أن ينزل للاستراحة في دار الأضياف على أن يعودا إلى الكلام في الأمر. فقضى صالح بقية يومه في الراحة وتدبير بعض الشؤون، ثم أفضى إلى ريحانة بما دار بينه وبين أبي سلمة، وأسر إليها بوصية تقولها لجلنار، كما أوصاها بالسهر على راحتها حتى يعود من مهمته في الشام مصطحباً سليمان الحلبي لأنه يعرف تلك البلاد. ثم دعا سعيداً وأبا العينين فأوصاهما بكتمان الأمر. وفي اليوم التالي استأذن في الرحيل، فعرض عليه أبو سلمة بعض المال، فأبى وقال: «إني أقوم

بهذا الأمر لوجه الله ولا أبتغي عليه أي جزاء».

- ١٣ -

أبو جعفر المنصور

ركب كل من صالح وسليمان جملاً خفيفاً، وحملا ما يحتاجان إليه من الطعام والماء، وتوجها إلى الشام. وكان صالح خلال ما مرّ به من الأحداث لا يكف عن البحث عن مصير شيبان والخوارج. وكان شيبان قد رحل عن مرو لما أيقن بوقوعها في يد أبي مسلم. فلما استتب الأمر لهذا، بعث إليه يدعوه إلى البيعة فأجابه شيبان: «بل أنا أدعوك إلى بيعتي». فكتب إليه أبو مسلم: «إن لم تدخل في بيعتنا فارتحل». فسار شيبان إلى «سرخس» واجتمع إليه كثيرون من بكر بن وائل، فخافه أبو مسلم وبعث إليه رسلاً يفاوضونه في الصلح فسجنهم، وأرسل أبو مسلم إليه جنداً طاردوه من بلد إلى بلد حتى دخل المدينة فقُتِل فيها وذهب أمر الخوارج.

وجاء الخبر بمقتل شيبان إلى صالح وهو في طريقه إلى الشام، فشق الأمر عليه وكاد يذهب بنشاطه وسعيه، ولكنه ذكر إساءة أبي مسلم إليه ورأى أنه مطالب أيضاً بالانتقام لشيبان والخوارج.

وما زال يواصل السير هو وسليمان حتى وصلا إلى دمشق فنزلا في ضاحيتها، وقضى صالح أياماً يدرس أحوالها. ثم ترك سليمان هناك، وسار إلى الحميمة فتحقق وجود بني العباس بها وفيهم إبراهيم الإمام، ثم عاد فتنكر في زي ناسك وذهب إلى مروان بن محمد محرّضاً إياه على قتل إبراهيم الإمام بالحيلة التي ذكرناها. فلما خرج من عنده سارَ تواً إلى حيث ترك سليمان الحلبي، وهناك بدل قيافته فلبِسَ العمامة والجبة كأهل الشام، فبدت عليه سيماء أهل التقوى، وأمر سليمان أن يسير وراءه كأنه خادمه، وأوصاه بوصايا

تنفعه في المهمة التي هما سائران فيها. ثم سارع إلى البلقاء وتوجه إلى الحميمة، فنزل في خان هناك. وأشاع خادمه سليمان أنهما قادمان من الحجاز، لمقابلة رجل سيكون له شأن عظيم اسمه إبراهيم، فلما سمع أهل الحميمة ذلك خشِيَ الذين يعرفون منهم إبراهيم الإمام أن يكون في الأمر دسيسة، فأنكروا وجود أحد بهذا الإسم في البلدة، وأخذ بعضهم يقصدون إلى صالح في الخان للتجسس عليه، فكان يتظاهر بالبله ويقول: «تكبدت مشقة السفر من الحجاز إلى الشام لأرى الإمام وتمنعونني منه، وأنا إنما جئت لأنبئه بأن هاتفاً جاءني وأوحى إليَّ أنه في خطر قادم قريب؟؟». ولم يقل صالح ذلك إلا وقد تحقق قرب وصول رجال مروان، بحيث لم يعد الفرار في استطاعة إبراهيم ومَن معه. وكان هذا حين علم بأمر صالح قد أرسل إليه أخاه أبا العباس متنكراً لاستطلاع حقيقته، فلما سمع أبو العباس أقوال صالح لم يعبأ بها ولا بدعواه أنه من الأولياء. وأنبأ بذلك أخاه، مرجحاً أن الرجل جاسوس أو دجّال.

ولم يمضِ على ذلك يومان حتى جاءت جنود مروان فجأة فأحاطوا بالمحلة، ودلهم بعض أهلها على دار بني العباس وكانوا كثيرين، فقاوموا الجند، ثم قال لهم رئيس هؤلاء: «إن أمير المؤمنين لا يريد بكم إلا الخير، وهو يطلب أن يقابله واحد منكم اسمه إبراهيم لاستطلاع رأيه في بعض الأمور، ثم إعادته عزيزاً مكرّماً. فإذا أبيتم إطاعة أمر الخليفة فإننا سنضطر إلى حملكم جميعاً بالقوة».

وهنا تذكر القوم كلام صالح، واعتقدوا صدقه بعد أن لم تبق أمامهم حيلة للنجاة، فتشاوروا فيما بينهم وأجمعوا على أن يسلّموا الإمام إبراهيم، فسلموه. وبقي أخوته الثلاثة وهم: أبو العباس، وأبو جعفر المنصور، وعبد الوهاب. وخشِيَ إبراهيم أن يقتله

مروان، فأوصى بالأمر بعده إلى أخيه أبي العباس، وأمره أن يتنقل بمن بقوا معه إلى الكوفة وفيها شيعتهم.

علم صالح بالقبض على إبراهيم فسر لنجاح مسعاه، ولما جاء المساء جلس للعشاء وهو لا يزال بلباس أهل الشام، وقد تنكّر وصبغ لحيته بالحناء وجعدها بحشوها بالشعر، وتظاهر بالبلَه. فلما فرغ من العشاء، قعد في حجرته يتوقع أن يأتيه بعض أهل الإمام للاستشارة بعد أن تحققوا صدق نبوءته، وإذا بخادمه سليمان قد دخل يقول: «إن بالباب رجلاً شريفاً يود أن يراك». فتظاهر بعدم رغبته في لقاء أحد في تلك الساعة لانشغاله بالصلاة، ثم أذن للقادم فدخل عليه شاب أسمر نحيف البدن، عليه قباء أصفر وعمامة سوداء والهيبة تتجلى في وجهه مع صغر سنّه، فعرف صالح أنه أبو جعفر المنصور، وكان قد رآه من قبل، فرحّب به قائلاً: «مرحباً بصاحب القباء الأصفر».

فلما سمع المنصور قوله دُهش وتحقق كرامته واطلاعه على الغيب، فأسرع إليه واستأذنه في الجلوس، فجلسا وصالح يبتسم كأنه يضمر شيئاً فقال له المنصور: «لقد جئتك لأني تحققت كرامتك، فهل أبوح لك بما في نفسي؟».

قال: «سواء أبُحت أم كتمت، فإني عالم بما في نفسك، فإذا أحببت أن أطلعك على ما في ضميرك فعلت، وإذا شئت أن تقول فإني أسمع».

فازداد المنصور إعجاباً بالرجل وقال: «قد تحققت صدق كرامتك من أول كلمة سمعتها منك، وإنما أطلب إليك أن تُخرج خادمك لأكلمك على انفراد».

فأشار صالح إلى الخادم فخرج. ثم أخذ يعبث بلحيته وهو

مطرق يجيل عينيه في جوانب الحجرة كأنه يفتش عن ضائع، فابتدره المنصور قائلاً: «أتعلم لماذا جئتك؟».

وكان صالح يعلم أن العباسيين لا يهجسون إلا بالخلافة وكلّ منهم يطمع فيها لنفسه، فقال له: «جئتني في شأن الخلافة!».

فقال المنصور: «صدقت، وأرجو أن تشير عليَّ بما تراه».

وكان المنصور شديد الاعتقاد بالتنجيم، وقد علِم بذلك صالح. فقال له: «إني خبير بالتنجيم الروحاني، أطلع على المخبآت بمراقبة النجوم ولكنني لا أستخدم الاسطرلاب. فقل ما تريد، فإني سامع».

قال: «لقد عرفت صدقك من قبل. ولم يسعدنا الحظ بالعمل برأيك إلا بعد فوات الفرصة، فأخذوا أخي الإمام إبراهيم أسيراً، ولا ندري ما مصيره. غير أننا لا نرجو بقاءه، وقد أنبأنا هو بذلك وأوصانا بوصية تتعلق بالبيعة».

فقطع صالح كلامه، وقال: «البيعة لك».

فقال: «وما أدراك أنها لي؟ فقد أوصى بها لأخي أبي العباس الليلة».

قال: «بل هي لك إن لم يكن عاجلاً فآجلاً».

وكان المنصور من أهل الذكاء والدهاء، ولكنه اعتقد صدق صالح وتوسم الولاية في وجهه لما شاهده من تبالهه فقال له: «إنما جئتك لهذه الغاية وقد تحققت صدقك منذ ناديتني بصاحب القباء الأصفر».

ولم يكن صالح قد عنى شيئاً بتلك الكلمة، ولكنها صادفت اعتقاداً قديماً للمنصور، وأخذ يروي له قصة ذلك فقال: «إن أمر

القباء يشهد بصدقك، فقد اجتمع بنو هاشم منذ زمن في المدينة وأنا معهم، للنظر في أمر البيعة بعد ذهاب دولة بني أمية، وكان الإمام جعفر الصادق حاضراً فقال: «لا ينال الخلافة إلا صاحب القباء الأصفر". وكنت لابساً هذا القباء، فانطوت نفسي على الأمر ورتبت العمال من تلك الساعة».

فسُرّ صالح بهذه الصدفة، وأخذ يستخدم دهاءه لاتمام الحيلة فقال: «ألم أقل لك ذلك؟».

قال: «نعم، ولكن الواقع أنهم بايعوا قبلي لأخي إبراهيم، ولما ساقوه اليوم إلى السجن بايعوا لأخي أبي العباس، وقد أوصانا إبراهيم أن نذهب إلى شيعتنا في الكوفة».

فقطع صالح كلامه كأنه لا يريد أن يسمع قوله: «وقال: «لا.. لا، بل أنت الخليفة.. هذا ما أعرفه، ولو بويع بها كل أهلك فإنها صائرة إليك. ابشر بها من الآن، وسترى ويرى إن شاء الله». قال ذلك ووقف كأنه يريد أن يصرف جليسه، فلم يعبأ المنصور بتدلله لعلمه بأن أهل الكرامة يغلب فيهم غرابة الطباع. فوقف وهو يقول: «ما بالك؟».

قال: «لقد آن لي أن أعود إلى بيتي».

قال: «ألا تمكث فنذهب معاً إلى الكوفة، وإن صحّ قولك كافأناك».

قال: «حبذا ذلك ولكنني مضطر للذهاب إلى المدينة بجوار قبر الرسول، وأما الكوفة فلا أعرفها ولا أريد الذهاب إليها».

قال: «أتُشير علينا بالذهاب إليها؟». قال: «كيف لا؟ وفيها أبو سلمة!».

فاستغرب معرفته باسم أبي سلمة بعد أن قال إنه لا يعرف الكوفة فقال له: «أما من سبيل إلى استبقائك معنا؟».

قال: «ليس لي الخيار في البقاء أو الرحيل. فقد كنت في المدينة من قبل، فسمعت الهاتف يأمرني بالمجيء لهذه المهمة وقادني إلى هنا، ولكنكم لم تصدقوني فأصابكم ما رأيت. وقد يأتيني مرة أخرى بأمر يتعلق بك فآتيك حينما تكون. أما الآن فلا مندوحة عن الرحيل».

وكان المنصور ذا دهاء ومكر مع إيمانه بالولاية والتنجيم. فلما رأى صالحاً، رغم إلحاحه عليه، يأبى البقاء عنده، تحقق أن الرجل منزّه عن الغرض، وإلا لآثر البقاء معه بعد علمه بأنه سيكون الخليفة. ولما رآه مصرّاً على الرحيل، قال له: «ما اسمك وأين مقامك، حتى إذا وفّقت إلى الخلافة قربتك واستعنت بعلمك؟».

قال: «لا تنفعنك معرفة اسمي ولا مكاني. دعني أنصرف الآن. وسآتيك عند الحاجة، وربما جئت عما قريب لأني أشعر بظلمة تحدق بخلافتك إذا انقشعت ظهرت الحقيقة. أما الآن، فأستودعك الله». قال ذلك ووقف، فودعه المنصور وخرج.

ورأى صالح بعد أن علم بعزم أبي العباس وأخوته على الذهاب إلى أبي سلمة أن يسبقهم إليه ليخبره بما كان، ويدبر حيلة لإتمام ما يبيتانه لآل العباس، فأصلح لحيته وبدّل ثيابه وأمر خادمه سليمان أن يهيىء الجَمَلَين. فلما فرغ سليمان من إعدادهما ذهب إلى صاحب الخان وجلس ينتظر صالحاً. وقد أذهله دهاؤه ومكره. فطال انتظاره وخاف أن يكون قد لحق به سوء، فسار إلى حجرته حتى بلغها فوجدها مغلقة، فأخذ يتطاول بعنقه ويصيخ بأذنيه لعله يسمع حركة أو صوتاً يُستدل به على شيء، ثم رأى نوراً خارجاً من بعض شقوق الباب ولكنه لم يسمع صوتاً. فوقف متردداً بين أن يقرع الباب أو

يتربص ساكتاً. فإذا بالنور قد انطفأ، ثم سمع وقع أقدام فعلم أن صالحاً خارج. وما عتم أن رأى الباب فُتِح وأطل منه رجل طويل القامة حاسر الرأس حافي القدمين عاري الزندين، وقد تجعد شعر رأسه ولحيته وتلبد من الوسخ والإهمال، وعليه قميص طويل يكسوه إلى الركبة، والقذارة ظاهرة على كل شيء فيه. فدُهش سليمان لأول وهلة ثم تذكر أنه رأى صالحاً في مثل هذه الهيئة منذ بضعة أيام فعرف أنه هو.

وسارع صالح إلى عباءته فالتفّ بها حتى غطى رأسه ولحيته، ثم أشار إلى سليمان فتبعه إلى الجَمَلَين، فركبا وسارا حتى أمسيا خارج المحلة. فقال صالح: «أتعلم إلى أين نحن ذاهبان؟».

قال: «أظننا ذاهبين إلى دمشق».

قال: «نعم إننا ذاهبان إليها، وستبقى أنت في انتظاري خارجها حتى أعود إليك».

فقال: «سمعا وطاعة».

وساقا الجَمَلين طول ليلتهما واليوم التالي وما بعده، دون أن يستريحا إلا قليلاً، وأشرفا على دمشق عند الغروب فإذا بغبار يتطاير قرب بابها، فوقفا وقال صالح: «أسرع يا سليمان وائتني بخبر هذا الغبار، واحذر أن يعلم أحد بأمرنا».

فهزّ سليمان رأسه استنكاراً لذلك التحذير، ثم مضى في مهمته، وظل صالح في انتظاره على جمله، وقد التف بالعباءة. وعاد سليمان بعد هنيهة، فابتدره صالح قائلاً: «ماذا رأيت؟».

قال: «رأيت معسكر الخليفة مروان بن محمد».

قال: «وهل الخليفة معهم؟». قال: «نعم».

قال: «هل علمت سبب خروجهم؟». قال: «علمت أنهم عسكروا هنا تأهباً للسفر في صباح الغد».

قال: «وإلى أين؟». قال: «أظنهم ذاهبين إلى القتال في بلاد بعيدة، لكثرة ما أعدوه من الأحمال والأثقال!».

فأطرق صالح مفكراً، وقد أدرك أن مروان خارج لقتال شيعة العباسيين في العراق، بعد أن رأى استفحال أمرهم بعد فتحهم مرو وزحفهم نحو العراق. فترجل وأشار إلى سليمان فنزل، وجلسا تحت شجرة هناك، فتناولا طعاماً كان سليمان قد تزوّد به للطريق، حتى إذا فرغا قال صالح: «إني ذاهب في مهمة إلى هذا المعسكر، فامكث أنت هنا حتى أعود إليك، وأطعم الجَمَلين، وكن على أهبة الرحيل».

قال: «سمعاً وطاعة».

ونهض صالح فخلع العباءة فظهرت قبافته الجديدة بشعره المجعد وقميصه القصير وقذارته ثم تمرغ في تراب ناعم هناك حتى كساه الغبار كأنه قادم من سفر طويل، وقصد إلى معسكر الخليفة.

وكان مروان قد أقضّ مرقده أمر الشيعة في فارس والعراق حتى خاف على سلطانه، فأخّر حملته عليهم حتى جاءه البشير بالقبض على الإمام إبراهيم في صباح ذلك اليوم، فأمر بأن يحبسوه في (حران) وخرج بجيشه ليبيتوا في الغوطة، ثم يبكروا بالرحيل في الصباح. فلما فرغ من طعامه صرف أمراءه وجلس في فسطاطه يدبر شؤونه، وكان مبلبل الذهن بادي الاضطراب لما أحدق به من الشواغل، فلم يستطع رقاداً. وفيما هو في ذلك جاءه الحاجب يستأذن للناسك المعلوم. فاضطرب لأول وهلة، ثم شعر براحة واطمئنان وقال: «ليدخل حالاً».

فدخل صالح بهيئته تلك، فرحّب به مروان ولم يجرؤ أن يدعوه

إلى الجلوس. فابتدره صالح قائلاً: «لقد كابدت مشقة كبرى وسفراً طويلاً حتى تمكنت من الوصول إليك قبل سفرك».

فقال: «هل جئت تبشّرني بشيء؟».

قال: «ليس عندي جديد يا ابن محمد، ولكنني أنبئت بأنهم قبضوا على الرجل، وأنك حبسته في حران، فإذا أبقيت عليه فكأنك لم تفعل شيئاً، أقتل، ثم أقتل، ثم أقتل!».

فأطرق مروان، ولم يستغرب الرأي وقال: «طب نفساً فإنه مقتول».

فلما سمع قوله تحوّل يريد الخروج. فهَمّ بأن يدعوه إلى الجلوس ولكنه ذكر ما كان من إنكاره ذلك في المرة الماضية. فلبث صامتاً وهو يرى صالحاً يخطو نحو باب الفسطاط خطوات طويلة وعيناه في السقف حتى خرج من الباب ولم يلتفت إلى الوراء!

فعاد مروان إلى هواجسه رغم الطمأنينة التي بعثها فيه مجيء الناسك، ومال إلى الاعتقاد بكرامته.

وعاد صالح إلى حيث ترك سليمان وقد تحقق أن إبراهيم مقتول عما قليل، فأخذ في التفكير في أمر أخوته وذهابهم إلى الكوفة وما يكون من أمر أبي سلمة معهم. ثم ركب جَمَله وركب سليمان جمَله أيضاً، وسارا مسرعين. وقبل خروجهما من الغوطة، ترجل صالح عند بركة هناك اغتسل فيها، ثم أصلح شعره وتلثم بالكوفية والتف بالعباءة، وسار يطلب العراق، مواصلاً السير ليلاً ونهاراً حتى لا يسبقه العباسيون إلى أبي سلمة.

وبعد أيام، أشرف في الصباح على الكوفة، فأطل على «حمام أعين» فرأى قصورها وحدائقها وفساطيطها، وذكر المهمة التي هو

قادم لأجلها فأيقن أنه فائز بغرضه، فقد أخفق العباسيون بمقتل إبراهيم، وجاء أخوته وبقية أهله إلى أبي سلمة، وليس أسهل من إغرائه بقتلهم أو حبسهم، فتذهب دولتهم ويفشل أبو مسلم.

وبعد أن استراح هنيهة في ظل شجرة، ركب مسرعاً إلى «حمام أعين» وأمر سليمان أن يذهب إلى جلنار ليخبرها بمجيئه. ثم سار توا إلى منزل أبي سلمة وهو لا يزال ملثماً بالكوفية وملتفاً بالعباءة. فلما وصل إلى الباب ترجل وأراد الدخول، فاعترضه الحراس ومنعوه، ولكنه قال لهم: «أعلموه أني رسول أحمل إليه كتاباً».

فقال أحدهم: «لا يستطيع أحد أن يدخل عليه الآن».

فقال: «ولكنني رسول أتيته بخبر هام لا ينبغي تأجيله».

قال: «مهما يكن من شأن رسالتك، فإنّا أمرنا أن نمنع الجميع بغير استثناء من الدخول عليه، لاشتغاله بمقابلة سرية».

فأوجس صالح خيفة من أمر هذه المقابلة، ولم يرَ بداً من الاذعان. فتحول إلى مقعد بجانب الباب، وحلّ عقال كوفيته لاشتداد الحر وجلس يفكر فيما سمعه. وما لبث أن سمع تصفيقاً ورأى الحراس في حركة واهتمام، وقد دخل أحدهم ثم عاد يتقدمه رجل قصير القامة غريب الزي عليه عمامة كبيرة، وقد كحل عينيه وأرسل سالفيه على صدغيه، وجعل لحيته شطرين أرسل كلاً منهما إلى جانب من صدره، وعليه جبة من الخز واسعة، وبيده عصاة يتوكأ عليها، ووراءه غلام يحمل على كتفه جراباً مزركشاً واسطرلاباً كبيراً، ويتأبط كتاباً ضخماً. فلما رآه صالح اختلج قلبه في صدره. إذ رأى فيه شبهاً بإبراهيم اليهودي خازن أبي مسلم. ثم تفرس فيه فكاد الدم يجمد في عروقه إذ تحقق أنه إبراهيم بعينه، وندم على نزع لثامه مخافة أن يراه فيعرفه وينكشف أمره.

أما إبراهيم فإنه خرج يمشي الخيلاء ويضرب الأرض بعكازه ملتفتاً يميناً وشمالاً والحراس واقفون له تجلة واحتراماً، ولما وقع بصره على صالح أخذ يتفرس فيه حيناً، ثم امتقع لونه إذ عرفه، ولكنه تجاهل وظل سائراً حتى وصل إلى بغلة عليها عدة مغشاة بالديباج، فأسرع بعض الغلمان في تقديمها له، وأعانه غلامه على ركوبها. ثم ساقها فانطلقت به.

وظل صالحٌ واقفاً ذاهلاً، ثم انتبه وقال في نفسه: «ما الذي جاء بهذا الخبيث إلى هنا؟ لا بد أنه قادم بدسيسة!». ثم التفت إلى الحاجب وقال: «هل تظن مولانا يأذن في دخولي عليه الآن؟».

فدخل الحاجب ثم عاد فدعا صالحاً إلى الدخول، فدخل حتى أقبل على أبي سلمة في قاعة كبيرة كان جالساً في صدرها وحده على وسادة، وقد ظهر الاهتمام في وجهه. فلما رأى صالحاً ابتسم له ورحّب به ودعاه إلى الجلوس بجانبه. فهَمّ صالح بتقبيل يده، ثم جلس، فقال أبو سلمة: «أرجو أن تكون قد نجحت في مهمتك ليتم حظنا اليوم».

فقال: «لقد جئتك بما تبتغيه ونجحت في مهمتي أحسن نجاح ببركتك ودعائك، فهل نحن في مأمن من الرقباء؟».

قال: «نحن في مأمن، فقل ما بدا لك».

قال: «لي سؤال أرجو ألا يثقل على مولاي».

قال: «اسأل ولا ضير».

قال: «رأيتك اليوم بادي الغبطة. فهل من خبر جديد يدعو إلى ذلك؟».

فضحك أبو سلمة وقال: «ليس ثمة خبر جديد، ولكن منجماً

بارعاً جاءني منذ قليل، وقد رأيت منه العجائب وتحققت أنه من الحذق في التنجيم بمكان عظيم».

فقال صالح: «لعله الرجل الذي خرج من عندك الساعة؟».

قال: «نعم، هو بعينه المنجم حاييم، وهو من يهود حران».

قال: «وكيف عرفت حذقه؟».

قال: «عرفته مما شاهدته من كشفه الأسرار، فقد أخبرني بأمور لم يكن أحد يعلمها غيري، وذكر لي قدومك إليَّ وبعض ما حدثتني به».

فلما سمع صالح قوله، أجفل وتحقق أن ذلك اليهودي قادم للبحث عنه، ولكنه استغرب اطلاعه على وجوده هناك وعلى ما دار بينه وبين أبي سلمة، وخاف أن يبدو ذلك في وجهه، فتجاهل وأظهر الاستخفاف وقال وهو يضحك: «وما الذي قاله لك؟».

قال: «أخبرني بما يكنّه ضميري في أمر العباسيين وطمعهم في الاستئثار بالخلافة، فأنكرت ذلك لئلا يكون قادماً بدسيسة من أحدهم، ولكنه لم يعبأ بإنكاري، وبرهن على صدقه بأقوال لم يكن أحد عالماً بها سواي، وبعضها لم يطلع عليه أحد سواك. ومن ذلك أنه ذكر قدومك علينا ومعك ابنتنا جلنار، وقصّ عليَّ ما أصابها من الأذى على يد أبي مسلم، ورأيته ناقماً على هذا الخائن لغدره بها، مع أنه لم يعرف الفتاة ولا أبا مسلم ولا رآهما. وكان لا يقول شيئاً إلا بعد مراجعة كتابه واستعمال اسطرلابه. فلما رأيت منه تلك المعرفة، وثقت به وسألته عما يراه في أمر المستقبل فطمأنني وبشرني!».

فلم يتمالك صالح عن قطع كلام أبي سلمة قائلاً: «هل أخبرته بالمهمة التي ذهبت من أجلها إلى الشام؟».

قال: «لم يترك لي فرصة لإخباره بشيء. بل كان يخبرني بكل ما في نفسي، وقد ذكر لي أن المهمة التي مضيت في شأنها لا ريب في نجاحها».

فاستعاذ صالح بالله، وأيقن أن إبراهيم إنما أتى بدسيسة من أبي مسلم للبحث عنه وعن جلنار، ولكنه استغرب اطلاعه على جلية أمرهما. فانقبضت نفسه وأطرق مبهوتاً، ولم يحر جواباً. فأنكر أبو سلمة حاله فقال له: «ما لي أراكَ ساكتاً لا تتكلم؟ أخبرني بما فعلته في رحلتك».

فقال: «ما الفائدة من نجاحي في مهمتي بعد ما سمعته منك؟».

فاضطرب أبو سلمة ولم يفهم مراده، وقال: «إن ما سمعته مني لما يسر، فهو يشير لنا بحسن العاقبة».

قال: «كلا يا مولاي، بل هو يذهب بمساعينا أدراج الرياح، ويجعل حياتنا في خطر».

فازداد أبو سلمة دهشة لما سمعه ولم يفهمه، وقال: «ولماذا..؟ قل يا صالح فقد أقلقتني».

قال: «إن هذا المنجم سينقل كلامك إلى أبي مسلم، وربما زاد فيه من عنده ما يضاعف نقمته علينا».

فتطاول أبو سلمة بعنقه وحملق بعينيه وتحفز كأنه يهم بالوثوب، وقال: «ينقل كلامي إلى أبي مسلم؟! كيف هذا وهو لا يعرفه؟ أظنك واهماً».

قال: «لست واهماً يا مولاي، فإني أعرف الرجل معرفة جيدة، وهو من أتباع أبي مسلم، بل هو من أكبر ثقاته وأمضى أدوات القتل

عنده».

فقال أبو سلمة وقد تلعثم لسانه من شدة التأثر: «وكيف ذلك؟».

قال: «قد عرفت هذا اليهودي خازناً عند أبي مسلم، وعلمت من دهائه ومكره ما أكد لي أن أبا مسلم يعوّل عليه في التجسس، ولا ريب عندي في ذلك».

قال: «وما الحيلة الآن؟».

قال: «لا حيلة لنا إلا القبض عليه أو قتله حتى لا يستطيع إبلاغ خبرنا إلى أبي مسلم».

قال: «نعم الرأي». ثم صفق فدخل حاجبه فقال له: «هل تعلم المكان الذي سار إليه المنجم الحراني؟».

قال: «كلا يا مولاي، ولكنني رأيته ركب ووجهته الكوفة، وقد حثّ بغلته على الاسراع».

فنظر أبو سلمة إلى صالح كأنه يستطلعه رأيه، فقال صالح: «أظنه ينزل في خان هناك أو في بعض منازل اليهود أو معابدهم».

فالتفت أبو سلمة إلى الحاجب وقال: «ادع لي أبا ضرغام العيار».

فخرج الحاجب وقد استغرب صالح طلب أبي سلمة، فقال له: «هل تنوي إرسال العيار في طلب اليهودي؟».

قال: «نعم، وقد ادخرت هذا العيار ومعه نخبة من أمثاله لمثل هذه المهمة لسرعة حركاتهم واطلاعهم على المخبآت».

ولم يتم كلامه حتى عاد الحاجب ووراءه رجل عاري الصدر والظهر، مكشوف الرأس، حافي القدمين، ليس عليه من الثياب إلا

سراويل قصيرة من خيش متين، وقد علّق بكتفه مخلاة مملوءة بالحصى، وفي يده اليمنى مقلاع، وفي اليسرى قطعة من الخبز يمضغها. فابتسم له أبو سلمة وقال: «أتعرف الكوفة يا أبا ضرغام؟».

فضحك أبو ضرغام وقال: «وكيف لا أعرفها؟».

قال: «أرأيت المنجم الذي جاءنا في هذا الصباح وخرج من عندنا الآن؟».

قال: «أتعني اليهودي المكحل صاحب العكاز؟ لقد رأيته خارجاً ووراءه غلامه، وقد أعجبني الجراب الذي كان يحمله فإنه يصلح لحمل الحصى».

قال: «أتستطيع أن تأتيني به ولك جرابه، وملء جرابه مما تشتهي؟ وهو قد ذهب إلى الكوفة، فإما أنه نزل في خان بها، أو نزل عند بعض اليهود».

قال: «إني أسوقه إليك كما يُساق الغنم للذبح، ولكن هب أني لم أستطع استقدامه حياً فماذا أفعل؟».

قال: «إنني أوثر أن تأتيني به حياً. هل يعسر عليك ذلك؟».

فهز العيار رأسه وضحك، ثم قال: «يعسر عليَّ؟! كلا فإني سائقه إليك ولو كان في الجحيم، وهب أنه طار في الهواء فإني أرسل إليه حجراً بهذا المقلاع». قال ذلك وأشار إلى المقلاع الذي بيده.

فضحك أبو سلمة وقال: «اذهب سريعاً، واحذر أن يفوتك». فودع العيار وانصرف لإنجاز مهمته.

انشرح صدر أبي سلمة لوثوقه بمقدرة العيار، فالتفت إلى صالح وقال: «لا يلبث هذا اليهودي أن يأتيك صاغراً، فأخبرني الآن بما

فعلته في الشام؟».

وكان صالح قد اطمأن قلبه أيضاً وسرى عنه. فقص على أبي سلمة حديث سفره من أوله إلى آخره، فأعجب بدهائه ومكره غاية الإعجاب. وقال: «أواثق أنت من أن إمامهم إبراهيم قد قُتل؟».

فقال: «لا شك في ذلك، وقد انتقلت البيعة إلى أخيه أبي العباس، فعلينا أن نقضي على هذا أيضاً وعلى بقية العباسيين لتفضي الخلافة إلى العلويين. وهذا محمد بن عبد الله الحسني مقيم بالمدينة، وقد بايعه بنو هاشم من العباسيين والعلويين على أن يكون خليفة المسلمين بعد ذهاب دولة بني أمية».

فقطع أبو سلمة كلامه وقال: «أنا على يقين من أن أبا العباس وأخاه المنصور وكل بني هاشم بايعوا محمداً هذا، ولكنهم ينكرون هذه البيعة الآن. ولولا ذلك لما كان ثمة باعث على هذا الاختلاف».

قال: «مهما يكن من الأمر فإن أبا العباس وأخوته وأعمامه وبقية أهله قادمون إليك بعد قليل، وسينزلون عندك فتستطيع إرسالهم إلى خوارزم!». قال ذلك وضحك.

فلم يفهم أبو سلمة مراده فقال: «ولماذا نرسلهم إلى هناك؟».

قال: «إنما أريد أن تقتلهم، وهذا تعبير تعلمناه من أبي مسلم كبير القَتلة والسفاحين».

فضحك أبو سلمة، وقال: «وهل تريدني أن أقتل آل العباس؟».

قال: «سواء أعنيته أم لم أعنه فإن الأمر لا يتم للعلويين إلا بقتل هؤلاء وإذا لم تقتلوهم قتلوكم!».

فأطرق أبو سلمة وهو ينظر في بساط بين يديه عليه رسوم

ملوك الفرس، وظل صالح ساكتاً يراقب ما يبدو منه ويرجو أن يوافقه على قتلهم، لاعتقاده أنها فرصة ثمينة إذا لم يغتنموها ولّت ولن تعود. ثم رفع أبو سلمة بصره إلى صالح وقال: «لا، لا.. لن أقدم على هذا الأمر، فإني إذا أقدمت عليه ارتكبت منكرين كبيرين. أولهما قتل جماعة من أبنا عم النبي لا ذنب لهم، والثاني إني أخفر ذمتي وأغدر بجيراني وأضيافي. فكيف أقتلهم؟ هذا لا يكون».

فهز صالح كتفيه وزمَّ شفتيه، ثم أشار بعينيه وحاجبيه إشارة التبرؤ كأنه يقول: «افعل ما بدا لك، هذا الأمر لا يعنيني». ثم تحفز للقيام وقال: «لا أنكر فظاعة هذا العمل، ولكن الدول لا تقوم إلا بمثل ذلك. وهذه وصية إمامهم لو أخذناهم بها جاز لنا قتلهم، فهو يقول: (من شككت فيه فاقتله). وكم قتلوا من أبرياء لا ذنب لهم. ولو أن أبا مسلم كان مكانك ما ضيّع هذه الفرصة، لأن الفوز مضمون. فالناس بايعوا لآل البيت وأكثرهم يرون البيعة لأبناء علي، ولكن أبا مسلم يموّه عليهم ويدعوهم إلى بيعة آل العباس. فإذا لم يبق أحد منهم فالبيعة تنحصر في آل علي. وهذا محمد بن عبد الله في المدينة وبيعته في أعناق العباسيين. ومتى علم أبو مسلم بموت أبناء العباس فإنه لن يرى بداً من مبايعة أبناء علي، وإلا فإن حروبه وفتوحه تذهب سدى ولا ينتفع أحد بها، لعلمه أن الناس لا يخضعون إلا لخليفة قرشي».

فقال أبو سلمة: «لا أستطيع دفع حجتك هذه، ولكني لا أستطيع أن أتصور سيفاً مسلولاً لقتل جماعة من أبناء عم النبي، ويكفي ما دبرناه لقتل أحدهم».

فضحك صالح، وقال: «كأنك فهمت أني أريد قتلهم بالسيف جهاراً كما يقتل المجرمون؟ كلا وإنما نقتلهم بلا ضوضاء ولا بكاء،

فلا يشعر أحد بهم. نقتلهم بالسم في اللبن أو العسل، كما يفعل بنو أمية بأعدائهم. وإذا أكبرت أن تقتل كل القادمين عليك من بني العباس، فاقتل أخوة إبراهيم الإمام الذين يخشى نقل البيعة إليهم وهم ثلاثة، أو اقتل أبا العباس الذي انتقلت البيعة إليه على الأقل. فإذا شق عليك مباشرة ذلك بنفسك، فاعهد فيه إليّ فأقضيه لك من أيسر سبيل».

وكانا يتكلمان واقفين، وظن صالح أنه تغلب على رأي أبي سلمة ولكنه ما عتم إن رآه ينكر ذلك ويعظمه إلى أن قال: «لا أراني أستطيع إتيان هذه الجريمة، سواء على يدك أم على يد سواك. فالذنب ذنبي على كل حال. فإذا كانت لديك حيلة غير هذه فاذكرها».

قال: «هذه فرصة سانحة، فإذا لم تغتنمها ذهب سعيك في نصرة العلويين عبثاً، لأن أهل الفتك والغدر لا ينبغي أن يعاملوا إلا بمثل ذلك. وإلاّ فهم الفائزون، ولا أظنك تجهل أن علياً وأولاده وأحفاده إنما فشلوا فيما يطلبون من أمر الخلافة لأنهم لا يستعينون في تأييد حقهم بغير التقوى والعدل. وكم من فرصة مثل هذه سنحت لدعاة العلويين ولكنهم عدوا اغتنامها منكراً، فذهبت وضاعت حقوقهم. وعلى عكس ذلك سار الأمويون، فإنهم ينقبون عن مثل هذه الفرص ويبذلون في سبيلها المال والرجال. فإذا أطعتني نلت ما تبتغيه وأقمت الدولة العلوية، ولم يضع مال العلويين هذه المرة كما ضاع من قبل. وأنت بعد ذلك مخيّر، وإذا خالفتني أطعتك».

فقال أبو سلمة: «لي أسوة بالإمام عليّ وأهله، ولا أطمع في أن أكون أشد منهم حزماً وأصوب رأياً!».

فلم يرَ صالح حيلة في إقناعه فسكت، ثم تذكر أمر إبراهيم اليهودي الخازن فقال: «وهل تظن العيار عثر على المنجم؟».

قال: «إذا كان هذا المنجم على سطح الأرض فإنه لا يستطيع الفرار من يده». ثم صفق فدخل الحاجب، فقال له: «هل علمت شيئاً عن أبي ضرغام؟».

قال: «علمت أنه حينما خرج من حضرتك أشار إلى رجاله فتبعوه، وكلّ منهم في مثل لباسه وسلاحه، بعد أن تلا عليهم ما أمرتهم به، وفرّقهم في أطراف المدينة وذهب هو إلى وسطها ولم يعد بعد».

فهزّ رأسه إشارة إلى الاكتفاء بما سمع. فخرج الحاجب. ثم استأذن صالح في الانصراف لرؤية جلنار، فأذن له وقال: «كنت أحسب أنك لقيتها قبل مجيئك إليَّ، فاذهب إليها وخفّف عنها». قال ذلك وعيناه تدمعان.

خرج صالح من عند أبي سلمة يقول لنفسه: «إن مَن كان فيه حنان النساء وضعف الغلمان لا يصلح لإنشاء الدول، وإنما تنشأ الدول بالدهاء والحزم والفتك!».

ثم سار حتى بلغ دار النساء وهي قريبة من قصر أبي سلمة، فوجد سليمان ينتظره ببابها، فسأله عن جلنار فقال: «هي في خير، ولكنها قلقة لطول غيابك».

فقال: «وأين هي الآن؟».

قال: «في هذه القاعة ومعها ريحانة». وأشار إلى قاعة داخلية.

قال: «ادع لي أحد الخصيان».

فذهب وعادَ بخصي أبيض، فقال له صالح: «أبلغ ضيفتكم الخراسانية أني أريد مقابلتها». ولم يذكر اسمها رغبة في كتمان أمرها لأسباب تقدم بيانها. ولم يكن أحد عالماً بحقيقة أمرها غير أبي سلمة

وامرأته وبعض الجواري. فذهب الخصي ثم عاد ودعاه إلى قاعة توصل إلى الخارج بباب خاص. فدخل صالح واستقبلته جلنار باسمه لأول مرة منذ انتابتها تلك المصائب، فانشرح صدر صالح أو أظهر الانشراح، لأنه يضمر أموراً هي أكبر شأناً عنده مما يظهره من رغبته في قيام الدعوة العلوية وسقوط العباسيين والأمويين. ولو خيّروه لاختار ذهابهم جميعاً. ولكن الظروف اضطرته إلى الانتقام لجلنار ولنفسه من أبي مسلم.

فلما دخل صالح القاعة، ابتدرته ريحانة بالترحاب والسؤال عن حاله ثم قالت: «لقد أقلقنا غيابك حتى الآن، وقد أخبرنا سليمان أنك أتيت منذ ساعات». قالت ذلك معاتبة.

فقال: «كان يجب أن أسرع في المثول بين يدي مولاتنا الدهقانة، ولكنني أحببت أن أكلم أبا سلمة في بعض الشؤون المتصلة بمهمتنا».

فقالت جلنار: «علمت من سليمان بعض ما بذلته من الجهد في سبيل غرضنا، مثل جعل مروان الأموي يقبض على إبراهيم الإمام ويحبسه، وكنت أحب أن أسمع تفصيل هذا الخبر منك».

فأشار برأسه مطيعاً، وقال: «لم يعرف سليمان من أعمالي إلا القليل، هل أخبرك أننا قتلنا الإمام؟».

قالت: «كلا، وهل قتلتموه؟».

قال: «نعم». وقصّ عليها حكاية رحلته وما دبره من الحيل لينجح في مهمته، فأحست بانفراج كربتها كأنها انتقمت لأبيها وشعرت بجميل صالح حتى غدت لا تعرف كيف تبدي شكرها له، فسرّه ما بدا من سرورها، ثم تذكر أمر إبراهيم الخازن واطلاعه على مقرهم، وخشِيَ ألاّ يستطيع العيار القبض عليه قبل رجوعه إلى

خراسان فتكون العاقبة وخيمة عليهما وعلى أبي سلمة. كما تذكر الرسالة التي بعث بها إلى ابن كثير مع السائس الأبكم. فالتفت إلى ريحانة وقال: «ألَم يرجع السائس من مهمته؟».

فضحكت ريحانة وقالت: «عاد منذ بضعة أيام».

فاستغرب ضحكها ورأى جلنار تضحك معها كأنهما تكتمان أمراً، فقال لها: «ما بالك تصمتين؟ ألَم يبلغ رسولنا الرسالة؟».

قالت: «لا أضحك لهذا فإنه بلغها كما ينبغي، ولكنني تذكرت حاييم المنجم الذي جاء معه».

فخفق قلبه عند سماع الاسم، وقال: «ومَن هو حاييم هذا؟».

قالت: «منجم يهودي من أهل حران، التقى به سائسنا أثناء رجوعه من مهمته».

فعلم صالح أنها تعني إبراهيم الخازن، فخاف أن يكون قد علم منها شيئاً، فقال: «وما الذي أضحكك من هذا المنجم؟».

قالت: «أضحكني منه أنه خفيف الروح كثير المجون، فضلاً عن مهارته في استطلاع الخفايا بالتنجيم. إني لا أنسى حركاته في استخدام الاسطرلاب فقد أضحكنا كثيراً، وكان تسلية كبرى لمولاتي أثناء انتظار رجوعك. وقد رأينا منه المعجزات!».

فازداد خوف صالح وقال: «ما الذي كشفه لكم من الخفايا؟».

قالت: «كشف لنا أشياء كثيرة، وأغرب ما في مهارته أنه كان يطلعنا على أسرارنا بالإشارة ولا يتكلف لفظاً».

فتحقق صالح أن المنجم لم يكشف لهما سراً، ولكنه ساقهما إلى كشف أسرارهما بالاشارات المبهمة على عادة المشعوذين، إذ يستخدمون إشارات تنطبق على معانٍ عدة، فإذا كان السائل يعتقد

صدق المنجم فسّرَ إشارته بما يوافق هواه فيبوح بسرّه وهو يحسب المنجم قد كشفه بمهارته. وهزّ صالح رأسه وظهر الارتباك في عينيه، فظنته ريحانة لم يصدقها فقالت: «كأنك لم تصدقني، فاسأل مولاتي كيف قصّ عليها حديث أبيها ومقتله وفرارها معك إلى هنا حتى ذهابك إلى الشام!».

فلم يستطع صالح أن يمسك نفسه، فدقّ كفّاً بكف وقال: «لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم». فلم تفهما سر قلقه واضطرابه وقالت جلنار: «ما بالك يا صالح، ماذا جرى؟».

فوقف وقال: «لم يبق لنا مقام هنا، فقد افتضح أمرنا. خدعكما اليهودي الخبيث وعرف أسرارنا، لعنك الله يا إبراهيم ولعن الساعة التي رأيتك فيها».

فابتدرته ريحانة قائلة: «ليس هو إبراهيم وإنما هو حاييم».

قال: «بل هو إبراهيم اليهودي خازن أبي مسلم، وهو الذي سقاني السم كما سقى ابن الكرماني عندما كان يرقص بجلد الدب. وقد رأيته في الصباح خارجاً من عند أبي سلمة بعد أن عرف سرّه أيضاً. ولولاكما لم يستطع ذلك لأنكما ساعدتماه على معرفة خبري، فساعده ذلك على خداع أبي سلمة حتى ظن فيه القدرة على معرفة الغيب فباح له بأسراره!».

وكان يتكلم وهو يخطر في الغرفة، وجلنار وريحانة تتبادلان نظرات الأسف والجزع، وقد ترقرقت الدموع في مآقيهما، فقال صالح: «لا فائدة من الأسف على ما فات. وسأريه عاقبة مكره».

ثم روى لهما أنه اطلع أبا سلمة على حقيقة أمر إبراهيم اليهودي، فأنفذ بعض العيارين ليأتوا به إليه حيّاً أو ميتاً. فلما قال ذلك، لحظ أن جلنار تنظر إلى ريحانة كأنها تدعوها إلى التصريح بشيء

تخجل هي من ذكره، فاستغرب ذلك وقال: «ما لي أراكما تترددان..؟ هل أخطأت إذ سعيت للقبض على هذا الخبيث؟».

فقالت ريحانة: «كلا فقد قمت بالواجب، ولكن..». ونظرت إلى مولاتها فإذا هي مطرقة خجلاً، فواصلت كلامها وقالت: «ألا تستطيع تأجيل قتله يوماً؟».

فاستغرب صالح هذا الاقتراح، وقال: «ولماذا هذا التأجيل؟».

فالتفتت إلى مولاتها وسكتت. فازداد صالح استغراباً ووجه كلامه إلى جلنار وقال: «ما الذي تكتمانه عني؟ لعلكما تسيئان الظن بي؟».

فقالت ريحانة: «حاشا لنا أن نسيء الظن بك بعد ما رأيناه من جهادك في سبيلنا، ولكن مولاتي تود تأجيل قتل المنجم لأنه شغل ذهنها بكلمة قالها ووعد بتفصيلها في الغد».

قال: «وأي كلمة؟ هل يجوز أن أعرفها؟».

قالت: «نعم، يجب أن تعرفها، أنه لما جاءنا وجرى ذكر أبي مسلم عرضاً في الحديث نظر إلى مولاتي نظرة اهتمام. وقال لها: (سأفاجئك غداً بخبر يفرح قلبك، ولكن لا أحب أن يعرفه أحد). وأحببنا أن نستزيد بياناً، ولكن خادم أبي سلمة جاء ومضى إلى مقابلته».

فلما سمع صالح ما قالته أدرك أن جلنار لا تزال عالقة بأبي مسلم، فارتبك في أمره وخاف أن يكون أبو مسلم قد ندم على مجافاته جلنار فأحب استرضاءها، فبعث بإبراهيم متنكراً لهذه الغاية. ولعله أوصاه بأن يفعل ذلك خفية، وربما كان من بعض مهمته أن يستطلع مساعيه، ويتجسس أحوال العلويين ونحو ذلك. مرت هذه الخواطر

في ذهنه، بينما جلنار تنظر إليه خلسة وتخاف ألا يلبي طلبها. فرأى صالح أن يجزم بكذب إبراهيم ويقبح نيته، مخافة أن يكون وراء أقواله ما يعرقل مساعيه أو يعود بالخطر عليه، فتضاحك وقال: «إني لأعجب من مولاتي الدهقانة كيف تعلق أهمية على كلمة قالها هذا المنافق وهو يريد بها التمويه ليستطلع ما بقي من أسرارنا أو ليوقعنا في الفخ؟ ألا تعلمين دهاء هؤلاء القوم وكم غدروا بالناس وغرروا بهم؟».

فقالت ريحانة: «صدقت، ولكننا إذا سمعنا قوله فليس حتماً أن نعمل به، وإننا لن نخطو خطوة إلا برأيك وتدبيرك، فإذا تيسّر الإبقاء على الرجل يوماً أو يومين كان في ذلك وسيلة لزوال قلق مولاتي باطلاعها على ما وعدها بسماعه».

قال: «لا حيلة لنا في الواقع، وقد ذهبت العيارون للبحث عنه وأخذه حيّاً أو ميتاً. فإذا جاؤوا به حيّاً بعثنا به إلى الدهقانة، وأما إذا قتلوه فلا سبيل إلى إحيائه. على أني لا أراه إلا منافقاً يريد التمويه، فإذا أطعتماني وجاءكما فانبذاه وابصقا في وجهه». قال ذلك وفي صوته وملامح وجهه أمارات العتب. فأدركت ريحانة أنه استاء من إلحاحها، وقد سبق إلى ذهنها حسن الظن به ورأت مجاراته في رأيه لتخفف من قلق سيدتها فقالت: «وأنا أرى رأيك، فإن هذا الرجل لا يحمل غير الأذى، والأجدر بنا أن نحذره ونسعى في القبض عليه وقتله لننجو من شره!».

ولم يسع جلنار بعد اتفاق ريحانة وصالح في الرأي، إلا أن توافقهما ولو من وراء قلبها فقالت: «دعوا المقادير تفعل ما تشاء، فإذا جاءنا حياً سألناه ونظرنا فيما يقوله، وإذا قُتِلَ فلا حيلة لنا. وعلى كل حال لا أظنه يستطيع الفرار إذا أراده لأن العيارين لا يفلت منهم

أحد».

وعاد صالح إلى هواجسه وأراد أن يعرف كيف جاء إبراهيم إلى الكوفة، لعله يستطيع بذلك إدراك الغرض من قدومه، فقال لريحانة: «كأني سمعتك تذكرين السائس الأبكم مع هذا اليهودي».

قالت: «نعم قلت لك إنه جاء به معه في عودته من مرو».

فقال: «وأين هو؟ أحب أن أراه».

فخرجت ريحانة مسرعة ثم عادت والسائس معها وهو في حاله التي وصفناه بها قبلاً، فلما دخل حيّا ووقف. فسأله صالح عما تم له في سفره، فأشار الرجل بيديه وعينيه بما يدل على أنه وصل إلى مرو ودفع الكتاب إلى سليمان بن كثير. فسأله كيف عرف منزله، فأجاب بأن رجلاً كان يعرفه من قبل دلّه عليه. فسأله عن شكل ذلك الرجل وأين عرفه فأشار بأنه قصير القامة وأنه عرفه للمرة الأولى في بيت الدهقان يوم نزل أبو مسلم عندهم. فترجح عند صالح أنه إبراهيم بعينه، وأنه لما رأى السائس يسأل عن ابن كثير وتذكر أنه شاهده في منزل الدهقان ظنه قادماً بمهمة من الدهقانة أو منه، فخاف صالح أن يكون قد اطلع على فحوى الكتاب فيتعرض ابن كثير للقتل. فسأله كيف دفعت الكتاب إلى صاحبه، فأشار أنه دفعه إليه سراً وكان وحده في حجرته. فقال: «وماذا فعلت بعد ذلك؟». فأشار إلى أنه خرج من مرو في صباح اليوم التالي، فلقي أثناء الطريق منجماً يهودياً صحبه إلى الكوفة ومعه خادمه، وكان يسايره ويركّبه أحياناً على بغلته ويطعمه من طعامه حتى أتى الكوفة.

فتحقق صالح عند ذلك أنه إبراهيم اليهودي جاء إلى الكوفة في مهمة سرية من عند أبي مسلم، نبّهه إليها قدوم ذلك السائس الجاهل بالكتاب إلى ابن كثير. وأيقن أنه إذا نجا من العيارين وأبلغ أبا مسلم

خبرهم فإنه قاتلهم ومعهم أبو سلمة لا محالة. فأصبح همّه البحث عما أفضت إليه مساعي العيارين في القبض عليه. فأشار إلى السائس أن ينصرف، فلما خرج تقدم صالح إلى جلنار وخاطبها بصوت منخفض، كأنه يحاذر أن تسمعه جدران الغرفة قائلاً: «لقد أخطأنا في الاعتماد على الخدم والأعوان في شؤوننا، ولئن لم يظفر العيارون بذلك اليهودي فإننا لن نأمن الخطر هنا!».

فأجفلت جلنار، وبدت الدهشة في عينيها وهي تقول: «وكيف ذلك؟».

قال: «ذلك لأن إبراهيم هذا إنما جاء للبحث عنا ومعرفة مقاصدنا، وقد نجح في ذلك إذ عرف كل شيء عنا وعن أبي سلمة، وعرف أننا سعينا في مقتل الإمام إبراهيم. فإذا نجا من العيارين ووصل إلى أبي مسلم، فإن هذا لن يدخر وسعاً في الانتقام منا جميعاً».

فارتبكت جلنار وشعرت بقلق وخوف وقالت: «لم يكن لنا ملجأ فيما مضى سواك، وما زلت ملجأنا وعوننا فأشر علينا».

قال: «أرى قبل كل شيء أن نستغني عمن معنا من الخدم، فإذا انتقلنا إلى مكان كنا وحدنا فقط. وأنا ذاهب الآن للسؤال عن العيارين وما فعلوه، فإذا تحققت فشلهم عدت إليكما وأخبرتكما بما ينبغي عمله. وإنما أتوسل إليكما أن تكتما ما دار بيننا، وأرى أن تقوم ريحانة بجمع ما خفّ حمله وغلا ثمنه من المتاع لنكون على أهبّة السفر متى أردنا».

ثم نهض وودعهما وخرج، ودخلتا تتأهبان للرحيل وهما مضطربتان.

خرج صالح قاصداً إلى قصر أبي سلمة ليسأله عما فعله أبو

ضرغام العيار ورفاقه، وقد اعتزم أن يحرض أبا سلمة على قتل إبراهيم اليهودي إذا جاؤوا به حياً، على ألا يطلع جلنار على ذلك. فلما كان في منتصف الطريق سمع ضوضاء وقرقعة وصهيلاً وراء بعض البيوت مما يلي طريق الشام، فالتفت فرأى قافلة من جمال يتقدمها حمار عليه عبد أسود، وحول القافلة بغال مسرجة عليها رجال بألبسة حسنة يبلغ عددهم العشرين، وفي ركابهم بعض الخدم والعبيد، وفي ذيل القافلة بغال عليها هوادج النساء والأطفال. ويتقدم الجميع فارس عليه لباس أهل الكوفة، كأنه خرج من الكوفة للقائهم. فتفرس في الرجل فعرف أنه من حراس أبي سلمة. فرجح عنده أن هؤلاء القادمين هم بنو العباس. وقد جاؤوا من الحميمة بعد مقتل إبراهيم الإمام، فتقدم حتى وقف بحيث يراهم وهم مارون والناس لا يهتمون بهم لأنهم لا يعرفونهم وقد تعودوا قدوم مثل هذه القافلة إلى أبي سلمة. ثم ما لبث أن تحقق صحة فراسته إذ رأى المنصور بينهم، وتذكر ما دار بينه وبين أبي سلمة في شأنهم. كما تذكر حديثه مع المنصور وكيف بشّره بالخلافة يوم رآه في الحميمة، لعله يفيد منه إذا صحّت البشرى.

وكان صالح أثناء تلك المقابلة لا يزال يعتقد أن في وسعه نقل الخلافة إلى العلويين، فلما رآى ما رآه من ضعف أبي سلمة وعجزه أصبح لا يرجو للعلويين فوزاً، فحصر همه في قتل أبي مسلم انتقاماً منه لنفسه وللخوارج أميرهم شيبان.

وظل واقفاً حتى دنت القافلة من دار الأضياف. فتقدم إليها بعض أهل القصر ودعوها إلى قصر آخر لأبي سلمة في بعض أطراف المحلة. فأدرك صالح أن أبا سلمة ينوي كتمان أمرهم عن الناس. وعلم أنه لا يلبث أن ينزل لملاقاتهم أو زيارتهم للترحيب بهم، فأسرع

لمقابلته قبل خروجه ليسأله عما فعل العيارون.

فمشى حتى دخل القصر واستأذن على أبي سلمة فأدخلوه إليه، فرآه جالساً وقد حمِيَ غضبه وبانَ الارتباك في وجهه، فلما دخل عليه صالح لم يتمالك عن النهوض بغتة ومشى نحوه مشية مستنجد وقال: «كأننا سعينا لقتل واحد من هؤلاء العباسيين لنتحمل أثقال بقيتهم. هل رأيتهم قادمين؟».

فلما سمع صالح تذمره، استبشر لعله يستطيع إغراءه بقتلهم فقال: «لو أنني علمت يا مولاي إن نصرتك للشيعة العلوية تقف عند هذا الحد، فيذهب سعيك وجهدي عبثاً. وتعرض حياتك وحياة سائر أهلك وأصحابك للخطر، ما أقدمت على ما أقدمت عليه. وإنك قادر في هذه الساعة أن تنقل الخلافة إلى العلويين كما أخبرتك في هذا الصباح، ولا يكلفك ذلك إلا أن تأمر وأنا أنفذ الأمر. وهي فرصة لا ينبغي إغفالها. فوالله لو ظفر أبو مسلم بمثلها ما أغفلها. وزد على ذلك إن حياتك أصبحت في خطر إذا استبقيتهم».

فقال أبو سلمة: «وأي خطر؟».

قال: «إذا لم يظفر عياروك بذلك المنجم وتمكن من الفرار إلى أبي مسلم وأطلعه على خبرك، فهل تظنه يعفو عنك؟».

قال: «وهل تحسبه يقتلني؟ لا، لا.. إنه لا يفعل ذلك لما يعلمه من نصرتي إياه بالمال والرجال. والشيعة كلهم يعلمون أنه لولا أموالي ونفوذ كلمتي عند الدهاقين وبيوتات الفرس لم تقم لهم قائمة. فهل يجرؤ أحد منهم أن يمسّني بأذى؟».

فابتسم صالح وهز رأسه قائلاً: «أما أبو مسلم فيفعل، وقد فعل ذلك غير مرة».

فاستخف أبو سلمة بنصيحة صالح وحول وجهه عنه ومشى نحو مشمعة من الذهب قائمة في وسط القاعة على كرسي من الابنوس المطعم، وتشاغل بنزع الغبار بإصبعه عن قاعدتها، ثم هَمّ بتغيير الحديث فقال: «هل علمت ما فعله أبو ضرغام؟».

قال: «كلا، ماذا فعل؟».

قال: «عاد إليَّ منذ ساعتين، وأخبرني أنه قلب الكوفة رأساً على عقب هو ورجاله، ولم يغادروا خاناً ولا منزلاً ولا كنيساً ولا حانوتاً إلا دخلوه وفتشوه، فلم يقفوا للرجل على أثر، ولا رأوا أحد يعرفه. حتى حراس أبواب المدينة أجمعوا على أنهم لم يشاهدوا أحداً بهذه الصفة أو ما يقرب منها، مع أنه أكد لي أنه مقيم بالكوفة. وقد أمرت أبا ضرغام أن يبحث عنه في ضواحي المدينة وأرباضها، وألا يترك منزلاً حتى منزلي إلا بحثَ فيه عن ذلك المنجّم المنافق، ولا أدري ما تكون النتيجة».

فأيقن صالح أن إبراهيم الخازن قد أفلت، وأنه مضى ليبشّر أبا مسلم بنجاح مهمته، ولن يتيسر لأحد اللحاق به. ولكنه أظهر أنه لا يزال يرجو العثور عليه فقال: «لا يبعد أن يكون هذا الخبيث قد اختبأ في بعض هذه الأرباض وعسى أن نظفر به». قال ذلك وودعه وخرج يبحث عن مكان يلجأ إليه مع جلنار وريحانة فراراً من بطش أبي مسلم ريثما تتبدل الشؤون.

وفيما هو يفكر في الأمر، تذكر أنه مرّ في الطريق إلى دمشق بدير بالقرب من الكوفة يُقال له دير هند، كانت هند بنت النعمان قد أنشأته قبل الإسلام. وتذكر أن هذا الدير عامر بالرهبان، كما علم من حارسه حينذاك. فخطر له أن يذهب بجلنار وحاضنتها لتقيما به على أن يتردد عليهما متنكراً. فعزم على أن يذهب إلى الدير ويستفهم

عن طريقة الدخول إليه والإقامة معه.

فبات تلك الليلة ولم يغمض له جفن لعظم ما انتابه من الغضب على إبراهيم الخازن. وفي الصباح توجّه إلى دير هند، فوجده آهلاً بالرهبان وعلِم أن به مضيفة ينزل بها مَن شاء على الرحب والسعة. ثم أحبّ أن يسأل: «هل هناك مكان خاص يمكن أن تنزل به جلنار وريحانة دون أن يراهما أحد. فطلب مقابلة رئيس الدير، فأخذوه إلى شيخ جليل عليه سيماء الوقار، فسلّم عليه وأكبّ على يده يهمّ بتقبيلها، فقبّله الرئيس ودعاه إلى الجلوس وأمر له بالزاد والفاكهة والشراب، فشكره صالح وقال: «إني لا أحتاج إلى طعام ولا شراب، وإنما جئتك لأنني أريد أن أستودعك سراً وأستشيرك فيه. فأنتم رجال الله ومستودع أسرار خلقه».

فانشرح قلب الرئيس لهذا الثناء، وقال: «مرحباً بك، قل ما تريد ولا تخف».

قال: «معي فتاة من أهل البيوتات أصابتها نكبة أدت إلى فرارها من وجه الظلم، فلم ترَ خيراً من التجائها إلى هذا الدير، فهل يجوز ذلك؟».

قال الرئيس: «كيف لا وعندنا دار خاصة بالأضياف؟ ولكن ما دمت قد استشرتني فإني أقول أن دار الأضياف عندنا لا تخلو من المارة، ولا نستطيع أن نمنع أحداً من النزول بها، فلا يكون سركم في أمان. ولكني أدلكم على دير للعذارى الراهبات على مرحلة من هذا المكان هو أَوْلى بنزول النساء، لأنه غير مطروق ولا يقيم به الرجال. فإذا شئت أوصيت رئيسته بك، فتهيىء للفتاة غرفة خاصة. وأما أنت فلك أن تقيم عندنا».

فسُرّ صالح بهذا التوفيق المزدوج، وكان يعلم أن الأديرة تقوم

على هبات المحسنين.. فإذا تبرعت جلنار لرئيسة الدير ببضع مئات من الدنانير، ملكت قلبها وكانت آمنة عندها، فارتاح لهذا التدبير، وعاد إلى «حمام أعين» وأحب قبل انتقاله إلى الدير أن يبحث عما فعله العيارون، فسار إلى قصر أبي سلمة واستفهم منه فأجابه بأنهم لم يقفوا للرجل على أثر، فتحقق صالح أن أبا سلمة وبطانته أصبحوا في خطر، ورأى أن يحتال للبعد عنهم، فذهب إلى جلنار وأطلعهما على ما دبّره وقال لها: «فالآن ينبغي أن نخرج من هذه المحلة خلسة بحيث لا يشعر أهلها بنا، ولا يعلم أحد غايتنا».

فقالت: «وخالتي أيضاً؟». قال: «نعم. يجب ألا يعلم بأمرنا أي إنسان غيرنا، فنأخذ ما خفّ حمله من متاعنا ونركب بعض الجياد وحدنا، وتوهم الخدم بأننا ذاهبون للتنزه على ضفاف الفرات. ومتى بعدنا عن المحلة عرّجنا على الدير، فنقيم هناك إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً».

فأحست جلنار كأن حبلاً غليظاً التف حول عنقها وكاد يخنقها لعظم ما ثار في نفسها من اليأس لاضطرارها إلى الفرار إلى دير تنقطع فيه عن الناس، بعد أن أقامت بمنزل أبي سلمة واستأنست بخالتها، وأحبت نساء القصر وأحببنها.. فانفجرت باكية، وأخذ صالح يواسيها فقال: «لا تيأسي يا مولاتي لا بدّ من الأخذ بالثأر ولو بعد حين، وكل آتٍ قريب».

وفي الأصيل خرج الثلاثة من المحلة بقصد التنزّه على ضفاف الفرات وليس معهم أحد من الخدم، حتى إذا تواروا عن الناس تحوّلوا نحو دير هند، فقدم صالح لرئيسه صرّة فيها مائة دينار هبة للدير، وكان الليل قد سدل أستاره، فدعاهم إلى المبيت على أن يبكروا في الذهاب إلى دير العذارى، وقدم لهم من أطعمة الدير وفاكهته

فأكلوا وشربوا وباتوا ليلتهم. وفي الصباح التالي، دفع الرئيس كتابه إلى صالح، فحمله وذهب بجلنار وريحانة ومعهم دليل يوصلهم إلى دير العذارى. فوصلوا إليه عند الظهر، فاستقبلتهم رئيسته أحسن استقبال وأنزلتهم على الرحب والسعة، ولا سيما بعد ما رأت من لطف جلنار وكرمها، فأفردت لها ولريحانة غرفة طلقة الهواء نظيفة الأثاث، وأوصت الراهبات بأن يقمن على خدمتهما أحسن قيام.

- ١٤ -
بيعة أبي العباس السفاح

اطمأن صالح على جلنار، فأقام بدير هند متفكراً في شؤونه وأخذ يتردد إلى دير العذارى حيناً بعد حين، وينزل الكوفة متنكراً ليرى مصير الأمور ويترقب فرصة يتمكن بها من بلوغ غايته. فعلم أن بني العباس نزلوا عند أبي سلمة، وأنه كتم أمرهم عن أهل الكوفة فلم يعلموا بمجيئهم. وكان الخراسانيون قد علموا بانتقالهم إلى هناك، فجاء جماعة منهم وعسكروا خارج الكوفة عند «حمام أعين» وأخذ قوادهم يبحثون عنهم. وكان أبو سلمة بعد أن استنكر أمام صالح الغدر بهم، عاد فنظر في أمرهم فرأى السداد في رأي صالح، ولكنه أعظم الإقدام على قتلهم فحبسهم وكتم أمرهم وتوقع أن يرجع إليه صالح فيشاوره في شأنهم.

وكان صالح يمر بـ«حمّام أعين» متنكراً، فيسمع أهل أبي سلمة وخدم جلنار يذكرون فقدها منذ خرجت مع خادمتها إلى ضفاف الفرات، وقد رجّحوا غرقهما في مائه، وكان يتنكر أحياناً بأثواب الفقهاء فيقضي يومه في المسجد يسمع أحاديث القوم، وأحياناً يلبس ثوب الأجناد أو العيارين أو غيرهم. فعلم أن الناس علموا بمقتل الإمام إبراهيم، وألحفوا في السؤال عن أخوته وأهله، ثم علم بعد

أربعين يوماً من قدوم العباسيين أن الخراسانيين المعسكرين بظاهر الكوفة علموا بوجودهم في دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم، وهي الدار التي أنزلهم فيها أبو سلمة، وأن إبراهيم أوصى بالخلافة لأخيه أبي العباس، فاتهموا أبا سلمة بأنه حبسهم هناك لرغبته في نقل الخلافة إلى العلويين. وذهب إلى تلك الدار رجل من كبار شيعة العباسيين اسمه أبو حميد الحيري، فلما أقبل عليهم لم يعلم أيهم الخليفة فسأل: «مَن الخليفة منكم؟». فتقدم داود بن علي، أحد أعمام أبي العباس، وأشار إليه قائلاً: «هذا إمامكم وخليفتكم». فسلّم أبو حميد عليه بالخلافة، وقبّل يديه ورجليه وقال له: «مُرنا بأمرك». ثم رجع وأخبر جميع القواد، وأعاظم الشيعة، فجاء جماعة منهم حتى دخلوا على أبي العباس فسلموا عليه بالخلافة فلما علم أبو سلمة بانكشاف أمر القوم أراد أن يدخل فيبايع أبا العباس مثل سائر الناس، فمنعوه إلا أن يدخل وحده لأنهم أساؤوا الظن به، فدخل وسلّم عليه بالخلافة.

وكان صالح يسمع أثناء ذلك أنهم سيخرجون بالخليفة ليبايعوه في المسجد يوم الجمعة ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٢ هـ. فتنكر بلباس الفقهاء ووقف في طريق المسجد، فرأى أهل الكوفة قد اصطفوا بأسلحتهم في الطريق. ثم رآه ماراً على بِرْذَوْن أبلق وحوله أهل بيته على الخيول أو البراذين، والناس يتزاحمون ويتطاولون لمشاهدته والتبرّك برؤيته. وما زال الموكب سائراً وصالح في أثره حتى بلغ دار الإمارة، فرأى رجلاً صعد المنبر فأنصت الناس وهم يتهامسون قائلين: «هذا هو الخليفة، اسمعوا خطبته». فنظر صالح إلى أبي العباس، فرأى رجلاً طويل القامة، أبيض اللون، متجعد الشعر، أقنى الأنف، حسَن الوجه واللحية. ثم رأى رجلاً أكبر منه سناً صعد

المنبر في أثره، ولكنه قام دونه، فعلم أنه داود بن علي، ثم أطل أبو العباس على الناس والتأثر بادٍ في وجهه، وخطبهم فقال:

«الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه، وكرمه وشرفه وعظمه، واختاره لنا فأيده بنا، وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والذابين عنه والناصرين له، فألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها، وخصَّنا برحم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابته، وأنبتنا من شجرته واشتقنا من نبعته، وجعله من أنفسنا، عزيزاً عليه ما عنتنا، حريصاً علينا، بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً. ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع، وأنزَلَ بذلك على أهل الإسلام كتاباً يُتلى عليهم، فقال تبارك وتعالى فيما أنزل من محكم كتابه: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾. وقال تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾. وقال: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾. وقال: ﴿وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى﴾. فأعلمهم جلّ ثناؤه فضلنا، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا، وأجزل من الفيء والغنيمة نصيبنا، تكرمة لنا وفضلاً علينا والله ذو الفضل العظيم.

«زعمت الشامية الضلال أن غيرنا أحقّ بالرسالة والسياسة والخلافة منا، فشاهت وجوههم، ولم أيها الناس؟ وبنا هَدى الله الناس بعد ضلالتهم، وبصَّرهم بعدَ جهالتهم، وأظهر بنا الحق ودحض الباطل، وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً، ورفع بنا الخسيسة، وأتم بنا النقيصة، وجمع الفرقة، حتى عاد الناس بعد العداوة أهل التعاطف والبِرّ والمواساة في دنياهم، وإخواناً على سُرر متقابلين في آخرتهم.

«فتح الله ذلك مُنّة وبهجة لمحمد صلى الله عليه وسلم، فلما

قبضه الله إليه وقام بالأمر من بعده أصحابه وأمرهم شورى بينهم، حووا مواريث الأمم فعدلوا فيها، ووضعوها موضعها، أعطوها أهلها، وخرجوا خماصاً منها.

«ثم وثب بنو حرب وبنو مروان فانتبذوها وتداولوها، فحاروا فيها واستأثروا بها، وظلموا أهلها بما ملأ الله لهم حيناً، حتى آسفوه. فلما آسفوا انتقم منهم بأيدينا، ورد علينا حقنا، وتدارك بنا أمتنا، وولى نصره القيام بأمرنا، ليمنّ بنا على الذين استضعفوا في الأرض، وختم بنا كما افتتح بنا.

«وإني لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث جاءكم الخير، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله.

«يا أهل الكوفة، أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك، ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم، حتى أدركتم زماننا، وأتاكم الله بدولتنا، فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا. وقد زدتكم في أعطياتكم مائة درهم، فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المنيح».

ولما بلغ أبو العباس إلى هنا، غلب عليه الضعف واشتد به الوعك، فجلس على المنبر. وقام عنه داود فأتم الخطبة عنه بنحو هذا المعنى، وطعن في بني أمية وسوء سيرتهم، وامتدح أهل خراسان لأنهم نصروا الحق. ثم نزل أبو العباس وعمه عن المنبر، وذهبا إلى دار الامارة. وظل أبو جعفر المنصور في المسجد يأخذ البيعة على الناس. فلم يزل يأخذها حتى صلى بهم العصر ثم المغرب، وجنّ الليل، فدخل وصالح منزوٍ يتأمل فيما جرى بين يديه وهو يكاد يتميز غيظاً لحبوط مسعاه في إبطال البيعة العباسية، ولكنه توسم الفرج من جهة أخرى فإنه رأى في أبي العباس ضعفاً لا يأذن ببقائه طويلاً، وتحقق أنه

إذا مات فالخليفة بعده صاحبه أبو جعفر، لأنه أرشد أخوته، ولأنه تولى أخذ البيعة على الناس.

خرج صالح من المسجد منقبض الصدر، فذهب إلى جلنار وأخبرها بما رأى، وأن الأمر استتب لبني العباس ولا حيلة في ذلك، ولما بكت قال لها: «إننا لا يهمنا قيام هذه الدولة أو سقوطها، وإنما يهمنا أن نقتل ذلك الرجل، وما سعينا في إفساد أمرها إلا لإفساد أمره، فإذا لم يتيسر لنا ذلك من هذا السبيل فإن لنا سُبلاً أخرى!».

فسكتت وتنهدت، وفي نفسها سرّ تحرص على كتمانه وتخجل من إظهاره حتى لريحانة لما فيه من دليل على ضعفها. فإنها كانت رغم كل ما أصابها من أبي مسلم لا تزال تشعر بالميل إليه، وإذا تذكرته أحست بشيء يحسنه في عينيها، وكأن مر الزمان أذهب ما في نفسها من الحقد عليه، ولكنه لم يذهب ما في قلبها من الانعطاف إليه. فكانت تشعر بذلك الانعطاف وتغالط نفسها مجاراة لتيار الغضب الذي دفعها إلى الانتقام، وكان صالح يحرضها على الثبات ويُحبب إليها الأخذ بالثأر. فلما طال جهاده وتوالى الفشل، أخذت نقمتها تتقلص وتصغر، وحبها ينجلي ويظهر، ولا سيما بعد ما قاله لها إبراهيم اليهودي. فلما جاءها صالح بنبأ استتباب الأمر للعباسيين، أحست بانقشاع سحابة الحقد عن قلبها، وتجلّت لها صورة أبي مسلم كما كانت على عهد شغفها به، فخيّل إليها أنه لم يفعل ما فعله إلا جرياً على سياسته في نصرة العباسيين وليس كرهاً لها، فلعله وقد تمّ له ما أراده من تأييد دولتهم أن يصغي لنداء لبه أو يشفق على انكسار قلبها، ولهوى النفوس سريرة لا تعلم.

وكان رأيها قد ضعف في قدرة صالح على الانتقام من أبي

مسلم، لكنها أظهرت الارتياح لوعده بذلك وقالت: «وأي طريق تتوقع أن يبلغنا ما نسعى إليه من الانتقام؟».

قال: «تمهلي يا مولاتي وعلَيَّ تدبير ذلك، فاصبري قليلاً أيضاً والله مع الصابرين». فسكتت وأطرقت وتنهدت، فشعر بأنها تضمر شيئاً، وخاف أن يكون الفشل قد أضعف عزمها، وهو يحتاج إليها في تنفيذ ما اعتزمه من قتل أبي مسلم، فقال لها: «يلوح لي يا مولاتي أن حبوط سعينا هذه المرة قد أثر في عزمك، فلا تيأسي من الفوز، وأنا عبدك ورهين إشارتك، أبذل نفسي في سبيلك، وأنت تعلمين أنني تركت العالم وانقطعت إلى خدمتك، وعاديت شرّ الناس وأدهاهم لإرضائك، ولا ريب في أنه قد علِم بسعينا وعرف مقاصدنا من خازنه اليهودي، فإذا رجعنا عن عزمنا فهو لن يرجع عن الفتك بنا، ولو علمت أنه يكتفي بقتلي ويستبقيك لهانَ الأمر، لأني أحب اللحاق بأبيك رحمه الله». قال ذلك وأجهش بالبكاء، فأوهم جلنار أنه متفانٍ في خدمتها، وذكرها بمقتل أبيها فحرّك عواطفها، فندمت على ما مرّ بذهنها من الميل إلى مسالمة أبي مسلم أو استعطافه، ولا سيما بعدما سمعته من تلميح صالح إلى أن اطلاع أبي مسلم على أمرهم إنما كان بسبب غفلتها، فلمَ ترَ بُدّاً من مسايرة صالح، فأنكرت ما توهمه فيها من ضعف العزيمة، وأكدت له أنها باقية على قصدها، وأنها لا يمكن أن تتنازل عن الانتقام، ولكن يشق عليها ما يكابده هو من العذاب في سبيل ذلك.

قضت جلنار في دير العذارى زمناً ، وصالح يتردد إليها بالأخبار، وأهمها في تلك السنة انهزام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية. وكان قد جاء بجيشه لمحاربة العباسيين في العراق، فغلبوه في بلد يُقال له «الزاب» ففرّ إلى مصر وقُتِلَ ببلدة «بوصير». ثم جاءها

بعد أيام بخبر قتل من بقوا من بني أمية. وذلك أن أبا سلمة أغرى شاعراً بإسماع أبي العباس السفاح بيتاً من الشعر، حرّضه فيه على قتلهم مرة واحدة، وكان عددهم نحو التسعين. وكان ذلك بعد أن أمنهم وأذِنَ لهم في شهود مجلسه، ففيما هم على مائدته يأكلون مطمئنين، أمر فضربوا بالعمد حتى قتلوا، وبسط عليهم الانطاع، فأكل عليها وهو يسمع أنينهم حتى ماتوا جميعاً!».

فلما سمعت جلنار ذلك قطعت كلام صالح، وصاحت قائلة: «أعوذ بالله!. يغدرون بأضيافهم ثم يأكلون الطعام فوق جثثهم وهم يسمعون أنينهم؟».

فقال: «هذا ما حدث، فهل يركن إلى مثل هؤلاء أو يُرجى عفوهم؟».

ثم جاءها صالح بعد قليل بخبر قتلهم أبا سلمة، فعظم مصابه عندها، لأنه كان يحبها ويكرمها، فسألت صالحاً عن سبب قتله فقال: «وهل تجهلين السبب؟ إن القوم شكوا فيه فقتلوه ونسوا ما بذله من الأموال في سبيل نصرتهم».

فقالت: «إني لم أسمع بمثل هذا البطش والفتك، ولا أظن بني أمية كانوا أشد فتكاً من هؤلاء، وكيف قتلوه؟».

قال: «علمت أنهم اتهموه في إخلاصه لهم، وكان قد بايع أبا العباس، وجعله هذا وزيره حتى ابتزّ بقية أمواله. ثم كتب إلى أبي مسلم في خراسان يستشيره في أمره، فأشار بقتله وأرسل رجلاً من عنده قتله سراً، وأشاعوا أن بعض الخوارج قتلوه، فصدق أهل الكوفة ذلك».

قالت: «قبّحهم الله ما أقسى قلوبهم، إن أبا سلمة رجل ليس فيهم مثله».

فقطع صالح كلامها وقال : «وأغرب من ذلك قتلهم سليمان بن كثير، مع أنه لم ينوِ الغدر بالعباسيين قط!». فأجفلت وقالت: «قتلوه أيضاً؟ وكيف كان ذلك؟».

قال: «لما قتلوا أبا سلمة، اتفق أن ابن كثير قال كلمة نقلها بعضهم إلى أبي مسلم، فقتله على تلك الشبهة!».

ـ ١٥ ـ
خلافة المنصور

أيقن صالح أن جلنار ثابتة على عزمها، فأخذ في تدبير الوسيلة للفتك بأبي مسلم أسوة بما فعلوه بأبي سلمة. وأخذ يترقب الفرص لذلك، فلما مات أبو العباس السفاح سنة ١٣٦ هـ. وأفضت الخلافة إلى أخيه المنصور، ذهب إلى جلنار وأمارات السرور بادية في وجهه، وكانت جلنار تنتظر مجيئه بفارغ الصبر، فلما رأت سروره استبشرت وابتدرته قائلة: «هل من جديد؟». فقال: «لقد دنا وقت النجاح، إذ مات أبو العباس، وخلفه المنصور، وكنت قد بشّرته بالخلافة منذ بضعة أعوام. فأرجو أن يكون نيل المرام على يده، ولا سيما أن في نفسه حزازات على أبي مسلم من قبل».

فقالت: «وأي حزازات في نفسه، وأبو مسلم هو الذي مهد الخلافة للعباسيين. ولو أراد تحويلها إلى سواهم لما لقِيَ معارضاً؟».

فاستغرب صالح تصدي جلنار للدفاع عن أبي مسلم، وفاته أن الحب إذا تأصل في قلب الكريم، لم تنزعه الكوارث ولكنها قد تضغط عليه فتخفيه، فإذا أزيحت عنه عاد أقوى مما كان. على أنه تجاهل وقال: «لا يخفى على مولاتي الدهقانة أن طلاب السيادة هذا شأنهم، فإنهم لا ينفكون يتناحرون ويتحاسدون ويتخاصمون. فأرى الآن أن أذهب إلى المنصور فهو لا شك سيرحّب بي ويستبقيني عنده، وأنا

أحب البقاء هناك للسعي في أمرنا، فهل تبقيان هنا؟ أم تذهبان معي إلى الأنبار مقر الخلافة الآن.

فقالت جلنار: «كيف نبقى هنا وأنت بعيد عنا؟ أرى أن ننتقل إلى الانبار نقيم ببعض بيوتها، ولا خوف علينا فإن الناس نسوا أمرنا وكفانا سجناً هنا».

وبدا الفرح في وجه ريحانة، لأنها كانت قد ملّت الانزواء في الدير، ثم قال صالح: «أرى أن أذهب وحدي أولاً، ثم أعود إليكما فنذهب معاً». فوافقته على ذلك، وقالت: «إذا أبطأت علينا، فإننا نلحق بك ونبحث عنك في بلاط الخليفة». قال: «حسناً». وخرج يتأهب لمقابلة المنصور فصبغ لحيته وبدّل ثيابه، فعاد إلى هيئته التي قابله بها في الحميمة منذ بضع سنوات، وزاد على ذلك أنه غطى عينيه بعصابة، مبالغة في التنكر، لعلمه أن في دار المنصور أناساً يعرفونه ولا سيما خالد بن برمك.

وفيما كان المنصور جالساً ذات يوم في داره بالانبار، دخل عليه حاجبه الربيع، وأنبأه بأن رجلاً مكفوف البصر يطلب المثول بين يديه على انفراد. فأشار المنصور إلى مَن في حضرته من القواد فخرجوا وأذن بدخوله، فدخل مطرقاً يتوكأ على عصاه، وقد غطى عينيه بعصابة وتظاهر بالضعف. فلما أقبل على الخليفة سلّم وقال: «أشكر الله الذي أراني صاحب القباء الأصفر على كرسي الخلافة وإن كنت أرمد».

فعرفه المنصور، فوقف له وأخذ بيده حتى أجلسه على وسادة بين يديه وهو يقول: «مرحباً بالصديق القديم، إني ما برحت أفكر فيك وأتمنى قدومك، فاطلب ما تريد».

قال: «لا أريد يا أمير المؤمنين سوى تأييد دولتك وطول

بقائك، وقد أخبرتك يوم التقينا في الحميمة أني سآتيك على غير انتظار، فها قد جئتك».

فقطع المنصور كلامه قائلاً: «وما الذي أصاب بصرك؟».

قال: " لا أدري ما أصابه، ولعله عقاب لي على أني لم أقم بالمهمة التي جئتكم بها هناك في الوقت المناسب، فقُتِل الإمام إبراهيم. ولكنني لم أتعمد ذلك، وعلى كل حال لست في حاجة إلى البصر لولا رغبتي في رؤية أمير المؤمنين».

قال: «أدعو لك طبيباً يصف لك دواء؟».

قال: «كلا. فإننا معشر الزهاد لا نستعين على الأمراض بالعقاقير، وإنما ندفعها بالأدعية».

فقال المنصور: «عسى أن يكون قدومك للإقامة عندنا هذه المرة».

قال: «لقد دُعيتُ لأكون في خدمتك إلى أن تستغني عني أو أموت. فإني لا أرجو البقاء طويلاً، ومثلي لا يليق بمعاشرة الخلفاء أو مخاطبتهم، ولكنني علمت بما يحيق بدولتك من الأخطار لكثرة أعدائك وحسّادك، فأحببت أن يكون لي يد في تأييدها على عجزي وقصر باعي».

فقال المنصور: «بل أنت صاحب الفضل الأكبر، لأنك بشّرتني بالخلافة وأنت لم تعرفني. فأحب أن تكون عندي الآن، وإذا شئت جعلتك رئيس المنجّمين».

فقال: «لا أراني أهلاً لهذا المنصب ولا أملك أن أُسمّي نفسي منجّماً، لأني لا أحمل أدوات التنجيم، وإنما أنطلق بما يلقيه إليّ الهاتف أو يلهمنيه الله. ولقد كنت أستعين بالنجوم قبل أن يذهب

بصري، فإذا أردتني في خدمتك، فضعني في حجرة من حجرات دارك أو في مكان آخر لا يراني فيه أحد، لأني لا أرى أحداً».

فقال: «بل تقيم بداري لتكون قريباً مني». وصفّق فجاء حاجبه الربيع فأمره أن يأخذ الزاهد إلى حجرة منعزلة في داره وأن يقوموا على خدمته، ففعل.

ولما خلا المنصور إلى نفسه، عاد إلى دهائه وذكائه وشدة حذره وسوء ظنه. فرأى إقامة الزاهد الغريب بداره لا تخلو من مخاطرة، وأراد أن يختبر كرامته وولايته لئلا يكون دسيسة من أعدائه، فأرسل إلى خالد بن برمك وكان موضع ثقته، فأخبره بأمر الرجل وأنه يؤثره على سائر المنجّمين، ويودّ أن يستعين به عند الحاجة، ثم قال له: «ولكنني أخاف أن يخدعني فأدخل عليه وأمتحنه، وأبق الأمر سراً بيننا».

قصد خالد إلى حجرة الزاهد فدخلها، وظل المنصور والربيع بالباب بحيث يسمعان. فلما سمع صالح وقع الأقدام، تظاهر بالتفكير، حتى دخل خالد وألقى عليه السلام، فعرفه من صوته فأجابه بقوله: «وعليك السلام يا ابن برمك. إنك خير الوزراء لخير الخلفاء».

فبغت خالد لمعرفته باسمه، وسُرّ لتلقيبه إياه بالوزير، فالتفت إلى المنصور، فرآه يشير إليه أن يغالطه. فقال خالد: «وما ذنبي عندك حتى جعلت أبي مجوسياً؟ أما كان السكوت أجدر بك إذا كنت لم تعرفني».

فضحك صالح وقال: «وما ذنبي أنا إذا كنت خالداً، وقد ولّدك برمك المجوسي؟ على أن مجيئك من صلب رجل غير مسلم لا يمنع فضلك. وإذا كنت تختبرني، فاسأل أجِبكَ بما لا يدع عنك شكاً

في إخلاصي».

فأُعجب خالد بالجواب، وسَرّه وجود مثل هذا الرجل في بلاط الخليفة. وكان ميّالاً إلى الاعتراف بمهارته لأنه تنبأ بوزارته، ولكنه خاف إن طلب إليه قراءة ما في ضميره أن يصرّح بأمور لا يرضاها المنصور، والفرس لا تخلو أفكارهم يومئذ من شيء على آل العباس، فأجّل ذلك حتى يخلو إليه. وأشار المنصور بالانصراف، فرجعا وقد رسخ في ذهنيهما صدق الزاهد، وأمر المنصور الربيع بألا يأذن لأحد بالدخول عليه. فظل صالح وحده، وقد سَرّه أن يكون الممتحن خالد بن برمك لأنه مطّلع على كثير من أحواله ويُعرف صوته منذ رآه في منزل دهقان مرو قبل بضع سنين!

ولما سمع خالد وصية الخليفة للربيع بمنع الناس من مقابلة الزاهد استأذن في مقابلته صباح الغد، ليسأله في أشياء تهمّه، فأذن له الخليفة في ذلك.

وبكّر خالد في الصباح بالذهاب إلى صالح، فرحّب به هذا وبشّره ومنّاه استجلاباً لرضاه. فجلس خالد بين يديه وقال: «لقد جئت إليك في أمر يهمني الاطلاع عليه، فإذا كشفته فرّجت كربة كثيرين».

قال: «قل لعلي أستطيع ذلك بإذن الله».

قال: «لي صديق وقع في مشكلة لا دخل لها بالسياسة أو الحرب، وإنما تتعلق بشخصه وشخص آخر يحبّه. وقد أضاع ذلك الحبيب، وهو يريد أن يعرف مكانه».

فمدّ صالح يده حتى قبض على يد خالد، وقال: «صرّح أو اعطني أثراً من آثار الضائع فأعرفه».

قال: «لا سبيل لي إلى أثر من آثاره... ولكنني أزيدك تصريحاً، أتعرف أبا مسلم الخراساني؟».

فقال: «ومَن لا يعرف صديقك أبا مسلم؟».

فقطع خالد كلامه قائلاً: «لا تقل صديقك، لأن الخليفة متغيّر عليه وقد اتهمه، ولا أحب أن تكون لي يد في هذه التهمة. ولذلك قلت لك أنه سؤال لا علاقة له بالسياسة ولا بالحرب. فإن مسألة أبي مسلم تتعلق بفتاة أحبته ولم يحبها فأساء إليها، ثم ندم فأحب أن يسترضيها فلم يقف لها على أثر، وما زال يبحث عنها، فهل تعرف مكانها؟».

فلما سمع كلامه تذكر ما قالته جلنار عن إبراهيم الخازن، فعلم أنه إنما جاء للبحث عنها، وتذكر ما لحظه من انتعاش آمالها وتحرك قلبها، وأيقن أن أبا مسلم ينوي قتله وأخذ جلنار منه، فقال في نفسه: «لقد آن وقت العمل». وكان ما زال قابضاً بيده على يد خالد، فأطرق كأنه يفكر ثم رفع رأسه وقال: «مسكينة جلنار! كم أحبت هذا الخراساني وخدمته، وكم أساء إليها وعذبها، فما الذي غيَّره؟».

فدُهش خالد لذكره اسم الفتاة وخلاصة قصتها، وقال: «أنا الذي غيرته، لأني كنت عالماً بحبها له وتفانيها في خدمته حتى قتلت زوجها لأجله، ثم اتهم أبو مسلم أباها بالخيانة وقتله، وجاءت لتعاتبه فأهانها وسجنها، ولم أكن حاضراً حينذاك، فلما كان اليوم التالي توسمت فيه ندماً على ما فرط منه على غير عادته، فأخذت في تأنيبه وحببت إليه التزوج بها، فرَضِيَ وبعث يستقدمها من السجن، ولكننا لم نقف لها على أثر. وكنت شديد الرغبة في الوقوف على خبرها لاعتقادي بأنها مظلومة، فحسنت لأبي مسلم البحث عنها في الأطراف البعيدة، ففعل. وقد أخبره جاسوس له بأنه عثر عليها في

الكوفة بمنزل أبي سلمة، وأوشك أن يظفر بها ولكنها ما لبثت أن اختفت مرة أخرى. فغضب عليه أبو مسلم وأرجعه للبحث عنها. وقد جاءني منذ بضعة أيام وأخبرني أنه لم يعثر عليها. فهل تستطيع أنت أن تعرف مكانها؟».

وكان خالد يتكلم وصالح يتابعه في الحديث كأنه مطلع على القصة، فإذا توقف خالد أعانه بكلمة مما يعلمه، وخالد لا يستغرب ذلك لما سبق إلى ذهنه من براعته في التنجيم.

وأدرك صالح من سياق الحديث أنهم لم يعلموا ببقائه حياً، فقال في نفسه: «لا بُدّ أن إبراهيم الخازن لم يطلعهم على ذلك خشية أن يتهمه أبو مسلم بالاهمال». وسرّه أن يكون عدوه إبراهيم على مقربة منه، وربما كان في بلاط الخليفة، فأحب أن يتحقق ذلك فقال: «إنها سالمة على قيد الحياة، ولا يصعب عليَّ معرفة مكانها، إنما يحتاج ذلك إلى بعض الوقت. ويلوح لي أنها ليست في مكان بعيد من هنا، ألم تسأل المنجمين عن ذلك؟».

قال: «سألت كثيرين، فاختلفوا وتناقضت أقوالهم، وليس فيهم مَن ينفع مع رغبة أمير المؤمنين في الاستكثار منهم للاستعانة بهم، ولم أجد بينهم أحداً مثلك».

فقال: «إن أكثر منجمي هذا الزمان ينتحلون الصناعة لابتزاز الأموال، وإنما هي موهبة يختص الله بها مَن يشاء من عباده، وقلما يستطيعها أحد بالاجتهاد، على أن بعضهم يتخذها وسيلة لغرض خاص كما يفعل المنجّم حاييم!».

فضحك خالد لمعرفة صالح بذلك الاسم الجديد، وقال: «مسكين حاييم، أين هو من التنجيم، ومع ذلك فهو منخرط في جملة منجّمي الخليفة يأخذ من أعطياتهم».

فعلم صالح أن صاحبه بين منجّمي المنصور، فسكت وتزحزح من مكانه، فأدرك خالد أنه قد آن وقت انصرافه فنهض وودعه وأوصاه بأن يكتم ما دار بينهما، فوعده بذلك وبأنه سيخبره بمكان جلنار بعد بضعة أيام. فخرج خالد وقد تولته الدهشة، إذ لم يكن يظن أن مثل هذا الرجل يوجد على وجه الأرض. فذهب تواً إلى داره، وبعث إلى إبراهيم اليهودي. فلما جاء سأله: «هل وجدت الفتاة؟». فقال: «كلا».

فقال: «أما أنا فقد وجدت منجماً يستطيع معرفة مكانها».

فقال: «ومَن هو؟ أريد أن أراه».

قال: «لا سبيل لأحد إليه، فإن أمير المؤمنين لا يأذن في الدخول عليه. وقد رأيته أنا فوجدت منه مهارة غريبة. ولم أكد اسأله عن الفتاة حتى قص عليَّ خبرها، وعرف مساعيك وأنك انتحلت صناعة التنجيم لهذه الغاية، وأن اسمك المنجم حاييم ونحو ذلك مما أدهشني. وكنت أود أن تلقاه لولا ما ذكرته لك من حظر الخليفة مقابلته».

وكان إبراهيم يسمع كلام خالد وهو يفكر فيمن عساه أن يكون هذا المنجم، فلما سمع ما قصه عليه من معجزاته تبادر إلى ذهنه أنه منجم كاذب مثله، ثم رجح أن يكون هو الضحاك، ولا سيما بعد أن تحقق بقاءه حياً في الكوفة حين التقيا بباب أبي سلمة. فسأل خالداً عن شكل الرجل ولباسه فأخبره أن على عينيه عصابة وأن لحيته محناة، فسأله عن قامته فقال: «لم أره واقفاً، ولعله طويل». فلم يشك إبراهيم في أنه هو الضحاك. ولكنه تجاهل وبقي صامتاً، وقد عزم على الحذر. فصرفه خالد وعاد وهو عالق الذهن بذلك الزاهد. وأحب أن يلقاه ثانية، فبكّر إليه في الغد وأخبره بأنه لقي حاييم،

وأطنب له فيما تبيّنه من مهارته. فاستاء صالح من ذلك مخافة أن يفطن إبراهيم إلى حقيقة أمره. على أنه كتم استياءه وأثنى على خالد، وعمد إلى اجتذاب قلبه إليه كما اجتذب قلب المنصور قبله بتبشيره بما تتوق إليه نفسه. وكان خالد طامعاً في الوزارة وهو أَوْلى حاشية الخليفة بها، فقال له صالح: «إن الله سيكافئك على سعيك في التوفيق بين هذين المحبين بأكبر منصب تطمح إليه الأبصار بعد الخلافة».

فأدرك خالد أنه يبشّره بالوزارة، فانشرح صدره، ولكنه تذكر ما يحول دون ذلك من تغيّر المنصور على أبي مسلم، وخاف أن ينقم المنصور عليه أيضاً، ثم أراد أن يستفتي الزاهد في ذلك فقال له: «أحب أن أستفتيك في مسألة أخرى أقلقتني، وأرجو أن يكون ذلك سراً بيني وبينك».

قال: «قل ولا تخف».

فقصّ عليه سبب غضب المنصور على أبي مسلم، وأنه أصبح يخشاه وينوي القبض عليه، وأطلعه على تفاصيل لم يكن يعرفها ثم سأله: «هل تظن أن المنصور سيعمم نقمته فتشمل جميع رفاق أبي مسلم؟».

فأطرق صالح مفكراً، ثم قال: «كلا، فإن المنصور لم يتغيّر على أبي مسلم إلا لأنه طمع في الأمر لنفسه، وهب أنه نقم على سائر الخراسانيين فإنه لا ينقم عليك».

فاطمأن قلبه وخرج مسرعاً مخافة أن يأتي المنصور فيراه هناك.

- ١٦ -

مصرع أبي مسلم

ولبث صالح ينتظر قدوم المنصور فما عتم أن جاءه وحده، ودخل عليه خلسة حتى دنا منه وقبض على يده، فعلم أنه لا يجسر

أحد على ذلك غير الخليفة. وكان قد سمع صوته قبيل ذلك بجوار حجرته، فابتدره قائلاً: «السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله».

فقال: «وعليك السلام، كيف حالك؟».

قال: «أراني في نعيم والحمد لله على صدق فراستي، ويسرّني أن أرى أمور المسلمين في يد أمير المؤمنين أيّده الله. فهل تذكر عبارة قلتها لك يوم البشرى؟».

قال: «أذكر كلامك كله ولم أنس منه حرفاً، أظنك تعني الظلمة التي تحدق بخلافتي».

قال: «نعم، هذا ما أعنيه. وقد عرفته قبل وقوعه، وأظنه وقع فلماذا تكتمه عني؟».

قال: «لم أكتمه، وقد جئت الآن في شأنه، ولكن ما هي الظلمة التي تعنيها؟».

قال: «أتمتحنني يا أبا جعفر؟ إن الظلمة التي أعنيها هي مطامع الناس في خلافتك، وبعضهم في الحجاز والبعض الآخر في خراسان، وآخرون في هذه المدينة بل في قصرك يؤاكلونك ويشاربونك».

فجاء كلام صالح مطابقاً لما في نفس المنصور، لأنه كان يخاف العلويين في الحجاز بعد أن بايعهم على أن تكون الخلافة بعد بني أمية لمحمد بن عبد الله الحسني ثم حصر الخلافة في بني العباس. وكذلك كان يخاف أبا مسلم في خراسان لأنه قادر على نقل الخلافة والناس يطيعونه. كما كان يخاف بعض أعمامه وأبناء عمه ممن يقيمون معه. فلما سمع كلام صالح ازداد إيماناً بمهارته، فقال: «صدقت، إني أخاف على الخلافة من كل هؤلاء».

قال: «ليس أدعى للخوف من ذلك الخراساني الفتاك».

قال: «أتعني إبا مسلم؟».

قال: «إياه أعني.. فإن نجمه في أسمى المطالع، ولو أنه استنهض الحجارة لنهضت معه، ولو حارب الأبالسة لغلبهم. هذا الذي يُخشى بأسه، ولكنني أرى نجمك أسمى من نجمه وسعدك أبقى من سعده!».

فقال المنصور: «لا أخفي عليك ما في نفسي من هذا الخراساني، فقد كنت أخشاه أيام أخي السفاح فأشرت عليه بأن يحبسه فلم يطعني، فلما أفضت الخلافة إليَّ رأيت منه انحرافاً، وعلمت عنه أموراً أغضبتني فاستخدمته في محاربة عمي عبد الله الطامع في الخلافة، وضربت أحدهما بالآخر فمَن قُتِلَ منهما نجاني الله منه، ففر عمي وفاز أبو مسلم بما كان في معسكره من الغنائم. فبعثت إليه أطلب الغنائم فغضب، وعلمت أنه شتمني. فلما رأيت هذه الجرأة، خفت إذا سار إلى خراسان أن يعصاني. فبعثت إليه وهو في الجزيرة أني ولّيته الشام ومصر، وطلبت إليه أن يأتيني فأجابني بما يدل على خوفه مني، إذ كتب إلي يقول: (لم يبق لأمير المؤمنين أكرمه الله عدو إلا مكنه الله منه، وقد كنا نروي عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء، فنحن نافرون عن قربك حريصون على الوفاء لك ما وفيت، حريون بالسمع والطاعة، غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة. فإن أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك، وإنْ أبَيت إلا أن تعطي نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضناً بنفسي).

فكتبتُ إليه ذاكراً له أنه مخطىء، فأصر على الامتناع ومضى إلى حلوان وجاءني منه كتاب جمع بين الاحتجاج والاعتذار، قال فيه:

(أما بعد، فإني اتخذت رجلاً إماماً ودليلاً على ما افترض الله على خلقه. وكان في محلة العلم نازلاً، وفي قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قريباً، فاستجهلني بالقرآن فحرّفه عن موضعه طمعاً في قليل قد نعاه الله إلى خلقه، فكان كالذي دلاني بغرور، وأمرني أن أجرد السيف، وأرفع الرحمة، ولا أقبل المعذرة، ولا أقبل العثرة. ففعلت توطئة لسلطانكم، حتى عرفكم الله مَن كان يحملكم. ثم استنقذني الله بالتوبة، فإن يعف عني فقد فعل ما عُرف به ونُسب إليه، وأن يعاقبني فيما قدمت يداي وما الله بظلاّم للعبيد). فأشكل عليَّ أمر هذا الكتاب، وجمعت المنجمين منذ بضعة أيام لاستطلاع ما في نفس الرجل، فأحسنوا الثناء عليه وقالوا: (إنه تاب عما كان فيه، وإذا أحسنت الظن به وقرّبته نفعك). فأمسيت في حيرة من الأمر لا أدري أأصدق هؤلاء؟ أم أبقى على عزمي في القبض عليه؟ وكنت أنا في حيرتي هذه أفكر فيك وأطلب إلى الله أن يرسلك إليَّ لعلك تطلعني على الصواب».

وكان صالح يسمع كلام المنصور وهو جالس الأربعاء، متكىء بكوعَيْه على فخذيه ووجهه إلى الأرض كأنه ينظر فيها. فلما فرغ المنصور من كلامه، رفع صالح رأسه وقال: «لا تصدق مَن يقول أن الرجل تاب وإن استبقاءه ينفعك؟ إن صوت قلبك يا أمير المؤمنين أصدق من تكهّن المنجّمين، ولا سيما إذا كان فيهم منجم يهودي اسمه حاييم».

فاستغرب المنصور معرفته ذلك الرجل وقال: «قد لحظت من حاييم هذا رغبة شديدة في تبرئة أبي مسلم وإثبات حُسن نيّته».

فقال: «لأنه صنيعته وهو عين له عليك».

فدُهش المنصور لصحة كل ما قاله الزاهد، وكأن الغيب كتاب

مفتوح بين يديه يقرأ منه ما شاء. وكان المنصور قد أساء الظن باليهودي إذ لمح فيه الرياء والمكر فقال: «سينال هذا اليهودي عاقبة سعيه، فماذا ترى أنت في مقاصد أبي مسلم؟».

قال: «كما ترى أنت يا أمير المؤمنين، إن بقاءه خطر عليك وعلى دولتك. ولا تعبأ بما جاء في كتابه من الاعتذار، فإنه يلقي التبعة على أخيك الإمام رحمه الله، أو هي حيلة يحتال بها عليك ريثما يتمكن منك فيخرج عليك وتندم حيث لا ينفع الندم. وكأنني فهمت من كلامك أنك إذا قبضت على أبي مسلم تنوي الاكتفاء بحبسه. وقد قلت لك أن بقاءه خطر عليك وعلى دولتك لأن الرجل لا تقصر مطامعه على ولاية خراسان بل هو طامع في الخلافة».

فضحك المنصور مستخفاً وقال: «لا أظنه يبلغ به الجنون إلى هذا الحد، لعلمه أن نسَبه أقصر من أن يتطاول إلى هذا المقام، وهو مولى أعجمي والخلافة لا تكون في غير قريش».

قال: «أتوسل إلى مولاي أمير المؤمنين ألا يكذبني إذا قلت قولاً، لأني لا أقول شيئاً من عند نفسي. فأبو مسلم طامع في الخلافة، ولم يغفل عن أنها لا تكون إلا في قريش، ولذلك انتحل لنفسه نسَباً فيهم فزعم أنه من نسل سليط بن عبد الله بن العباس جدكم».

فلما سمع المنصور قوله وثب من مكانه وثبة الأسد، وغلب عليه الغضب وقال: «يا للجرأة والقحة! صدقت أنه طامع في الخلافة، فقد كتب إليَّ يخطب عمتي وجعل اسمه في ذلك الكتاب قبل اسمي، فبقاؤه عثرة في طريق دولتنا ولا بد من قتله. ولكنني يئست من استقدامه بالحسنى، وهو مقيم بحلوان وينوي الشخوص إلى خراسان».

قال: «أهديك إلى وسيلة ناجعة لاستقدامه، اكتب إليه كتاباً مع رجل ليّن اللسان يخاطبه بلطف ويرغّبه في القدوم إليك، ويؤكد له حُسن قصدك وأنك تنوي اتخاذه وزيراً لك. وتوصي رسولك إذا لم يفلح بالحسنى، أن يهدده بأنك تحمل عليه بحلوان بعيداً عن رجاله الخراسانيين».

فقطع المنصور كلامه قائلاً: «هذا الذي كنت عازماً عليه».

فقال صالح: «بقي عندي رأي، وهو أن تستكتب حاييم اليهودي كتاباً إلى أبي مسلم ويختمه بخاتمه، يدعوه فيه إلى المجيء ويطمئنه ويؤكد له حسن قصدك وأنك تنوي تقديمه. اكتب أنت ما تراه من هذا القبيل على لسان اليهودي إلى أبي مسلم واجعله يختمه بخاتمه ـ وسترى اسمه على خاتمه (إبراهيم) فلا تستغرب لأن هذا هو اسمه الحقيقي ـ ثم ابعث بهذا الكتاب مع رسول آخر يدفعه إلى أبي مسلم، على أنه مرسل من صاحبه هذا. وبعد أن تهيىء هذا التدبير، انتقل إلى بلد آخر وابق جندك الخراسانيين هنا، وأوص رسولك بأن يأتي بأبي مسلم إلى ذلك البلد. فإذا سار إليك فأسرع في قتله، واحذر أن تبقي عليه. وهذه وصيتي، وليست هي من عندي وإنما أقول ما يوحى به إليّ».

قال: «حسناً، ولكن لا بد من ذهابك معي فقد أصبحت لا أستغني عنك».

قال: «سمعاً وطاعة وإنما تأذن لي في أن أعرج أثناء ذهابي على مكان مبارك لي فيه نذر، ثم آتيك إلى حيث شئت».

قال: «افعل ما شئت، وما رأيك في المكان الذي انتقل إليه».

قال: «أرى أن تنتقل إلى (المدائن) لتوسطها بين البلدين، ولأنها المدينة التي غُلب فيها الفرس في أول الإسلام، وسيُغلب فيها هذا

الفارسي أيضاً بإذن الله».

فأُعجب المنصور بهذا التعليل وتفاءل به، وقال: «سأفعل، ومتى عدت فوافني إلى هناك». ثم تذكر المنصور أن الزاهد مكفوف البصر، فقال له: «ألا أرسل معك مَن يتولى خدمتك في الطريق؟». فلم يسع صالحاً إلا القبول وأخذ في التأهب، فخرج المنصور من عنده وأمر الحاجب أن يعدّ له فرساً ويُرسل معه رجلين من الخدم يكونان معه حتى يعود.

كان صالح ينوي الذهاب إلى جلنار ليطمئنها ويحسن لها البقاء في الدير ريثما تهدأ الأحوال، لأنه تذكر قلقها ورغبتها في اللحاق به إذا أبطأ عليها، وخشِيَ على نفسه إذا أتت إلى دار الخلافة وعلم بها خالد أو إبراهيم، أن يخبراها برسالة أبي مسلم.

أما المنصور فكتب الكتاب الذي أشار صالح بكتابته إلى أبي مسلم على لسان خازنه إبراهيم. ثم بعث إلى المنجم حابيم، فلما دخل عليه دعاه إلى الجلوس فجلس وهو خائف من تلك الدعوة ـ ولا سيما بعد علمه بوجود الزاهد (صالح) في دار الخلافة ـ فلما جلس بين يديه لحظ المنصور خوفه فقال له: «لقد دعوتك لتساعدني في إقناع أمير بني العباس (أبي مسلم) بأننا لا نريد به شراً، لأننا كاتبناه غير مرة ندعوه إلينا وهو يأبى، مع أنك تعلم حُسن ظننا به، كما تعلم صدق توبته ورجوعه إلى الصواب. فاكتب إليه كتاباً اذكر له فيه حُسن نيتنا وأن ليس له عندنا إلا كل ما يحب».

فعلم إبراهيم أن المنصور لم يكلفه بذلك إلا لعلمه بصداقة بينه وبين أبي مسلم فقال: «وما قدر كتابي بالقياس إلى كتب أمير المؤمنين؟».

فقال: «إنه نافع بإذن الله». وكان المنصور قد أمر الكاتب فأعد

كتاباً يرغب فيه أبا مسلم بالقدوم ويؤكد له حُسن ظن الخليفة، فدفعه إلى إبراهيم وقال له: «هات خاتمك».

فارتبك إبراهيم في أمره ولم يرَ مندوحة عن الطاعة، فمد يده إلى منطقته وأخرج كيساً صغيراً من جانب الدواة دفعه إلى الكاتب، فأخرج الكاتب من الكيس خاتماً طلاه بالمداد وختم به الكتاب ودفعه إلى المنصور فقرأه فإذا هو (إبراهيم) فضحك وقال: «يلوح لي أنك ذو إسمين: اسم داخلي واسم خارجي، لا بأس عليك!». وأبقى المنصور ذلك الخاتم عنده، وأقام الارصاد على إبراهيم لئلا يخرج من الانبار. وفي اليوم التالي، ذهب إلى المدائن مع جماعة من خاصته وترك بقية الجند في الانبار، ولم يظهر غرضه لأحد، واصطحب بعض المنجّمين، ولبث ينتظر قدوم أبي مسلم، ويود مجيء الزاهد قبله ليستعين برأيه إذا مست الحاجة.

أما صالح، فإنه ركب إلى دير العذارى فلما وصل إليه أبقى الخادمين مع الفرس خارجه، ودخل وقد رفع العصابة عن عينيه حتى دخل على جلنار في غرفتها، فوجدها في حالة يرثى لها من البكاء، وريحانة إلى جانبها تخفف عنها. ولما وقع نظرها عليه صاحت قائلة: «آه يا صالح لقد طال سجني في هذا الدير ونفد صبري، وقلبي يحدثني بخبر إذا خرجت منه، وقد تراكمت عليَّ الأحلام على غير عادة، وما أظن أبا مسلم باقياً كما كان، فقد رأيته في منامي جاثياً بين يدي يلتمس العفو، ويبكي ويتوسل. تأمل يا صالح، رأيت أبا مسلم الخراساني بطل المسلمين يبكي بين يدي، فهممت بأن أقبله، فاستيقظت وذهب خياله من أمامي، ولا أزال أبكي إلى الآن». قالت ذلك وهي تشرق بدموعها.

فاستغرب صالح مطابقة حلمها للواقع، ولولا فظاظة قلبه

لبكي لبكائها لأنه لم يسمع منها مثل هذا التصريح من قبل. ولم يرَ خيراً من تسكين ما بها بالكلام الليّن وتكذيب الأحلام لتبقى في الدير بضعة أيام أخرى، ريثما يتم ما بدأ به من السعي لقتل أبي مسلم، فقال لها: «ما لي أراكِ على غير ما أعهده فيك من التعقل والرزانة.. أمِن أجل حلم لا معنى له تبكين وتنتحبين وتصدقين المستحيل؟ ومتى كانت أضغاث الأحلام مما يعول عليه في تصاريف الزمان؟ دعي الأوهام وارجعي إلى رشدك. إذا كنت تتوقعين من أبي مسلم حباً فإنك تطلبين من النار ماء، لأنه رجل لا قلب له يحب به أحداً حتى امرأته!».

فلما سمعت كلامه، صاحت فيه: «ألم تكن أنت أول مَن نقل إلي خبر حبه، وأسررت إلي بما في نفسه من الشغف بي، وإنه إنما يمنعه من التصريح خوفه ألا يكون عندي مثل ما عنده. فكيف تقول الآن أنه لا قلب له يحب به وتستغرب بكائي شوقاً إليه وتستبعد أن أخطر بباله؟ قد رأيته الليلة رأي العين كأني في يقظة أو كأن روحه ناجت روحي، لا شك أنه يحبني. فكيف يمكن أن يبلغ مني حبه هذا المبلغ حتى أراه في المنام كاليقظة، وأتلقى عذابه كالراحة، وأنسى سيئاته وإن كثُرت؟ أأموت وأحيا بكلمة منه ويكون هو بلا قلب ولا عقل؟ إنه إن لم يلتفت إليَّ حباً فإنه قد يرق لي شفقة!». قالت ذلك وقد بُحّ صوتها وخنقتها العبرات وتكسرت أهدابها واحمرت عيناها من البكاء، فأخذت ريحانة تضمها وتقبّلها وتخفف عنها، ودموعها تتساقط تأثراً.

فأُعجب صالح لتفاهم القلوب ومطابقة الرؤيا للحقيقة، وحدثته نفسه بأن يبوح لها بحب أبي مسلم لها، وندمه على ما كان منه. ولكنه خشِيَ أن تفسد عليه أمره، فأمسك وقال معاتباً: «لا بأس

يا مولاتي، إني أحتمل هذه الإهانة إكراماً لك ولأبيك رحمه الله، ولا أعتب عليك لأنك فتاة لم تعرفي أمور الدنيا. أهذه عاقبة سعيي في خدمتك طوال هذه الأيام؟».

فخجلت جلنار، وتقدمت ريحانة تقول: «لا عتب على مولاي فيما قالت وهي على ما تراه من التأثر، لا أدري ما الذي أصابها منذ ألقى إليها ذلك اليهودي تلك العبارة، ليته مات قبل ذلك الحين».

فقال صالح: «أإذا أذنب اليهودي أُعاقب أنا؟ لقد حملت المشاق في هذه البراري لأطمئن عليكما وأبشّركما بقرب النجاح، فبدلاً من أن تلاقياني بالترحاب وتسألاني عما جرى تسمعاني هذا التوبيخ؟! لا بأس يا سيدتي، هل عندكما طعام فإني لم آكل منذ أمس؟».

فأطرقت جلنار، وبادرت ريحانة وأتته بما وجدته من الطعام، فأكل وهم سكوت. وقد هدأ روع جلنار، فندمت على ما أظهرته من الحدة ولكنها استنكفت أن تعتذر، وشعرت بتغير قلبها وأحست لسبب لا تعلمه بما ينفرها من صالح، وأصبحت إذا نظرت في عينيه اعتراها نفور فلم تعد تستطيع المكث معه، فنهضت إلى غرفة أخرى واستلقت على الفراش من التعب والنعاس، وظلت ريحانة مع صالح تعتذر عما فرط من سيدتها، وسألته عما جرى، فأظهر أنه متأثر مما سمعه وقال: «سأخبرك عن ذلك في المرة القادمة، فإني ساع جهدي في نفعها ولا أبالي غضبها أو رضاها، فاسمحي لي أن أنصرف الآن، ومتى أفاقت مولاتك فاهديها سلامي». قال ذلك وخرج فأصلح عصابة عينيه وعاد إلى ما كان عليه، فوجد الخادمين في انتظاره بالجواد، فركب وعاد.

أما المنصور فنزل في قصره بالمدائن، ومكث ينتظر قدوم أبي مسلم أو جوابه. وبعد بضعة أيام وصل صالح وقد سمع ما سمعه

من جلنار، وصمم على تعجيل قتل أبي مسلم جهد الطاقة لئلا يعترضه معترض، وهو يعلم أنه إذا لم يقتله قُتِل هو، إذ ليس مَن يعرف حقيقة حاله إلا أبو مسلم وخازنه إبراهيم، واستبطأ المنصور أبا مسلم، فسأل صالحاً عن سبب الإبطاء فقال: «لا بد من قدومه، وإذا لم تنجح فيه هذه الحيلة فعندي حيلة أخرى لا شك في نجاحها». وكان يريد أن يزوّر كتاباً على لسان جلنار، رداً على كتابه إليها، فهذا لا شك يحمله على المجيء.

على أنه لم يجد حاجة إلى ذلك، فبعد بضعة أيام جاء البشير بأن أبا مسلم قادم فبعث المنصور مَن يستقبله ويرحّب به ويبلّغه سلامه وشوقه. فاطمأن أبو مسلم وكان لا يزال حزيناً كئيباً لارتيابه في هذه الدعوة. فسار في موكبه حتى أقبل على قصر المنصور، فأذن له في الدخول. وكان صالح عنده على وسادة في بعض جوانب القاعة، فتقدم أبو مسلم وقبّل يد المنصور، فأظهر له ارتياحه وأمره أن ينصرف ويروّح عن نفسه ثلاثة أيام ويدخل الحمام، فانصرف.

وشق هذا التأجيل على صالح مخافة أن يحدث ما يمنعه من قتله، فقال المنصور: «أرى مولاي يماطل فيما يدعو إلى المبادرة».

فقال: "تركناه ليطمئن قلبه ثم نرى».

فلما سمع قوله خاف أن يكون في نيّته غير القتل، فقال: «ثم ترى ماذا؟ أقتل ثم أقتل ثم أقتل، وإذا لم تقتله قتلك».

فضحك المنصور وقال: «لا تخف، لا يلتقي فحلان في أجمة إلا قتل أحدهما صاحبه». فاطمأن صالح.

مكث أبو مسلم ثلاثة أيام لم يرَ في أثنائها خازنه إبراهيم، ولا خالد بن برمك، فقلق لغيابهما وانقطاعهما عنه وعاد إلى هواجسه، وفي اليوم الثالث جاءه رسول المنصور فصحبه ومعه بعض رجاله.

وكان المنصور قد أعد خمسة من حراسه مدججين بالسلاح خبأهم خلف الرواق، وقال لهم: «إذا صفقت فاهجموا عليه جميعاً واقتلوه». فلما وصل أبو مسلم إلى الباب ترجل ودخل وحده حتى مرّ بالرواق إلى القاعة، وفي صدرها سرير جلس عليه المنصور، وليس في القاعة إلا ذلك الزاهد جاثياً مطرقاً. فلما دخل أبو مسلم، حيّا ووقف وقد تقلد سيفه وعلى رأسه قلنسوة طويلة، فلم يدعه المنصور إلى الجلوس، فازداد قلقه، ثم احتال المنصور لانتزاع سلاحه منه فقال له: «أخبرني عن نصلين أصبتهما مع عمي عبد الله». فمد أبو مسلم يده إلى سيفه، وقال: «هذا أحدهما».

قال: «أرني إياه».

فأنضاه ودفعه إليه، فوضعه المنصور تحت فراشه، ثم أقبل يعاتبه على أمور كثيرة ساءته منه، وهو يرد رداً جميلاً حتى قال المنصور: «ألست الكاتب إليَّ تبدأ بنفسك وتخطب عمتي آمنة بنت علي، وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن عباس؟ قد ارتقيت لا أم لك مرتقى صعباً».

فكانت هذه الكلمة أول ما حرك غضب أبي مسلم، ولكنه كظم الغيظ وظل ساكتاً. فقال له المنصور: «ما الذي دعاك إلى قتل سليمان بن كثير؟ مع أثره في دعوتنا وهو أحد فتياننا، بل هو الذي أدخلك في هذا الأمر».

قال: «أراد الخلاف وعصاني فقتلته». ولما طال العتاب على هذه الصورة، لم يعد أبو مسلم يطيق صبراً فقال: «لا يُقال مثل هذا القول لمثلي بعد بلائي ونصرتي وما كان مني».

فقال المنصور: «يا ابن الخبيثة، والله لو كانت أمة مكانك لفعلت ما فعلت، إنما عملت في دولتنا بريحنا وجاهنا، فلو كان ذلك

إليك ما قطعت فتيلاً».

فأحس أبو مسلم الغدر في عين المنصور، ورأى نفسه وحيداً هناك، فتقدم إلى المنصور وأخذ بيده يقبّلها ويعتذر. فقال المنصور: «ما رأيت كاليوم، والله ما زدتني إلا غضباً».

فعادت الأنفة إلى أبي مسلم فقال وصوته يرتجف من الغضب: «دع هذا، لقد أصبحت ولا أخاف أحداً غير الله». فغضب المنصور وصفق بيده، فخرج الحراس فضرب أحدهم أبا مسلم على حمائل سيفه، فصاح أبو مسلم: «استبقني لعدوك يا أمير المؤمنين». فقال: «لا أبقاني الله إذن، أي عدو أعدى لي منك؟». فصاح: «العفو العفو يا أمير المؤمنين». ولكن السيوف تساقطت عليه، فخرّ على الأرض.

ونهض المنصور ليتحقق موته، فرآه لا يزال يتخبط بدمه ويزأر كالأسد الجريح، فحوّل بصره وهو يتجلد. فسمع ضوضاء في غرفة مستطرقة إلى تلك القاعة، ثم رأى بابها دفع بقوة ودخلت منه فتاة مكشوفة الرأس، محلولة الشعر، سافرة الوجه يتدفق وجهها جمالاً وهيبة، وقد هرعت ويداها ممدودتان وصاحت: «العفو يا أمير المؤمنين، العفو عني وعنه، أو اقتلني معه». ورأى في أثرها خادمتها تصيح مثل صياحها. فلما سمع صالح الصوتين عرف أنهما جلنار وريحانة، فسقط في يده. واستغرب قدومهما في تلك الساعة وجمد الدم في عروقه، ولكنه تجلد ووقف، أراد أن ينسل أثناء الضجة، فإذا برجل دخل في أثرهما وأمسك بطوقه وصاح: «امكث هنا يا خائن، قد خدعت أمير المؤمنين وحملته على قتل كبير قواده، فلا تطلب الفرار؟».

فدُهش المنصور لتلك الضوضاء، واستغرب جرأة الداخلين عليه بغير استئذان، وأراد أن ينادي الحراس ليسألهم عن ذلك،

فاستوقف انتباهه منظر تتقطع له الأكباد، إذ رأى جلنار أقبلت على أبي مسلم وهو مطروح أرضاً والدم يسيل من جوانبه، وقد توسط البساط معارضاً ووجهه نحو المنصور كأنه يتوعده، قد انتثرت قلنسوته عن رأسه فبانَ شعره وتلوث بالدم. فلما رأته على تلك الحال، صاحت: «أبا مسلم!». فالتفت ونظر إليها بعينين تكادان تجمدان من الاحتضار، وقال بصوت مختنق: «سامحيني يا جلنار». ثم ارتج عليه وأخذ يبكي بكاء الطفل فسقطت وقد أغمِيَ عليها. فاشتغل الحضور بها ورشوها بالماء، فلما أفاقت لم يكن همها إلا أن تنظر إلى أبي مسلم، فإذا به قد فارق الحياة وشخّصت عيناه وجمدتا وهما متجهتان إليها والدمع لا يزال فيهما، فرمت نفسها عليه وجعلت تتمرغ بردائه وتغمس كفّيها بدمه وتمسح وجهها، ثم همت بيديه وصدره وأخذت تقبّل ثوبه وتستنشق ريحه وتبكي وتلطم حتى لم يبق في الغرفة إلا مَن تقطّع قلبه تأثراً. فلما رأى المنصور ذلك أمر الحراس بأن يلفوا جثة أبي مسلم بالبساط ويخرجوه من القاعة، ففعلوا وجلنار تحاول دفعهم عنه، وخرجوا جميعاً ولم يبقَ هناك إلا جلنار وخادمتها إذ استبقاهما المنصور ليسأل عن سبب ما حدث. ثم تقدم إلى الفتاة وأنهضها وهو يقول لها: «ما بالك يا بُنَيّة، ما الذي أصابك؟».

فانتهبت والتفتت إلى ما حولها، فلم تجد جثة أبي مسلم فقالت: «أين هو؟ دعوني أودعه أو خذوني معه».

فقال لها المنصور: «اعلمي يا صبية أن أمير المؤمنين يكلمك».

فوقفت وتأدبت ثم التفتت تبحث عن ريحانة، فرأتها ممسكة بثوب صالح وإبراهيم قابض على طوقه وهو يحاول الفرار فصاحت فيه: «أهذا جزاء الثقة يا صالح؟ أيأتيك كتاب أبي مسلم بالتوبة والمصالحة، وأخبرك بأن قلبي يحدثني بذلك وأنت تخفي عليّ حبه،

كأنك خفت أن يفلت هذا الأسد من القتل فيقتلك. وما كفاك ذلك حتى حرضت أمير المؤمنين على قتله، وأقنعته بأنه يضمر له الشر وإن التوبة التي بعث بها إليه زائفة. وهذا كتابه إليَّ كتبه منذ بضع سنوات يشهد بصدق توبته عن كل شيء». قالت ذلك وأخرجت من جيبها منديلاً من الحرير الأحمر فيه كتاب من رق دفعته إلى المنصور. فتناوله وهو في حيرة مما يشاهده، وقد دُهش لما رآه من قبض إبراهيم اليهودي على طوق الزاهد. وكان المنصور لا يزال ممسكاً بيد جلنار، فأجلسها على السرير وقعد إلى جانبها وقال لإبراهيم: «ويحك ما هذه القحة؟ كيف تهين هذا الرجل الصالح في حضرتي؟».

قال: «لا تدعه صالحاً يا أمير المؤمنين فإنه شر خلق الله. إنه شرير يستوجب القتل لأنه حرضك على قتل أبي مسلم وأنكر توبته، وخدعك بما يظهره من التقوى والزهد وهو من أكبر أعداء أمير المؤمنين».

فبهت المنصور حتى ظن نفسه في حلم، وقال: «دعه وأخبرني بما تعرفه عنه».

قال: «لا أتركه حتى تأمر مَن يقبض عليه».

فقالت ريحانة: «اتركه فإني قابضة عليه، ولا يتمكن من الفرار مني».

فتركه إبراهيم ووقف بين يدي الخليفة، وقال: «إن هذا الذي يتظاهر بالزهد ويسمي نفسه تارة صالحاً وطوراً الضحاك وآونة الزاهد، رجل من الخوارج الأشرار كان في جملة رجال شيبان بقرب مرو عندما حاصرها أبو مسلم. وقد قام في نفسه أن يساعد حزبه بالمكائد والحيل، فالتحق بخدمة أبي هذه الفتاة وهو من دهاقين خراسان، واحتال حتى استخدم الفتاة في قتل أعدائه وهي تطيعه عن

سذاجة وسلامة نيّة، وكان قد أقنعها بأن أبا مسلم يحبها، فلما صرّح لها أبو مسلم بأن هذا لم يحدث، وقتل أباها لمالأته العرب أعداء الدعوة، عدت ذلك خيانة منه، واستمعت لتحريض هذا الشرير إياها على قتله. فمضى بها في الآفاق يترقب الفرص لبلوغ غرضه ثم ندم أبو مسلم على جفائه ورأى هذه المسكينة مظلومة فبعثني إليها بكتاب منه هو هذا الذي بيد أمير المؤمنين، وكلفني أن أطوف البلاد للبحث عنها فوجدتها في الكوفة وهممت بأن أخبرها بالأمر، فحال هذا اللعين بيننا، لأنه لما علم بمجيئي هرب بها إلى دير خارج الكوفة، واحتال على أمير المؤمنين حتى أقام بقصره وأظهر أنه يشير عليه ويطلعه على الغيب. ثم بلغه أنني أبحث عن الفتاة لأبلغها هذه الرسالة، فكتم ذلك عنها مع أنه رآها بالأمس وشكت إليه غربتها وقالت له إن نفسها تحدثها برضى حبيبها عليها. وهو ينكر ذلك مخافة أن يكون في اطلاعها على فحوى الكتاب ما يخفف ذنب أبي مسلم عند أمير المؤمنين. ولا شك عندي أن أمير المؤمنين لو اطلع على هذا الكتاب قبل فتكه بهذا القائد العظيم لأبقى عليه، إذ يتحقق توبته وتعلقه بالخلافة العباسية. وقد عرفت بوجود هذا الخارجي في دار أمير المؤمنين منذ أمرتني بكتابة ذلك الكتاب الذي كان سبباً في مقتل هذا الرجل. وعلمت أنه ما من أحد يعرف مكان جلنار سواه، فما زلت أترقبه حتى خرج إليها، فأرسلت غلاماً عرف مكانها وعاد إليَّ قبل رجوعه وأنا مع أمير المؤمنين في هذه المدينة. فلما جاء أبو مسلم منذ ثلاثة أيام فرحت بمجئيه وأحببت أن أفاجئه بمجيء حبيبته، فلم أجيء للسلام عليه بل أسرعت إلى الدهقانة ودفعت الكتاب إليها فجاءت معي وقلبها يكاد يطير فرحاً. فلما وصلنا إلى القصر قيل لنا إن أبا مسلم في مجلس الخليفة، فالتمسنا من قيِّم الدار أن يدخلنا لنقيم ريثما يفرغ من المقابلة. فأدخلونا إلى هذه الحجرة المستطرقة إلى هنا

فجلسنا ننتظر خروجه، ثم سمعنا صوته واستغاثته وعلمنا أن المسكين يقتل، فهجمت هذه الفتاة وهي لا تعي ولا استطعت ردها وفعلت ما رأيتموه. وإذا شاء أمير المؤمنين فليطلع على هذا الكتاب ليتحقق صدق قولي».

فأخفى المنصور الكتاب لئلا يكون فيه ما يثبت توبة أبي مسلم، فيُذاع أنه قُتِلَ مظلوماً.

لما فرغ إبراهيم من كلامه صاحت جلنار بصالح: «ويلك يا خائن.. أنت من الخوارج وتغشني كل هذا الزمن وأنا أعدك بمنزلة أبي؟». وحرقت أسنانها، وأطرقت وهي تبكي.

فقالت ريحانة وهي لا تزال ممسكة بثوب صالح: «اعلم أيها الأمير أن هذا الرجل، هو الذي سعى في مقتل الإمام إبراهيم عند مروان، ثم جعل نفسه زاهداً فجاءكم في الحميمة وخدعكم ولا يزال يخدعكم إلى الآن. وإذا كنت لا تصدق قولي، فمُرْه أن يزيل هذه العصابة عن عينيه فيظهر لك أنه سليم البصر وهو يتظاهر بالعمى». قالت ذلك ومدت يدها فحلت العُصابة فبانت عيناه، فأجال نظره في الحضور وهو ثابت الجنان رابط الجأش كأنه واقف على ضفاف دجلة للنزهة!

فلما سمع المنصور ذلك انفطر قلبه على تلك الفتاة، ولكنه لم يندم على قتل أبي مسلم. ثم التفت إلى صالح فرآه واقفاً لا يتكلم ولا يرتعد ولم تظهر عليه علامة الخوف، فأراد أن يسأله عما سمعه فقال له: «ماذا تقول فيما سمعته؟».

قال: «كل ما قالوه صحيح».

قال: «تقول ذلك ولا تخاف غضبي؟».

قال: «وما يخيفني من غضبك. هل تقدر على شيء شر من القتل، وأنا لا أبالي ما يصيبني بعد أن بلغت مرامي بقتل هذا الظالم، غير أني أنصح لك بأن تقتل هذا اليهودي أيضاً لأنه من أكبر المنافقين».

فقال المنصور: «أما القتل فإنه قليل على ذنوبك لأنها كثيرة وكل واحد منها يستحق القتل». ثم نظر إلى جلنار فرآها مطرقة غارقة في أحزانها، فأراد أن يشفي غليلها فقال لها: «إن هذا الجاني لك، فاختاري الطريقة التي تريدينها لقتله».

فرفعت بصرها إلى الخليفة والدمع ملء عينيها وقالت: «هل إذا بالغت في عذابه يحيّا حبيبي؟ لا أبالي كيف يموت». قالت ذلك وقد خنقتها العبرات وعاد إليها رشدها.

فأُعجب المنصور بتعقلها والتفت إلى صالح وقال: «كل ضروب القتل قليلة على ذنبك، ولكني سأقتلك كما قتل الحجاج فيروز». ودعا الحراس فأمرهم أن يشقوا القصب الفارسي ويعروا الرجل ويشدوا القصب المشقوق على بدنه ثم يسلوه قصبة قصبة فيجرحه، ثم يصبون عليه الخل والملح حتى يموت من الألم». فأخذوه وفعلوا به ما أمر الخليفة.

فلما سمعت جلنار ذلك الوصف اقشعر بدنها، والتفت المنصور إليها وقال: «وأنت يا بُنَيّة عظّم الله أجرك.. لقد نفذ القدر ولا خيرة في الواقع، فإذا شئت أن تنزلي دار أمير المؤمنين كبعض أهله نزلت مكرّمة معزّزة، وإذا اخترت الإقامة بمكان آخر كان لك ما تريدين».

فأثنت على فضل المنصور، وقالت: «إذا أحب أمير المؤمنين أن يسرني فليلحقني بهذا». وأشارت إلى مكان أبي مسلم وعادت إلى

البكاء.

فقال: «إن البكاء لا ينفعك، فاذهبي الآن مع حاضنتك إلى دار النساء للاستراحة».

فنهضت وأخذت تبحث عن جثة أبي مسلم في أقصى القاعة فلم تجدها لأنهم كانوا قد لفوها بالبساط، ثم التفتت إلى المنصور ووجهها ملوّث بالدم وقالت: «أوصيك بجثمانه خيراً». وخرجت وهي تبكي وكفاها على عينيها، وقد جمد الدم عليهما وريحانة تتبعها.

أما إبراهيم فإن وصية صالح بقتله أثرت في المنصور، فأمر بقتله سراً، وأما جلنار فقضت تلك الليلة تندب حظها وتبكي حبيبها، وأصبح أهل الدار في اليوم التالي فلم يجدوها بينهم ولا عرفوا مكانها، لأنها كرهت معاشرة الأحياء واختارت الإقامة بالدير الذي كانت فيه مع حاضنتها بعيدة عن الناس.

obeikandl.com